

المكتبة
الناراية

العالم العربي الحديث

المشرق العربي في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين

تأليف
الدكتور جلال يحيى

١٩٦٥



دارالمحارف بمط

العالم العربي الحديث

المشرق العربي في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين

تأليف
الدكتور جلال يحيى

دار المعارف بمصر

مقدمة

كان عرب المشرق قد تأثروا بحكم موقع أقاليمهم بالآراء الأوربية ، واحتكوا بحضارة الغرب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فشعروا بشخصيتهم مستقلة عن شخصية الدولة العثمانية التي حكمت هذه الأقاليم ، واعتزوا بقوميتهم التي وجدوها مرة جديدة بعد أن كانت غفيرة التأخر والجهل قد صرفتهم عن التفكير فيها والشعور بها .

وكافح من أجل هذه القومية شبان من العرب ، درسوا في المشرق وأكملوا تعليمهم في الغرب . وحاولوا أن يصلوا إلى استقلال بلادهم عن الدولة العثمانية وأن يقيموا إدارات حكومية عصرية بعد أن شعروا بفساد الحكم التركي وقاسوا من قلة نصيبهم في تصريف شئون بلادهم . فكانت الحركة من أولها حركة إنفصالية تعتمد على المتعلمين من أبناء الطبقة الوسطى الذين أسهموا في الدعاية لها وضحوا من أجلها بالنفس والنفيس .

وحاولت الدولة العثمانية أن تستخدم حركة الجامعة الإسلامية لتكتيل شعوب المنطقة والوقوف بها صفاً واحداً ضد الاستعمار . ولكن زعماء العرب عارضوا هذا التيار ، بل وحاولوا إخضاع الإسلام للعروبة وفكروا في ضرورة عودة الخلافة إلى العرب وإلى أبناء قريش .

وبعد إعلان الحرب العالمية الأولى عمل عرب المشرق على الحصول على استقلالهم من الدولة العثمانية ، فقسنوا المعسكر الاقليمي في الوقت الذي وقف فيه العدو المستعمر على الأبواب ، واختاروا الشريف حسين بن علي لقيادة حركتهم وهو يختلف عنهم في الطبقة الاجتماعية والثقافية والتكوين ،

وأنفقوا قوتهم في الجهاد ضد دولة الخلافة الإسلامية ، مسهلين على دول الاستعمار الطريق ، وتحالفوا مع دول الوفاق وتناسوا أن هذه الدول نفسها تحتل مصر والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب ، وهي بلاد شقيقة لاتقل في عروبتها عن بلاد المشرق العربي .

وأفادت الدول الاستعمارية الغربية من هذه الثورة العربية ، ونكثت بعهودها ووعودها ، وقسمت بلاد المشرق العربي إلى مناطق نفوذ وزعتها فيما بينها . (فلم يبق إقليم عربي واحد مستقل إلا في وسط الجزيرة العربية . فأنتهت صفحة من صفحات القومية العربية ، وبدأت بعدها صفحة جديدة ، يجاهد فيها كل إقليم عربي ضد مستعمرية ، وإن كانت مشاعر جميع العرب متحدة في جميع الأقاليم ، متفقة على ضرورة الاستقلال والتحرر ، ثم الاتحاد في إطار واحد يضم الجميع) . (١) واستمرت هذه الصفحة طوال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين .

تغيرت طبيعة المعركة العربية نتيجة لانقسامها ، وانفصال الوحدات المجاهدة عن بعضها وتعدد الجبهات فوق أرض المعركة .

وكان هذا هو ما تنشده الدول الاستعمارية والتسلطية التي وضعت أسس سياسة اقتسام البلاد العربية وتقسيمها ، تفريقاً للقوي الوطنية ، وإضعافاً لأبناء البلاد ، فسهل عليها أن تقابل هذه القوي المشتتة بقوة ضاربة أقوى منها ، خاصة وأن وثبان القوي الوطنية كانت غير منسقة من حيث التكتيل والتوقيت .

كانت الدول الاستعمارية الأوربية قد لبست مسوح الرهبان الأوائل

(١) تاريخ القومية العربية : للمؤلف . الجزء الأول : الثورة العربية . القاهرة . دار المعرفة ١٩٥٩ . ص ٢٥٢ .

وأعطت نفسها صفة الحضارة والانسانية في الوقت الذي إقتسمت فيه أشلاء البلاد العربية ، فتحاشت ذكر كلمة (الاستعمار) أو (الاستغلال) وأبدلتها بكلمة جديدة في قاموس الدبلوماسية وهي كلمة (الانتداب) . وأدعت هذه الدول أنها ستعمل على رفع مستوى أهالى المناطق الخاضعة للانتداب حتى تصل به إلى الدرجة التى تسمح لهم بحكم أنفسهم وتسيير شئونهم . وأخفت مصالحها الواضحة فى هذه المناطق ، كما حولت الأنظار بعيداً عن أغراضها الاقتصادية والاستراتيجية ، ونجحت أمام مؤتمر الصلح وعصبة الأمم فى طلاء أطماعها الاستعمارية الواضحة بلون مخالب ، وسترّت مساوئها بهذا الثوب ، وهو كثوب الرياء ، يشف عما تحته .

وعمدت الدول الاستعمارية الأوروبية إلى بث بذور التفرقة بين أبناء العرب فى المدارس والكلّيات حتى تعمل على تنشئة أجيال جديدة تؤمن بقوميتها المحلية الإقليمية ، فعلى العراقيين أن يهتموا قبل كل شىء بدراسة تاريخ أجدادهم البابليين والآشوريين وليفخر اللبنانيون بأنهم أحفاد الفينيقيين أما الفلسطينيون فهم أبناء الكلدانيين وكذلك السوريون فان دماءهم سريانية خالصة ، وأما المصريون فهم نسل الفراعنة الأجداد . هذا فيما بين العربى والعربى . أما بالنسبة للجزائرى مثلاً فكانت كتب التاريخ الفرنسية فى المدارس الابتدائية تتحدث عن آباءنا الجولوا .

وبالإضافة إلى تقسيم الوطن العربى إلى مناطق احتلال ، والعودة بأهل كل منطقة إلى قوميات قديمة مندثرة ، عمد المستعمر إلى تقسيم سكان المنطقة الواحدة والأقليم الخاضع لحكمة حتى يسهل عليه أمر السيطرة والتحكم . واستخدم الدين والعنصر أساساً لهذا التقسيم الجديد . فقسم بين المسلم والمسيحى ، ثم بين السنة والشيعة والخوارج ، وبين الكاثوليكى والأرثوذكسى

والبروتستانتى . ومن ناحية العنصر ، لعب المستعمر على كفتى العرب والبربر
والساميين والهاميين ، وهلم جرا .

كان هذا هو تكتيك الاستعمار لكى يحتفظ بالأقاليم التى يحكمها فى حالة
من الضعف والهزال تسمح له بالتالى بالاحتفاظ بمصالحه وباستغلال هذه
الأقاليم من الناحية الاقتصادية والاستراتيجية والبشرية .

ولكن علينا أن نتساءل عن موقف العرب إزاء هذه الخطة . خاصة وأن
العرب كانوا قد بلغوا المرحلة التى حملوا فيها السلاح واستخدموه لانتزاع
استقلالهم من الدولة العثمانية .

لقد واصل العرب معاركهم منفصلين هذه المرة ، وساروا فى ذلك داخل
الاطارات والحدود التى وضعتها لهم الدول الاستعمارية . أكان هذا نتيجة
لضعف القوى العربية أمام قوى الاستعمار ؟ أم كان السبب هو ضحالة الايمان
بقضية القومية العربية ؟ أم رجع ذلك إلى القيادة ؟ .

كان العرب قد صرخوا عاليا منادين (بالوحدة) (والاستقلال) ، فلم
تكن هناك أي ضحالة فى الايمان بالقومية العربية التى يشعرون بها تجرى فى
عروقهم . وإذا سلمنا بضعف الامكانيات العربية على الجهاد أمام قوى
الاستعمار نجد أن المناطق العربية الأكثر فقراً تواصل حمل السلاح وتجاهد
من أجل انتزاع الاستقلال . ونرى ذلك واضحاً فى إقليم نجد فى قلب
الجزيرة العربية ، وفى ليبيا وفى شمال المغرب فى الوقت الذى تقتصر فيه بلاد
الهلل الخصب ووادي النيل على المفاوضة أى الكفاح السياسى . وان علينا
أن نشير هنا إلى عامل هام هو أن بلاد المجموعة الأولى كانت لا تفرق بين

العروبة والاسلام ، أما بلاد المجموعة الثانية فكانت تسير وراء مذهب « الدين لله والوطن للجميع » .

ولكن أيكفى هذا التفسير لفهم الفوارق بين عمليات الكفاح في كل منها ؟ خاصة وأن الاختلاف واضح بين عمليات الكفاح المسلح وبعضها وبين تكوين القائمين عليها وموقفهم من أعوان الاستعمار . وواضح كذلك بين أهداف كل عملية وعملية أخرى .

ان الكفاح العربي الذي نشأ في إقليم نجد بقيادة عبد العزيز آل سعود بدأ بمهاجمة من يعتبر (عميل الاستعمار) ولكنه تراجع حينما إصطدم بالقوى الاستعمارية نفسها وإنتهى به الأمر إلى قبول الوضع القائم ، أى الوضع الذى فرضه المستعمر بتقسيمه للبلاد العربية . ثم ختم مجهوده بتقليل مغالاة (الاخوان) الوهابيين والحد من نشاط جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . أما كفاح السنوسيين الذى قاده الشهيد عمر المختار فقد عمل على تكتيل قوة الأقاليم للكفاح المسلح وحتى النهاية وحتى آخر رجل . وقام بذلك بعد أن فشلت المفاوضات ، وفشلت سياسة اللين مع المستعمر الايطالى فانصهرت ليبيا فى بوتقة واحدة وسجلت لنفسها هذا الموقف الوطنى الشعبى الاسلامى الخالد فى سجد الجهاد . وأما كفاح الريف فقد عمل على محاربة الاستعمار بأسلوب حديث وبنفس وسائله وطرقه فلقد سار حسب تكتيك واضح وهدفه هو الاستعمار نفسه . ولكنه قضى على أعوان الاستعمار الذين حاولوا الوقوف فى طريقة فى أثناء المعركة ذاتها وكل فى وقته . ولقد حاول الافادة من موقف الأحزاب اليسارية ، فى بلاد المستعمر نفسها وهدف إلى بناء دولة حديثة وعلى أسس جديدة .

علينا هنا أن نكرر أن عمليات الكفاح المسلح أو الجهد كانت متأثرة بالقيادة وتكوينها وقوة الخصم المستعمر وإمكانياته وسياسته وطبيعة الظروف الداخلية والخارجية التي سارت فيها كل معركة . ولكنها كانت متشابهة في مظاهر كثيرة . فكانت تسعى إلى توسيع أقليمها ، أي أنها كانت تسعى إلى تحقيق وحدة إقليمية أو جزء من هذه الوحدة . ولم تتراجع في سبيل ذلك إلا أمام قوات تفوقها عدداً وعدة . كما أنها كانت عمليات تزيد في اخلاصها لمبادئها وبلادها عن غيرها من العمليات (السياسية) وحظيت بشعبية كبيرة في كل العالم العربي والاسلامي ، بل وفي جميع أنحاء العالم وسجلت أسسها في سجل تاريخ الجهاد . ولا يمكن لأى منا إلا أن يعترف باحترامه العميق لها ولرجالها وبدرجة تفوق أي حركة للكفاح السياسى . ويتفق معنا في هذا الشعور رجال الاستعمار أنفسهم حتى وإن عمدوا إلى النفاق .

وظاهرة أخرى تستحق الالتفات هي أن حركات الكفاح المسلح في العالم العربي قد قضى عليها بالفشل أو اضطرت إلى الوقوف أو إلى تغيير موقفها في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين وذلك في الوقت الذي تطورت فيه حركات الكفاح السياسى وسارت مع الحوادث أو سايرتها . وهي ظاهرة تحتاج إلى الدراسة والتعمق والتحليل

رفضت إذن حركات الكفاح المسلح أن تقصر عملياتها داخل الحدود التى فرضها المستعمر . واختلفت في ذلك عن عمليات الكفاح السياسى . فإذا كانت طبيعة المعركة واحدة في كل إقليم وهي التخلص من الاحتلال والاستعمار وإذا كانت القوة الوطنية واحدة في كل الأقاليم وهي العرب أنفسهم وإذا كان الاستعمار واحداً في أساسه في كل المناطق فلا يبقى لنا

إلا عناصر قليلة تعتمد عليها في محاولة معرفة سبب هذا الاختلاف بين الاتجاهين ، والأساس الذي دفع بأبناء بعض الأقاليم إلى طريق الكفاح ، وأجبر الآخرين أو وجههم صوب الاقتصار على الكفاح السياسي ، وفي داخل الإطار الذي وضعه المستعمر: هناك القيادة ، وهناك طبيعة إعداد القوة التي تكافح ضد الاستعمار . والعامل الثاني ينحصر للأول ، إذ أن القيادة هي المسؤولة عن إعداد الجند في كل معركة . ونجد أن القيادة التي تزعمت الحركات الوطنية في أقاليم منطقة الهلال الخصيب وإقليم وادي النيل تختلف فعلا ، في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين، عن القيادة التي سارت على رأس قوات «الخوان» من نجد ، وقوات السنوسيين في برقة ، ومجاهدي الريف في المغرب .

كانت قيادات المجاهدين قد عملت في مناطق جبلية أو صحراوية ، يعشق أبناؤها الحرية ويدبثون بالمساواة ، ويقدمون عليهم من يكبرهم سنا ويحترمون بذلك الآباء ، ويكبرون ما قاموا به من كفاح وجهاد من أجل العروبة والإسلام . فاهتزت هذه القيادات ، باستنادها إلى قاعدة شعبية ينصهر كل أبناء الإقليم داخلها في شكل ديموقراطي ، وتمتاز بإيمانها وإخلاصها . وكانت حركاتهم أصيلة في شعورها بعروبيتها ومصدر هذه العروبة ، حين ربطت بينها وبين الإسلام . ودل هذا على وعيها بالدعامة الكبرى التي بنيت عليها أسس القومية العربية : «إنا أنزلناه قرآناً عربياً» ، ومرت فترة أربعة وعشرون قرن ونحن عرب، والفضل في ذلك للقرآن. فقامت هذه الحركات المسلحة تجاهد من أجل العروبة والإسلام ، حينما ظهرت أطماع الدول الاستعمارية ، وبرزت رؤوس بعض أعوان الاستعمار فوق أرض الوطن . أما القيادات التي ظهرت في منطقة الهلال الخصيب ووادي النيل فكانت

من بين من احتك بالثقافة الغربية ، وعرف أفرادها تراث أجدادهم في المشرق عن طريق تعلمهم على أيدي رجال التبشير والمستشرقين . وكان التعليم غير ميسر إلا لأبناء الطبقة التي تقدر عليه ، وهي الطبقة الوسطى . فجاء الوضع الاجتماعي لكي يفرق بينهم وبين أبناء الجبال وأهل البادية .

تولت الطبقة الوسطى إذن قيادة حركات الكفاح السياسي في البلاد العربية الواقعة في منطقة الهلال الخصيب وفي منطقة وادي النيل . وكانت هذه الطبقة قد واصلت نموها في هاتين المنطقتين منذ القرن التاسع عشر ، نتيجة للتغيرات الاقتصادية التي وقعت بعد الاحتكاك بالغرب ، والتوسع في التجارة . وكانت الثورة الصناعية وتحسن وسائل الانتاج تدفع دول الغرب إلى البحث عن أسواق تجارية لتصدير المنتجات الصناعية التي تزايد في اضطراد مع الأيام . ومع تكديس رؤوس الأموال في أوروبا ، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ظهرت حركة لاستغلال رؤوس الأموال فيما وراء البحار ، وبدأ الأوربيون بالمناطق الغربية منهم ، في شمال إفريقيا وفي بلاد الشرق الأدنى ، أو في المناطق العربية . ونعرف أن هذه العمليات الرأسمالية قد انتهت بإعلان إفلاس تونس ثم مصر ، وبوضع الحجر الاقتصادي على الدولة العثمانية ولكن ما يهمنا هنا هو أن حركة تصدير رؤوس الأموال الأوربية إلى البلاد العربية قد صاحبها التوسع في فتح المدارس ، وازدياد النفوذ الأدبي ثم السياسي للبلاد الأوربية في المناطق العربية ، ونشأت جماعات من العرب تعمل في التجارة في المنتجات الأوربية ، كما نشأت أجيال من أبناء العرب الذين تلقوا العلم في المدارس الأجنبية . فازدادت الأموال في أيدي بعض العرب الذين أصبحوا من الطبقة الوسطى ، وساعد تحسن أحوالهم على أن يدفعوا بأبنائهم إلى مواصلة التعليم في الغرب ، وأصبحوا في نهاية القرن التاسع عشر يكونون

طبقة اجتماعية قائمة بذاتها ، لها مقوماتها الاقتصادية ، ولونها الاجتماعي ، ومستوى معيشتها ، وخطوط تفكيرها المعروفة . ونمت مصالح هذه الطبقة ، وباستمرار ، وكان من الطبيعي أن يفكر أبناءها في تصريف شئون أقاليمهم أو المشاركة فيها ، وكان هذا «النمو» هو السبب الأساسي في الاصطدام مع الإدارة العثمانية . وجاءت النزعة التحررية لبناء إدارات حديثة على نسق أوربي في البلاد العربية لكن تصل بنا إلى انقسام منطقية الشرق الأدنى العربي ، في الحرب العالمية الأولى ، على نفسها .

وكان رجال الطبقة الوسطى من العرب هم الذين يسيطرون على مستقبل المنطقة وهم الذين يمولون الحركة العربية الاستقلالية بأموالهم . وشعروا بفشل مجهوداتهم ما دامت الحكومة مركزية في عاصمة الدولة العثمانية . فعمدوا إلى إنشاء وحدات سياسية جديدة ، واختاروا لذلك أحد الأشراف ولكن من العرب . وهو الشريف الحسين بن علي ، لكي يقود حركتهم ويقف موقف الند لند من خليفة المسلمين . أما صغار الطبقة الوسطى فكانوا لا يملكون إلا اتباع هذا التيار الناتج عن التطورات الاجتماعية والاقتصادية في بلادهم خاصة وأن هذا التيار كان يسمح لهم بالارتقاء على السلم الاجتماعي . كانوا يطالبون «بالوحدة» و «الاستقلال» في أثناء نضالهم ضد الدولة العثمانية . ولكن ما أن انتهت الحرب حتى أخذوا يطالبون بالاستقلال فقط ، كل في إقليمه . وخفتت الأصوات المنادية بالوحدة ، وكأنهم يرضون بوضع الحدود التي تقسم جسد الأمة العربية .

وأخذوا يطالبون كذلك بالدستور ، أي بالمشاركة في إدارة شئون أقاليمهم ، ومع من ؟ مع من يحتل البلاد ، أو من يتعاون معهم . فظهرت ضحالة

خطتهم التي صرفوا سنوات طويلة في تطبيقها ، طالبين من الاستعمار أن يزيد من إختصاصاتهم في تصريف شئون بلادهم .

كانوا يفاوضون المستعمر ويتحدثون معه بلغته ، فأرسلوا الوفود وكأنها تستجدي ، وحينما تنمروا وغضبوا وحافظوا على كرامتهم ، إتخذوا موقف المحامي المدافع عن الحق ، وكان الحق يحتاج إلى دفاع ونقاش وجدال فتضاربت مصالح هذه الطبقة مع أطماع الاستعمار إذ أن كل كان يهدف إلى السيطرة على الإدارة . وكان الاستعمار يستند إلى قوات الاحتلال في الوقت الذي تسلح فيه الساسة العرب بايمانهم «بعدالة قضيتهم» ، وأظهر لهم الاستعمار قوته الحرية بل والاقتصادية ، فأضطروا إلى الالتجاء إلى الشعوب كي تؤيدهم في خدمة القضايا . وعمدوا إلى تنظيم المظاهرات والاحتجاجات ، واتخذوا المواقف السلبية باقفال الحوائيت ورفض التعارف مع المستعمر . وذهب غضبهم إلى أبعد من ذلك ، فقطعوا الخطوط الحديدية وخربوا وسائل المواصلات والإدارة العامة ، وكانهم لا يعرفون أنهم يهدمون ممتلكاتهم . وكان المستعمر يعرف تماما مدي هذه الحركات السياسية ، كما كان قد أعد لها عدته ، فقامت الحكومات الوطنية الخاضعة له بمعارضتها ، وكلفت قوات الأمن الوطنية بتفريق المظاهرات وحراسة المنشآت العامة ، وضربت القوي الوطنية الواحدة بالأخرى ، دون أن يبذل المستعمر أى جهد . أما إذا تطلب الموقف تدخل قوات الاحتلال فهي على تمام الأهبة ، برشاشاتها ومصفحاتها ومدافعها وطائراتها، وتدخل الشوارع في لحظات ، وبكل ما تعرفه عن وسائل «الحضارة» الاستعمارية من قوة فتاكة .

وأخيراً وليس آخراً ، فيمكن للمستعمر أن يتنازل بعض الشيء لكي يحول الاحتلال أو الانتداب إلى نوع خاص من الاستقلال ، ويشرك بذلك

بعض العناصر الوطنية النامية منه في إدارة البلاد . وكثيراً ما كان المستعمر يضطر إلى ذلك ، نتيجة لوقوع تغييرات هامة في الموقف الدولي ، ونتيجة شعوره بتهديد موقفه في هذه المستعمرات أو في أوروبا نفسها . فترى القادة السياسيين أو محترفي السياسة ، يصفقون لهذا النجاح ، ويدعون أنهم انتزعوا من بين براثن الأسد الاستعماري إنتزاعاً، ويتولون إدارة حكوماتهم «المستقلة» ويحل الوثام بينهم وبين المستعمر ، ولا يرفضون له طلباً ، وكأنهم يعترفون له بالجميل ، على المناصب والمراكز التي يحتلونها . وتحمّد أنفاس الحركة الوطنية إلى زمن ، ويصبح المستعمر حليفاً من جديد وتقوم الحكومة الوطنية بكتب كل حركة تحررية شعبية ، وتحفظ للمستعمر بمصالحه الاستراتيجية والاقتصادية في الإقليم .

ولقد مرت بلاد الشرق العربي في هذه المرحلة الأخيرة منذ سنة ١٩٣٦ ، ولكن الصدمات التي أصابت العالم العربي بعد الحرب العالمية الثانية أجبرت العرب على التفكير من جديد ، وعلى التعمق والتمعن ، وعرفوا بمفردهم أن بلادهم لا زالت تخضع للاستعمار ، وإن كان قد أخفى مساوئه ، واتخذ لنفسه لونا جديداً . ولم يتغير الاستعمار ، ولكنه أصبح مقنعا ، حتى يكسب الوقت ويواصل استغلال القوي الاقتصادية والامكانيات الاستراتيجية والبشرية للبلاد العربية .

لا يمكننا أن نخلط بعد ذلك بين حركات الجهاد أو الكفاح المسلح التي ظهرت في بعض البلاد العربية وحركات الكفاح السياسي التي تزعمت البعض الآخر . وأثرت طبيعة الوضع الاجتماعي في منطقتي الهلال الخصيب ووادي النيل في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين في تكتيك السياسة ، فكانت أقل المكاسب السياسية تضطرمهم إلى وقف المعركة ، والتخلص من الحركات

العميقة أو الشعبية حتى يستردوا أنفاسهم ويركزوا أنفسهم ثم يستعدوا لأخذ وثبة جديدة ، قد يحتاجون فيها مرة أخرى إلى الشعب .

ونعود مرة ثانية لكي نصر على أن حركات الكفاح السياسى للعرب فى هذه الفترة قد صرفت جل جهدها فى معركة الاستقلال أو الدستور ، وقدمتها على معركة الوحدة . وكأنها قد وافقت ، بطريق غير مباشر ، على تأييد «الوضع القائم» Status Quo أى الوضع الناتج عن التقسيم الاستعماري للأمة العربية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى . ولكنها ستضطر نتيجة لتغير ظروفها وشعورها باتحاد أعدائها الاستعماريين فى تكتلات كبرى بعد الحرب العالمية الثانية إلى التفكير جدياً فى العودة إلى معركة الوحدة التى كانت على كل لسان فى عام ١٩١٤ .

وكان هذا التباين الكبير بين الحركات العربية فى الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين هو الذى أملى على تقسيم الكتاب فخصصت الباب الأول لشبه الجزيرة العربية من نجد والحجاز فالمملكة العربية السعودية فاليمن، والعامل الأساسى فيها هو قوة الإخوان فى نجد بقيادة عبد العزيز بن سعود .

وخصصت الباب الثانى لبلاد الهلال الخصيب بما تشتمل عليه من العراق وسوريا ولبنان . ونجد هنا كل من الملكيات الهاشمية والحركات الجمهورية وكل من بريطانيا وفرنسا . وخصصت الباب الثالث لفلسطين التى تكالبت عليها بريطانيا والصهيونية العالمية .

أما الباب الرابع فيتناول الأوضاع فى وادي النيل بشقيه مصر والسودان، منذ نهاية الحرب العالمية الأولى حتى الحرب العالمية الثانية ، وهى الفترة التى ساعدنا فيها ، بأخطائنا، على إضاعة الوقت دون أن نمس العدو وصميم فؤاده .

أما الباب الخامس والأخير فقد خصصته لبلاد المغرب العربي الذي امتحنه الله بقوى الدول الاستعمارية اللاتينية وبتكالب كل من فرنسا وإيطاليا وأسبانيا على أرض العروبة والإسلام . وسنري فيه الوثبات الوطنية المجاهدة وبداية ظهور الحركات التحررية الحديثة .

ولقد اضطررت للعودة قليلا إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى حتى أتمكن من إكمال الموضوع وإعطاء صورة واضحة منه ، بما في ذلك الأطماع الاستعمارية التي كانت موجودة فيه .

ولقد سرت في دارسى على طريقة التبسيط ، مما يسهل على القارئ العادى قراءته ، دون أن أحرم دارسى التاريخ من مادة يستطيعون الوثوق بها ، والاعتماد عليها ، دون خوف أو ملل .

ولا زلت آمل أن يقوم كتابى هذا بسد نقص واضح فى المكتبة العربية وفى أن يساعد فى الإفادة من دروس الماضى فى المراحل القادمة من كفاحنا القومى العربى من أجل الحرية والاشتراكية والوحدة .

فالى القارئ والدارس والباحث أقدم هذا الكتاب ، وما توفيقى إلا بالله .

الاسكندرية فى ٨ أكتوبر سنة ١٩٦٤ دكتور
جلال يحيى

البنّاء الأول

شبه الجزيرة العربية

رغم تربيع الأمير فيصل على عرش العراق وتولى الأمير عبد الله أمانة شرق الأردن فإن مركز والدهما الملك حسين قد أصبح مهدداً في الحجاز نفسه ، وأصبح مهدداً من قلب الجزيرة ، ومن عرب إقليم نجد . فهل هو وعى عربى بالأخطاء المتكررة ؟ أو هى حركة إسلامية خالصة ضد الحركة العربية المتحررة ؟ أم هى غير ذلك أو مزيج من كل ذلك ؟.

الفصل الأول

نجد

إقليم نجد هو تلك المنطقة التي نشأت فيها الحركة الوهابية السلفية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، داعية إلى الرجوع بالعرب المسلمين إلى حياة السلف الصالح في عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين . ولقد اصطدمت هذه الحركة بالدولة العثمانية ثم بالقوة المصرية نتيجة لمحاولاتها تغيير الوضع القائم . واستند فقهاء السنة الرسميين إلى أن الوهابيين يعلنون الجهاد في ديار الإسلام ، فأحلوا قتالهم . ورغم إنكسار شوكة الوهابيين عسكرياً إلا أن نفوذ آل سعود ظل يمتد في منطقة نجد حول الرياض وظلت المبادئ الوهابية السلفية تلقى قبولا في عقول المسلمين وقلوبهم . ولكن الإمارة السعودية تحوأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عن هدفها الأساسي ودخلت في ميدان المنافسات القبلية أمام غيرها من قوي الشياخات العربية في ذلك الوقت . تمكن آل الرشيد من احتلال الرياض نفسها ، وطردها منها آل سعود ، الذين توجهوا شرقاً حتى الكويت ، وبقوا مبعدين عن ديارهم عدة سنوات إلى أن تمكن الشاب عبد العزيز بن عبد الرحمن من استرجاع إمارة أجداده في مطلع القرن العشرين .

١ - عبد العزيز آل سعود

ولد عبد العزيز آل سعود في عام ١٨٨٠ وقاسى في صغره من تشريد أسرته من إمارتها . وعرف أن السبب الرئيسي في القضاء على إمارتهم هي الدولة العثمانية التي دفعت آل الرشيد في شمر إلى الهجوم على الرياض . ولم ينس عبد العزيز ذلك للاشتراك .

ولقد كانت حياة عبد العزيز قريبا من الشيخ مبارك آل الصباح في الكويت أكبر مساعد له على تفهم معنى السياسة وألاعيبها وخدعها وتضارب المصالح بين القوي والزمومات الوطنية من ناحية، وبينها وبين القوى الاستعمارية من ناحية أخرى . فرأي محاولات الشيخ مبارك آل الصباح للتحرر من النفوذ العثماني وعقده معاهدة مع السلطات البريطانية في الهند يضع بها مشيخته تحت الحماية الأجنبية . وكان الشيخ مبارك قد بدأ حياته السياسية باغتصاب المشيخة من أخوية بعد أن قتلها ، وحينما حاولت السلطات العثمانية التدخل في الأمر وضع الشيخ مبارك نفسه ومشيخته تحت الحماية البريطانية . وكانت كل من ألمانيا والروسيا تحاول جاهدة وضع أقدامها في منطقة الخليج العربي . ولكن الشيخ مبارك استعان ببريطانيا عليها . ونشأت بهذه الطريقة قوة جديدة تعارض الدولة العثمانية ، وتحت الحماية البريطانية ، على الخليج العربي . وتلقى عبد العزيز آل سعود أول دروس له في السياسة على أيدي رجالها .

وكان عبد العزيز آل سعود يرغب في الانتقام من آل الرشيد الذين استولوا على إمارة أجداده . وكان ابن الرشيد يمثل السياسة العثمانية في وسط الجزيرة العربية أصدق تمثيل . فكان هذا عاملا أساسيا في تطابق المصالح بين آل الصباح وآل السعود . وما أن بلغ الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن سن العشرين حتى ساعده الشيخ مبارك ببعض الأموال والرجال ليتمكن من مناوئة آل الرشيد وإبعادهم . ولكن عبد العزيز آل سعود تمكن بهذه المجموعة البسيطة وبذلك الحفنة من الرجال الذين انفوا حوله من الاستيلاء على الرياض في سنة ١٩٠١ . وعادت عاصمة نجد إلى ولائها لآل سعود .

وحاولت الدولة العثمانية التدخل في الأمر ، خاصة وأن بعض أفراد

أسرة آل صباح كانوا قد التجثوا إليها ضد الشيخ مبارك - ولكن هذه المحاولة فشلت . وذهب هؤلاء الأفراد إلى آل الرشيد الذي بدأ في إعداد قواته للهجوم بها على منطقة الكويت معتقدا أنها المركز الذي يمون السعود في نجد . وتمكن ابن الرشيد من هزيمة قوات الشيخ مبارك ولكنه عجز عن احتلال المنطقة نظرا لوقوف إحدى البوارج الحربية البريطانية أمام الساحل . فاضطر ابن الرشيد إلى التقهقر وانتهر ابن السعود هذه الفرصة لاحتلال عنيزة وتوسيع حدود إمارته . واضطرت الدولة العثمانية إلى إرسال المدد العسكري إلى ابن الرشيد لكي يقضى على هؤلاء المشايخ المتمردين عليها ، فأرسلت القوات والأسلحة والمدافع والذخائر . ولكن رجال عبد العزيز آل سعود تمكنوا بسيوفهم وحرابهم وقوة إيمانهم من هزيمة هذه القوات وأخذوا منها غنائم حربية هامة في موقعة البكيرية . وكانت هذه نقطة فاصلة في تاريخ شبه الجزيرة التي تقلص منها النفوذ العثماني وسلطة الموالين له شمالا في إقليم شمر بعد قتل الأمير ابن متعب في ١٢ أبريل سنة ١٩٠٦ . وأصبح مركز عبد العزيز آل سعود قويا في منطقة نجد .

وجاءت ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ وحاول الشيخ مبارك آل الصباح الاستيلاء على العراق وفصله عن جسد الدولة العثمانية وإقامة إدارة عربية فيه وكانت هذه الخطة تتمشى مع الأطماع الاستعمارية للسلطات البريطانية في الهند تلك السلطات التي عملت على مد نفوذها في منطقة الخليج العربي هادفة البصرة ومنها شمالا حتى بغداد . ولكن الشيخ مبارك فشل في هذه المحاولة إذا لم يكن له من الوسائل المادية والمعنوية ما يسمح له بتنفيذها .

ورغم أن رجال تركيا الفتاة قد أعدوا برامج للإصلاح ، إلا أن العرب

تأكدوا من أنهم ان يتمكنوا من الحصول على استقلالهم في عهد جمعية الإصلاح والترقي ، خاصة وأنها عملت على التوحيد بين العناصر والشعوب التي تسكن الدولة في الوقت الذي حاول فيه العرب الاتفصال بأقاليمهم خارج محيط هذه الدولة . ونظر عبد العزيز إلى تصرفات الثورة التركية نظرة الشك خاصة وأنها عينت الشريف الحسين بن علي الهاشمي في الحجاز . وكان السعوديون يضمرون العداء للأشراف منذ عهد العمليات الحربية التي وقعت في الحجاز في أوائل القرن التاسع عشر . ورأي عبد العزيز في هذا التعيين تدعيا لنفوذ الأتراك في البلاد العربية وربط بينه وبين تقوية الحاميات العثمانية في أطراف شبه الجزيرة .

وكانت بريطانيا تواصل من ناحية أخرى عملية تطويقها للبلاد العربية ناشرة بذلك نفوذها من الخليج العربي ومن عدن ، بل ومن مصر أيضا . فوجد عبد العزيز آل سعود أن هناك دائرتين تعملان على تطويقه والحد من خطته ، الأولى عثمانية والثانية بريطانية . وكان عبد العزيز في حاجة إلى مخرج له على البحر ، وكان أقرب ساحل هو الخليج العربي الذي تفوق فيه النفوذ البريطاني نظرا لوجود الأسطول ووجود أعوان البريطانيين مثل الشيخ مبارك . ولم يكن في قدرة الأتراك أن يمنحوا عبد العزيز مثل هذا المخرج ويؤمنوه له أمام عداء البريطانيين ولكن كان في استطاعة السلطات البريطانية أن تترك لعبد العزيز نافذة تطل على الخارج في هذه المنطقة رغم معارضة العثمانيين .

فاتصل عبد العزيز بالشيخ مبارك وطلب منه سنة ١٩١١ أن يحاول معرفة نيات حلفائه البريطانيين تجاهه . ولم تكن السلطات البريطانية تعارض في

امتداد النفوذ السعودي ، ما دام هذا النفوذ يبعد السلطة العثمانية من سواحل الخليج ، وما دامت مصالح ابن السعود لا تتعارض مع مصالحهم ومصالح حلفائهم ، وخاصة في منطقة الكويت . فأخذ عبد العزيز آل سعود في الاستعداد واتجهت أنظاره إلى منطقة الأحساء ، وجاءت الحرب الإيطالية التركية سنة ١٩١١ ثم الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ لكي تسهل له خطة العمل .

اضطرت الدولة العثمانية إلى سحب جزء من حامياتها المتفرقة شرقاً وغرباً لكي تواجه بها هجوم البلغار على القسطنطينية ، وعلم عبد العزيز أن عدد حامية الحفوف (عاصمة الأحساء) قد انخفض إلى النصف . ولما كان الأهالي لا يقبلون حكم الأتراك لمنطقتهم إلا مكرهين ، وكان بعض الوهابيين يعيشون فيما بينهم ، فكان من السهل انتزاع الأحساء من أيدي المتصرف العثماني .

فأعد عبد العزيز قواته وسار بها مسرعاً ودون توقف ، متجهاً ضوب الحفوف . فبلغها بعد ثلاثة أيام . وتسلق بعض رجاله أسواق المدينة وفتحوا الأبواب فدخلتها المقدمة التي تمكنت من الاستيلاء على الأبراج والقلعة . وفي الصباح دخلت بقية قوات السعوديين إلى المدينة ، وحاصرت رجال الحامية الذين اعتصموا بالمسجد . وبعد مفاوضات مع المتصرف ، قبل عبد العزيز أن يخرج الجنود العثمانيون بأسلحتهم وأسرهم وأمتعتهم عائدين إلى البصرة . ثم احتل السعوديون مينائي القطيف وعقير فخضع لهم كل الإقليم . وبطبيعة الحال لم تتحرك بريطانيا أمام توسع السعوديين على الخليج العربي . أما الحكومة العثمانية فقد شعرت بعجزها عن إعادة إقليم الأحساء إلى إدارتها المباشرة ، وحاولت أن تكسب ود عبد العزيز بن سعود ، فأعترفت له بالأمر الواقع وعقدت معه اتفاقية اعترفت فيها به أميراً على نجد وملحقاتها ، ومنحته الوسام العثماني .

وكان ضم الأحساء إلى نجد في عام ١٩١٣ سببا في ازدياد نفوذ عبدالعزيز آل سعود من الناحية الأدبية في بقية العالم العربي ، وانتهت حالة العزلة التي عاشها وسط الجزيرة بحصوله على منفذ بحري هام . ولم يدر ابن سعود ولا بريطانيا في هذا الوقت ما تشتمل على أرض الأحساء من كنوز ستغير تاريخ الشرق العربي بعد سنوات .

٢ - انشاء الاخوان :

أعلنت الحرب العالمية الأولى واشتركت فيها الدولة العثمانية وكل أقاليمها العربية في وقت لم يكن فيه عبد العزيز بن سعود في وضع يسمح له بالمشاركة مشاركة إيجابية في مجهوداتها . كانت مبادئ الاستقلال العربي عن الدولة العثمانية قد انتشرت في كل مكان . نتيجة لنشاط الجمعيات الوطنية وخاصة جمعيتي الفتاة والعهد . وكان تحرير الأقاليم السورية وبلاد العراق وإرجاعها إلى الحكم العربي أمنية تداعب قادة العرب وزعمائهم . ولكن عبد العزيز فكر في الأمر ووجد أن خروجه على رأس رجاله من وسط الجزيرة إلى سوريا أو العراق قد يساعد على إنشاء حكم عربي في هذه الأقاليم ، ولكنه لن يحمل فائدة أساسية للجزيرة العربية نفسها . ستتجدد دماء هذه الأقاليم وستقوى على تغيير وضعها السياسي وربما الاقتصادي ، ولكن نجدا ستظل موطنا لقبائل منقسمة غير ثابتة وفي وضع اجتماعي متأخر . فصمم على البدء باقليمه وعمل على بنائه بشكل يسمح له فيما بعد بمشاركة بقية البلاد العربية حياتها وكفاحها .

كان رعايا عبد العزيز آل سعود ينقسمون إلى قسمين : الأول هم سكان القرى والمدن ، والثاني هم سكان البادية . وإذا كان في استطاعته أن يثق في

ولاء أبناء القسم الأول ، فان تطبيق النظام على البادية كان أمرا صعبا ، ما داموا يعيشون على طريقة العصور البائدة . كان رجال القبائل في حركة دائمة ويؤمنون بأن حياة البدو المتقلين هي أشرف حياة وأنبلها وكانوا يعتزون بأنسابهم التي يرجعون بها إلى آدم ، ويعتزون بحريتهم وبسيوفهم وكانوا في حقيقة الأمر يقنعون بنحيامهم وخيولهم ونسائهم ، وحرريتهم ، ولا يعترفون بكثير من الالتزامات التي تفرضها المجتمعات على الأفراد ، وكثيرا ما أثرت فيهم الفصاحة والخطابة حينما تمس عواطفهم فيتخذون من المواقف ما قد يدفع بهم إلى الحرب ، ولكنهم عجزوا ، نتيجة لتحكيمهم العواطف عن القيام بمجهودات متواصلة في طريق بعينه . وقد قامى عبد العزيز نفسه منهم كمحاربين وكرعايا ، إذ كانوا لا يتورعون في حالات خاصة عن الانضمام إلى العدو أو الاقتصار من المعركة على أخذ الأسلاب . وكم من مرة اضطر فيها إلى عقابهم . ولكن هذا العقاب لم يعط إلا نتائج مؤقتة ، ولم يغير شيئا من عاداتهم أو أخلاقهم .

ولقد وجد عبد العزيز أنه من الواجب عليه أن يعمل على تغيير ظروف حياتهم تغييراً أساسيا ، وفكر في تغيير حالة البداوة والتنقل بتثبيتهم حول عيون المياه ، وإغرائهم على العمل في الفلاحة ، أى تغييرهم من مجتمع الرعى إلى مجتمع الزراعة ، شيئا فشيئا . فاختار لذلك بعض عيون الماء الثانوية أو التي تبعد عن طرق النوافل الرئيسية ، وعمل على تحسين وسائل الري وزيادة مساحة الأرض المزروعة فيها ، إغراء للقبائل المحيطة على التوطن والعمل الثمر . وستصبح هذه (المستعمرات) مع مضي الوقت مراكز لتجنيد قوات تدين بالولاء لابن سعود ، وتعود بعد المعارك لكى تواصل عملها في أراضيها

فيمكن لسيد الجزيرة أن يصل بالتالى إلى تغيير نوع القوات المحاربة التى يعتمد عليها فى بناء دولته العربية .

ولكن الحالة الفكرية ، أو المستوى الحضارى الذى كانت تعيشه نجد فى هذا الوقت لم تكن لتسمح لعبد العزيز بالقيام بهذا المشروع إلا إذا ما استند إلى الاسلام كدعامة أساسية . فلتكن هذه المستعمرات إذن زوايا سعودية يرتبط فيها الأهالى بوحدة فى التكوين ووحدة فى الهدف . سيتعلمون أنهم يجاهدون فى سبيل الله وتحت قيادة موحدة يعترفون بها ويحترمونها ، ويتركون جانبا عصبياتهم القبلية وولاءهم للنسب . فيتمكن ابن سعود إذن من توجيه حب العرب للحرب إلى صالح المجموع ويبث فى العرب حب وطن محدد، مبتدئا بهذه البقع الخضراء التى ستنتشر فى الصحراء طولا وعرضا .

وكان الطريق مليئا بالعقبات ، خاصة وأن ابن سعود كان يهدف إلى مهاجمة الوضع الاجتماعى فى أسسه الاقتصادية وفى طبيعة تكوينه . وجاءت العقبات من اعتزاز العرب بطريقة معيشتهم ، وجاءت العقبة الأساسية من الزعامات والقيادات التى خشيبت من ضياع امتيازاتها . وترأس المعارضة آل سعود أنفسهم .

كان أفراد هذه الأسرة هم المشرفون على الدعوة الوهابية التى نظمت نفسها فى شكل هرمى . فاحتفظوا لأنفسهم بالزعامة أو القيادة ، وكانت الأوامر والارشادات - تنفرع منهم عن طريق القيادات الثانوية إلى أن تصل إلى القبائل . وكانت امتيازاتهم تعتمد من ناحية على المذهب الوهابى ومن ناحية أخرى على السيف أداة الجهاد . فأرو فى إقامة هذه (المستعمرات) أداة

لإقامة قوة حديثة لا تدين بالولاء إلا لعبد العزيز ، رغم سيرها على الطريقة الوهاية . وخشوا من أن يؤدي هذا المشروع إلى أن يفقدوا كل ما لهم من كلمة . ولكن عبد العزيز أفهمهم أنها معسكرات دائمة ثابتة تعمل من أجل الاسلام . ونجح في الحصول على تأييد والده الامام عبد العزيز أمام التجربة التي قد تثبت له الأيام فشلها .

فبدأ عبد العزيز بواحة الأرتاوية الواقعة بين نجد والاحساء ، وجعلها برجاله المخلصين وجعلها مركزاً لإقامة (الاخوان) ، الذين حصلوا على ملكية أراضيهم وأصبحوا يكونون مجتمعاً صغيراً يلتف حول المسجد ويقوم بالزراعة ، ويحتفظ كل فرد منهم في منزلة الصغير بسلاحه وبطلقات الرصاص ويعتبر نفسه مجاهداً في سبيل العروبة والاسلام ولكن تحت قيادة عبد العزيز بن الرحمن ولا يعمل إلا بأوامر صريحة منه .

وأخذ عبد العزيز في الاهتمام بهذا المجتمع الجديد . وكثيراً ما قام بزيارته وشجع الاخوان على العمل . ثم عهد بقيادة هذه المنطقة إلى الشيخ الدويش وهو من الرجال المعروفين بغيرتهم على الاسلام وبحميتهم في الدفاع عن العروبة . وأثبت بذلك أن الضغائن والانقسامات القبلية قد انتهت وحلت محلها سلطة مركزية تعتمد على نظام الدولة الحديثة وشعور المواطن بخضوعه لسلطة مركزية تعطيه حقوقه وتتطلب منه أن يقدم الإلتزامات .

ووجد عبد العزيز أن علماء نجد يعارضون المشروع ويحاولون القضاء عليه إذ أن هذا النظام الجديد يجعل منهم مجرد موظفي دولة ، دون حصول ولا طول على الرعية التي تدخل في هذا البناء ، ويزايد عددها باستمرار . وكان هذا الصراع منطقي بين سلطة الدولة أو سلطة الملكية الناشئة وبين

من يعيشون على بقايا مجتمع إقطاعي ويرتزقون منه . فعمل ابن سعود على توجيه مجهوداتهم وانظارهم صوب خطر آخر لا يمكنهم أن يتقاعسوا عنه أو يقدمون غيره عليه ، ألا وهو خطر نمو سلطة الأشراف الهاشميين مرة جديدة في بلاد الحجاز وتحكمهم في الحرمين الشريفين . فلم يمكنوا من التراجع مادام هناك منفس لنشاطهم ، وميدان لعلمهم .

وواصل عبد العزيز مراماته وموالاته للاخوان وللنظام الجديد الذي أنشأه لهم حتى بلغ عددهم في ظرف أربع سنوات خمسين ألفاً . وأصبح له من الإخوان ما يسمح له بالسيطرة على كل الجزيرة العربية ، معتمداً على قوات منظمة تعرف معنى الطاعة ولا تحارب لمجرد الحصول على الغنائم . وكانت ظروف الحرب قد غيرت من القوي الموجودة في شبه الجزيرة العربية ومن موقف هذه القوي الواحدة من الأخرى ، وعلاقات كل منها بالدول العظمى ذات المصالح في المنطقة .

٣ - الحرب والحياة :-

نشبت الحرب العالمية الأولى واضطر عبد العزيز ال سعود إلى اختيار موقف له منها ومن القوي المتصارعة في الميدان . كان عليه أن يختار بين الحياد وبين الاشتباك . أما الحياد فكان موقفاً يسمح له بالاحتفاظ بقواته النامية ولكنه سيدفع بالقوي المتحاربة إلى محاولة السيطرة على أقليمه وضمه إليها بالقوة ، ولن يجد عبد العزيز في هذه الحالة من يدافع عنه أو يعينه في الحرب الهجومية عليه . وأما الاشتباك فكان يضطره إلى بذل المجهودات واضعاف قوته الناشئة . ولم يكن الاشتراك في الحرب أمراً مضمون العاقبة ، كما كان من الصعب معرفة الجانب الذي ستكمل مجهوداته بالنصر .

رأى عبد العزيز أن الدولة العثمانية هي دولة الخلافة الإسلامية ، ولكنها كانت خلافة تركية غير عربية ، وكان لا يوافق على الحالة التي وصلت إليها حياة المسلمين في ذلك العصر . وكانت الدولة العثمانية تعتمد إهتماماً كلياً على آل الرشيد في شمر ، وهم أعداؤه الأبرار . ورأى في بقاء الشريف حسين بن علي في الحجاز خطراً ثانياً يهدد دولته في الرياض ويهدد طريقته في الحياة الإسلامية .

وشعر بضرورة القضاء على نفوذ الهاشميين من الأراضي المقدسة حتى يتمكن من تطهير الحياة الإسلامية والعودة بها إلى حياة السلف الصالح . فكان هذا عاملاً ثانياً يدفع بعبد العزيز آل سعود ضد الدولة العثمانية ، وإن كانت دولة الخلافة الإسلامية .

ووجد أمير نجد خطورة البقاء وحيداً في ميدان المعركة ، فعزم على الميل إلى جانب بريطانيا التي إزداد نفوذها في الخليج العربي وأرسلت إحدى حملاتها العسكرية إلى البصرة وجنوب العراق . وأراد أن يتخذ من هذا التحالف عامة لبناء سياسة وطنية خاصة به ، وإسلامية في نفس الوقت ، سياسة تهدف إلى تقليم أظافر النفوذ التركي في شبه الجزيرة العربية بالقضاء على آل الرشيد ، وتهدف من ناحية أخرى على القضاء على الاستقراطية الإسلامية ، وأرستقراطية الهاشميين التي تعتمد على نسبها ودمائها في حكم المسلمين ، خاصة وأن السعوديين كانوا لا يعترفون لعربي بفضل على عجمي إلا بالتقوي ، وهو ما يتعارض تمام المعارضة مع الاستناد إلى الحسب والنسب .

وسعت بريطانيا إلى الاتعمال بعبد العزيز آل سعود في نفس الوقت الذي نشط فيه رجالها لجذب العرب إلى جانب الحلفاء ضد تركيا ودولتي الوسط .

فأرسلت شكسبير ، قنصلها في الخليج العربي إلى الرياض ، وبذل هذا القنصل مجهوده لكى يدفع بسيد نجد إلى إعلان الحرب على تركيا . ولقد اقترح عليه عبد العزيز أن تقوم قوات نجد باحتلال الحجاز وطرد الاشراف منها ، خاصة وأنه لم يعلم بالمحادثات التي كانت قد بدأت بين الشريف حسين وبين السير هنري مكماهون . ولكن شكسبير حذره من الهجوم على الحجاز . فرأى عبد العزيز خطورة إعلانه الحرب على دولة الخلافة الاسلامية ، وهو المسلم الأصيل .

وفي أثناء هذه المفاوضات قام ابن الرشيد بارسال حملة ضد نجد واعتمد فيها على مساعدات من الدولة العثمانية ووقعت معركة بين الطرفين في جراب ، خسر فيها كل من الطرفين خسارة فادحة ، خاصة وان الحملة كانت مزودة بالمدفعية . ولقد قتل شكسبير نفسه في هذه المعركة . فتأكد ابن سعود من استحالة الانضمام إلى جانب تركيا ، ومن صعوبة البقاء منعزلا مادام ابن الرشيد ومعه النفوذ العثماني ، يسعيان إلى القضاء عليه .

فما أن اتصل به كوكس ، الذي حل محل شكسبير في تمثيل بريطانيا في الخليج العربي حتى وافق على مقابلته . وجرت بينها مباحثات في عقير إنتهت بعقد اتفاقية اعترفت فيها بريطانيا باستقلال نجد وملحقاتها ، وتعهد فيها ابن سعود بالبقاء على الحياد المشرب بالود تجاه بريطانيا ، إذ أنه تعاهد بمصادقة من يصادقها ومعاداة من يعاديها . ولكنه لم يتعهد بمحاربة الدولة العثمانية في الوقت الذي تعهدت فيه بريطانيا بالدفاع عنه وإمداده بالأسلحة والذخائر في حالة الهجوم على أراضيه . وتبرعت بريطانيا باعطائه خمسة آلاف جنيه سنويا ، وتعهد عبد العزيز عن نفسه وورثته من بعده ألا يتنازل بالبيع أو الرهن أو الهبة بأي جزء من أراضيه لدولة أخرى ، إلا بموافقة الحكومة البريطانية .

ويظهر من هذه الاتفاقية جهل عبد العزيز بن سعود بالقانون الدولى وعدم إستناده إلى مستشارين مخلصين ، إذ أن هذه المادة كانت بمثابة وضع بلاده تحت الحماية البريطانية .

وعلى أي حال فقد أمن عبد العزيز بهذه الاتفاقية على ممتلكاته ضد أي خطر خارجى واعتقد أنها تسمح له بمهاجمة الحجاز وانتزاعه من سلطة الشريف حسين ، ولكنه جهل بقية خطوط الدسائس البريطانية فى البلاد العربية . فسرعان ما يعلن الحسين الثورة العربية ضد الدولة العثمانية ويتعاون تعاوناً وثيقاً مع قوات الحلفاء فى الشرق الأدنى . وحينئذ يعلم ابن سعود أن خصمه قد أصبح حليف بريطانيا الأول فى المنطقة ، وأنه قد قيد نفسه بمصادقته مادام الحسين صديقاً لبريطانيا . ولكن هذه الصداقة كانت على غير أساس ، إذ أنها كانت تتعارض مع طبيعة القوى الموجودة فى المنطقة .

٤ — النزاع مع الحسين :

كان إعلان الشريف حسين للثورة على الأتراك من الأراضى المقدسة ، ثم إعلان نفسه ملكاً على البلاد العربية أكبر تهديد لإستقلال نجد . ورأى عبد العزيز بن سعود ألا حق للحسين للتحدث باسم العرب جميعاً ، فبالك باعلان نفسه ملكاً عليهم ، ودون أن يحصل منهم على البيعة . وكان هذا بداية للشقاق السياسى بين القوتين الناشئتين فى شبه الجزيرة العربية فى ذلك الوقت : قوة السعوديين ، وقوة الأشراف الهاشميين ، وزاد الطين بله أن الحسين بن على طلب من عبد العزيز أن يمدّه بالرجال لمقاتلة الأتراك ، ثم زادت مخاوف عبد العزيز حين استلم مبلغ الخمسة آلاف جنيه ، التى وعدته بريطانيا بها من (ملك الحجاز) ، مما وضعه فى مركز التابع من الحسين ، وهو مركز لا يرضى عنه .

ورأي عبد العزيز أنه يعتمد على «مذهب» وعلى «أخوان» يحاربون عن عقيدة في الوقت الذي يعتمد فيه الحسين على مجندين من المرتزقة يعملون في خدمة الامبراطورية البريطانية ، لقاء رواتب ، فكان من الطبيعي أن تصطدم هاتين القوتين ، رغم تحالف كل منهما مع بريطانيا ، نتيجة لاختلاف تكوين واتجاه كل منهما عن الأخرى . وتطلب الأمر تغيير الموقف السياسى ، أو نشوء الادعاءات لكى تتخذ ذريعة لاعلان التصادم .

وسرعان ما أظهر السعوديون نزعتهم الاستقلالية أمام القوة الجديدة التى عمل الحسين جاهدا على بنائها ، ووقع النزاع فى منطقة التخوم أو الحدود بينها وعلى واحة الخرمة .

عمل الحسين على إخضاع هذه الواحة لسلطة الحجاز رغم دخولها فى نطاق الأراضى التابعة للسعوديين ، ووجود كثير من الوهابيين فيها وكانت هذه الواحة سوقا لبيع منتجات إقليم نجد ومواسيها إلى أهالى الحجاز . فما أن أرسل الحسين قواته لاحتلالها حتى صمم عبد العزيز بن سعود على إعادتها إلى نجد وجعلها حدا يوقف عنده (توسع الدولة الحجازية) فى ممتلكاته .

واحتاج عبد العزيز آل سعود إلى منفس تخرج منه نزعة أهل نجد لنشر المذهب الوهابى فى الاقاليم العربية المجاورة . كما شعر بضرورة إظهار قوته للسياسة البريطانية ووضعها أمام الأمر الواقع وإقناعها بأن له من المقومات التى تسمح له بالسيطرة على البلاد العربية ما لا يتوفر لدى الهاشميين . فصمم على محاربة القوات الحجازية وأعد قواته وسار بها متجها صوب الغرب ، صوب أراضى الحسين .

ولقد حاول فيلبى ، ممثل السلطات البريطانية فى الهند لدى ابن سعود أن

يشنيه عن عزمه ، ويذكره باتفاقية العقير والتزاماتها . ولكن عبد العزيز أصر على حقوقه في منطقة الحـرمـة وعلى التزام بريطانيا بمساعدته إذا ما هاجمته قوات أجنبية .

ووقعت الموقعة الفاصلة في تربة بين قوات الملك حسين وبين رجال الإخوان وسقط على أرض المعركة خمسة آلاف قتيل وكان النصر في جانب مقاتلي نجد الذين استولوا على غنائم حربية من بنادق ومدافع ورشاشات كثيرة . ونجحوا بذلك في كسر قوة الحسين الرئيسية في الحجاز ، في الوقت الذي تشتت فيه بقية قواته في الشمال وأصبحت القوة الرئيسية في شبه الجزيرة العربية هي قوة نجد التي انفتح الطريق أمامها ، دون مقاومة إلى مكة والمدينة .

وقعت هذه الموقعة سنة ١٩١٩ وفي الوقت الذي دارت فيه المفاوضات بين الحلفاء وبين الهاشميين لتسوية مشاكل ما بعد الحرب . وحاولت بريطانيا أن تجد في إتفاقها مع الأمير فيصل ما يخرجها من تضارب وعودها ، بين استقلال العرب الذي تعهدا به للشريف حسين ، وإتفاقية سايكس بيكو التي إتفقوا فيها مع حلفائهم الاستعماريين على تقسيم البلاد العربية ، وبين هذه الوعود نفسها وتصريح بلفور الذي هدف إلى إدخال مشردي اليهود ، أو من يدعون التشرد ، أرض فلسطين العربية وإقطاعهم إياها . احتاجت بريطانيا إذن إلى معاونة الهاشميين السياسية لإخراجها من ورطتها والموافقة ، ولو بشكل مقنع ، على مصالحها الاستعمارية في البلاد العربية . فلم يكن من السهل إذن على بريطانيا أن تتخلى عن الهاشميين ، وخاصة أمام قوة نجد الناشئة التي تستند إلى حد السيف لتغيير الوضع القائم ، ولبناء دولة تعتمد على الإسلام .

اضطرت بريطانيا إذن إلى الوقوف إلى جانب الحجاز في هذا الوقت متذرة في ذلك بوفائها بتعهداتها الدولية !! وطلبت إلى عبد العزيز آل سعود أن يترك تربة والخرمة أرضاً خلاء ، حتى تتم تسوية مشكلات ما بعد الحرب والحدود ، وأن يعود في الحال برحاله إلى نجد . وهددته بأن الاتفاقية البريطانية السعودية (اتفاقية العقير) ستصبح لاغية في حالة رفضه تنفيذ هذا الطلب ، بل وبأنها ستتخذ التدابير اللازمة ضد هذه الحركة المعتدية على الحجاز . أما في حالة انسحاب أهل نجد فإن بريطانيا ستقدر لعبد العزيز بن سعود عمله ، وتعتبره دليلاً على الود والولاء . (لأنها تعد الجميع أصدقاء لها وتأسف أشد الأسف لما وقع بين أصدقائها ، سواء أكان النصر في جانبكم أو في جانب الحسين) .

فوضح الأمر أمام عبد العزيز آل سعود : بريطانيا تتدخل وتطلب منه أن ينفذ ويثبت وده وولاه ، وإلا فإن بريطانيا لن تتعهد بمساعدته على الاحتفاظ باستقلاله أمام غزو أجنبي !! إن اتفاقية العقير قد وضعت في موضع التابع لبريطانيا ، ولهذه الدولة أن تؤيد من تشاء ، وتقدم من تختار من بين العرب ، خاصة وأن دخول السعوديين الحجاز كان عملية هجومية لادفاعية . وكانت وحدات الأسطول البريطاني راسية في جدة وينبع والعقبة ، والفرق الهندية والاسترالية قريبة في مصر وفلسطين ، ووحدات سلاح الطيران البريطاني تحلق في السماء .

فاضطر عبد العزيز آل سعود إلى الانسحاب بقواته من تربة صوب نجد ولكن العداء أصبح معلناً بينه وبين الملك حسين . وعمل عبد العزيز على تدعيم مركزه في وسط الجزيرة نفسها . واتخذ موقف المدافع عن بلاده حتى تضمن

مساعدة بريطانيا أو حيادها في العمليات . ووجه مجهوده ضد حكومة آل الرشيد في حائل (إقليم شمر) في الشمال . وساعدته الغنائم التي استولى عليها في تربة ، وتخلي الدولة العثمانية عن آل الرشيد ، على الانتصار ، وعلى ضم هذه المنطقة إلى ممتلكاته ، وأعلن نفسه سلطاناً على نجد وملحقاتها . وارتفعت أسهمه في أعين العرب وأهميته في نظر بريطانيا نفسها ، ووصل نجد إلى أوج عظمته، ولكن عبد العزيز اضطر إلى الانتظار اضطراراً ، حتى تحين الفرصة ، ويتغير موقف القوى الموجودة في الميدان الواحدة من الأخرى، وظلت أنظاره متجهة إلى الحجاز .

الفصل الثاني

الحجاز

في الوقت الذي زادت فيه قوة آل سعود في الحجاز ، نتيجة للمكاسب المادية والمعنوية التي حصل عليها ، مستندا إلى تكوين قواته وتدعيم إمكانياته، قلت فيه قوة الملك حسين في الحجاز وفي كل العالم العربي والاسلامي ، بل وانخفضت أسهمه لدى حلفائه البريطانيين . وكانت هذه هي الفرصة التي انتظرها عبد العزيز بن عبد الرحمن للقيام بدوره في تاريخ الشرق العربي ، ولكي يحرر نفسه من الارتباطات التي حددت من حرية عمله أمام الامبراطورية البريطانية

١ - انزال الحسين بن علي :

كان الحسين بن علي قد استند من الناحية السياسية إلى الوعود التي أعطتها له بريطانيا في أثناء الحرب العالمية ، ومن الناحية العسكرية إلى المعونة المادية التي زودته بها بريطانيا وبلغت ٤٠٠.٠٠٠ رطل ٢ جنيه في كل عام ، وكذلك إلى الخبرة الفنية البريطانية والفرنسية لتنظيم قواته ، واستند من الناحية المعنوية إلى شرف نسبه وسمو مركز أسرته بين العرب . فأتخذ موقف المتحدث الرسمي باسم العرب ، والممثل الفعلي لآمال القومية العربية وأمانها . ولكن هذه الدعامات التي استند إليها الحسين بن علي كانت تحمل في نفس الوقت عوامل هدمه وإخراجه من ميدان المعركة .

فوجد من الناحية السياسية أن بريطانيا قد أعطت وعودا تضاربت مع الوعود التي قطعتها على نفسها حياله . فاضطر الحسين إلى المطالبة بتنفيذ التعهدات

البريطانية ولكنه لم يجد من حكومة لندن إلا المراوغة ومحاولة التملص بل وجرت القضية العربية في الجزئيات حتى يضيع هيكلها العام . واتخذ موقف المحامي المدافع عن القضية العربية وأخذ في اتهام البريطانيين علانية بنكث العهود والوعود ، فتغير جو الود والصفاء الذي ساد بينه وبين حكومة لندن في أثناء الحرب ، ورءوا أنه لا يسهل عليهم أمر الخروج من المأزق الذي تورطوا فيه ، أو بعبارة أخرى تضاربت مصالح الحسين بن علي في بناء دولة عربية موحدة في الشرق الأدنى مع الأطماع الاستعمارية البريطانية - الفرنسية في هذه المنطقة التي تمتاز بأهميتها الاقتصادية ، وتظهر خطورتها الاستراتيجية واضحة على خريطة العالم . ولما كانت الدول الاستعمارية الغربية قد صممت على التحكم في البلاد العربية وكانت تشعر بضعف العرب المادي عن انتزاع حقوقهم فإن الاستعماريين لم يفكروا في مقابلة طلباته حتى في منتصف الطريق ، وذهبت مجهودات الكولونيل لورنس لإنشاء كتلة عربية أو اتحاد عربي برئاسة كل من الملك فيصل في العراق والأمير عبد الله في عمان والكل تحت رئاسة والدهما في الحجاز ، والمجموع يدار ويحرك بأوامر وتوجيهات من لندن ، ذهبت كلها أدراج الرياح . ونجد أن ونستون تشرشل لم يحجم عن إظهار غيرته من الكولونيل لورنس صديق الحسين ، أما لويد جورج فذهب به الأمر إلى نقد تصرفات هذا الكولونيل ومواقفه .

وفي نفس الوقت نجد أن العالم العربي كان قد بدأ يشعر بانفصال قيادته الهاشمية عن قاعدة الوطنيين المكافحين . وكانت طلبات السوريين لفيصل بإعلان الحرب على فرنسا حين شرعت في احتلال بلادهم تدل على هذا الانشقاق ، الذي تبلور في معركة ميسلون ، حين رفض يوسف العظمة أوامر فيصل بعدم التعرض للفرنسيين ، ووقع مدافعا مجاهدا ، بل شهيدا من شهداء القومية العربية في الميدان . فكان من الطبيعي أن يأخذ الوطنيون العرب على القيادة

المأشمية إقتصارها على المدافعة والمرافعة عن قضية الوحدة والحرية التي لا تحتاج إلا للدماء لكسبها . ففشل الحسين اذن في ارضاء القاعدة الوطنية في الوقت الذي أغضب فيه أصدقاءه البريطانيين .

أما من الناحية العسكرية فإن بريطانيا لم تكن مستعدة لمواصلة دفع المعونة للحسين ولأبنائه ، في الوقت الذي كان يهددهم فيه في الشام وفي العراق ، ويهدد حلفاءهم الفرنسيين في سوريا . لقد وصلت بريطانيا إلى أغراضها واستغلت العرب في طرد الأتراك وفتح الطريق أمام قواتها ، فليس هناك ما يضطرها إلى مواصلة الاتفاق مع هذه « المعارضة الوطنية » ، خاصة وأنها قد صممت على تطبيق سياستها الإستعمارية . وأوقفت بريطانيا معونتها للحسين في عام ١٩٢٠ في الوقت الذي دخلت فيه فرنسا أرض سوريا وشبت ثورة العراق ، وبعد عام من انهزام قوات الحسين بقيادة ابنه عبد الله في موقعة تربة أمام قوات ابن سعود . ألا يحمل هذا القرار البريطاني معنى إضعاف قوة الحسين العسكرية أمام السعوديين ؟ بل ألم يكن تشجيعها غير مباشر للسعوديين على مهاجمة الحجاز ؟ .

لا شك أن بريطانيا قد أرادت بذلك أن تضع حسينا في موضع لا يحسد عليه، وأن تجبره على الإلتجاء إليها بشكل يفرض عليه عدم معارضتها سياسيا في الشرق العربي . فنجد أن بريطانيا تواصل هذه السياسة وترسل الكولونيل لورنس إلى الحجاز في سنة ١٩٢١ لكي يشرح للحسين ضرورة عقد معاهدة تحالف مع بريطانيا حتى يتمكن من الاحتفاظ بعرشه أمام أي هجوم من الخارج . وكان معنى التحالف هو الوصول بهذا الشيخ إلى موقف عميل الإستعمار ، واستغلاله في الاحتفاظ بالوضع الإستعماري المفروضة على كل المنطقة . وقد يكون من الخطأ الدبلوماسي أن يرفض الحسين هـ

خاصة أمام تهديد قوات نجد له ، ولكنه يدل على إخلاص هذا الشيخ لمبادئه ولعروبتة، وإن كان قد أثبت عدم صلاحيته لقيادة المعركة العربية في مثل هذا الميدان وأمام هؤلاء الأعداء . وعلى أى حال فقد ساعد ذلك على زيادة عزلة الحسين .

ولقد واصل الحسين موقفه في الدفاع عن القضية العربية . وإن كان الوطنيون قد أخذوا عليه قصر مجهوده على الميدان السياسى بعد أن حمل السلاح ضد الأتراك . ومن الدفاع سار الحسين إلى تقديم المطالب والإصرار عليها ، و انتهى به الأمر إلى الاتهام . وفي خلال هذه المعركة تناسى الحسين تلك الدقائق الدبلوماسية التي تسمح له بالاحتفاظ بملكه ، أو أهملها ، تخيبة أمله في أصدقائه البريطانيين وأبناء عمومتهم الأوربيين . وكانت ظروفه تجبره على ذلك . فلم يصدق على معاهدة فرساي ، ولم يصبح بالتالى عضوا في عصبة الأمم ، وفقد ميزة نظام الضمان الجماعى ودفاع عصبة الأمم عنه في حالة الهجوم عليه . ولكن تصديقه على معاهدة فرساي كان هو الاعتراف باقامة نظام الانتداب في كل من سوريا وفلسطين . لقد كان الحسين إذن مكرها على عدم التصديق على المعاهدة حتى يدافع عن القضية العربية . ونفس هذا الموقف جرده من السلاح أمام السعوديين . واضطر الحسين كذلك إلى الامتناع عن حضور مؤتمر لوزان في سنة ١٩٢٣ حتى لا يعترف للدول الأوربية بالتصرف في حقوق العرب و اعلان الحجر على بلادهم بعد تقسيمها . فازدادت عزلة الحسين ظهورا في الميدان الدولى .

ولا شك أن حسينا قد شعر بضعفه في الناحيتين العسكرية والسياسية فحاول تغويضها بمغالاته في الناحية المعنوية التي استند فيها إلى شرف نسبه

وسمو مركزه بين العرب. فعمل على فرض نفسه على العرب والمسلمين فرضاً.
وكانت أول خطوة للحسين في هذا الطريق هو اعلانه نفسه ملكاً على
البلاد العربية سنة ١٩١٦ مما جعل القيادات العربية الأخرى تعمل على التخلص
من سيطرته عليها، مستندة في ذلك إلى أنه لم يحصل على البيعة. ووصل به
الأمر في ٧ مارس سنة ١٩٢٤ إلى اعلان نفسه خليفة للمسلمين بعد أن تخلص
الأنراك الكاليين، من آخر خلفاء آل عثمان. وكان الحسين بن علي قد أغضب
جزءاً هاماً من الرأي العام الاسلامي حينما أعلن الثورة على الدولة العثمانية، دولة
الخلافة الاسلامية. وظهر الغضب واضحا في البلاد العربية والاسلامية التي
كانت تجاهد من أجل حصولها على استقلالها من الدول الاستعمارية الغربية
وفي توافق مع حركة الجامعة الاسلامية المركزة في الدولة العثمانية. ظهر
هذا الغضب من « الثورة العربية » في مصر والسودان وشمال
افريقية، وظهر كذلك في الهند التي زاد عدد المسلمين فيها على ثمانين
مليوناً. فهل كان للحسين أن يصل به الأمر إلى اعلان نفسه خليفة على
المسلمين بعد قضائه على دار الخلافة الاسلامية في الحرب؟ لقد جاءت المعارضة
الرئيسية من الهند ومن مصر. وإذا كان الملك أحمد فؤاد يحاول في ذلك
الوقت الحصول على الخلافة لنفسه، فإن عدد المسلمين في الهند كان يعطيهم
كلمة مسموعة في أمر الخلافة. ولكن وجه الغرابة هي أن هذه المعارضة في
خلافة الحسين للمسلمين جاءت من بلدين: عربي واسلامي، وكلاهما خاضع
للاستعمار البريطاني. فهل كان النفوذ البريطاني هو سبب هذه المعارضة؟ أم
سوء العلاقات بينهم نتيجة لشعور الحسين بوجود النفوذ البريطاني في
كل منها؟

يشهد التاريخ وجود شقاق بين الحسين ولجنة الخلافة الاسلامية في الهند

يعود إلى سنة ١٩١٧ ، ولم يحاول الحسين إنهاء هذا الخلاف . ويشهد كذلك سوء العلاقات مع مصر وخاصة في مسألة المحمل ومسألة الحجر الصحي .
والمهم هو أن الحسين قد وصل به الأمر إلى الضعف المادى والسياسى والمغفلة في الناحية المعنوية بشكل ساعد على عزله وسهل على عبد العزيز بن سعود أمر القضاء عليه .

٢ - التوازن بين القوى العربية :

تجاهت قوات نجد وقوات الحجاز بمجرد أن أعلن الحسين نفسه خليفة على المسلمين وزاد ظهور عزله وضوحا . وكانت فرصة نادرة لكى يحقق عبد العزيز بن سعود خطته ويلعب دوره فى تاريخ العالم العربى .

وليس معنى هذا أن عبد العزيز بن عبد الرحمن قد استند إلى تأييد بريطانيا فى الهجوم على الحجاز ، أو أن بريطانيا قد رضيت عن توسيع سيد نجد وعن مده لحدود سلطنته من سواحل الخليج العربى إلى سواحل البحر الأحمر ، بل أن عبد العزيز آل سعود قد أفاد من « حىاد » بريطانيا فى شأن الأراضى المقدسة لكى يضرب ضربته .

وكانت مصلحة بريطانيا الفعلية فى هذا الوقت هى الاحتفاظ بالوضع القائم الذى شيدته ورسمت خطوطه ، مقطعة بها أوصال العالم العربى . كانت مصلحتها الفعلية هى الاحتفاظ بالتوازن بين القوى الموجودة فى المنطقة ، حتى لاتزيد إمكانيات احداها ويصل بها الأمر إلى التحكم يوما فى طرق المواصلات الإمبراطورية .

وكانت بريطانيا تخشى من توسع نجد صوب العراق وصوب شرق الأردن ، وحسبت للأمر كل حساب ، خاصة وأن احتلال أهل نجد لإقليم

شط العرب أو توغلبهم في الممر الصحراوي الشمالى الذى يصل شرقى الأردن بالعراق، ويفصل نجد عن سوريا، كان يعمل على قطع خطوط المواصلات الامبراطورية للبريطانية البرية بين حيفا والخليج العربى . وكانت المناوشات مستمرة بين الإخوان والسلطات المحلية فى كل من هاتين الجبهتين .

فسعت بريطانيا إلى عقد مؤتمر يضم ممثلى السعوديين مع ممثلى كل من العراق وشرقى الأردن والحجاز فى الكويت لتصفية المسائل المتعلقة ، أى لإقرار الوضع القائم والاحتفاظ بالتوازن بين القوى العربية المختلفة ، وفى صالح الامبراطورية البريطانية . واستندت بريطانيا فى ذلك إلى النزاع القائم بين نجد والحجاز حول السماح لأبناء وسط الجزيرة بالمشاركة فى الحج من ناحية ، وإلى إغارة بعض الإخوان على حدود العراق وشرقى الأردن من ناحية أخرى .

وكان الحسين بن على قد اشترط فى عام ١٩٢٣ ع على حكومة نجد أن تبلغه رسميا عدد الحجاج ، وأن يكون وصولهم إلى الحجاز عن طريق البحر كبقية المسلمين . والتجأ عبد العزيز بن سعود إلى المندوب السامى البريطانى فى العراق ، وطلب منه التدخل ، نظرا لما يعرفه من ازدياد النفوذ البريطانى حول ملك الحجاز . فلم يكن من الملك حسين إلا أن تصلب فى موقفه ، خاصة وأن علاقاته كانت قد ساءت مع بريطانيا ، وأتهم حكومة لندن بمحاباة ابن سعود وأعلن أن توغل الإخوان فى منطقة الحدود النجدية الحجازية يفرض عليه إقفال هذه الجهة وانتظار وصول الحجاج بالسفن عن طريق البحر الأحمر .

ووجد البريطانيون أن كلا من حكومات العراق وشرقى الأردن والحجاز

ونجد تلتجىء اليهم للتدخل ، وكل للدفاع عن مصالحه ، فقرروا جمع ممثلى هذه الدول العربية لتصفية الخلافات ، والاحتفاظ بمصالح الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس .

وانعقد المؤتمر فى الكويت فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٣ وتخلف عنه مندوبى الحجاز . واستمرت المباحثات خمسة جلسات إتفق فيها مندوبى نجد مع مندوبى العراق على بعض مواد لتسوية مشاكل الحدود بين الاقليمين ولكن العراقيين اشترطوا أن تصل حكومة نجد إلى تسوية خلافاتها وعقد اتفاق مع الحجاز حتى يصبح اتفاقهم مع السعوديين نافذا . فأصبح الاتفاق العراقي — النجدي معلقا ، إنتظارا للمباحثات السعودية الحجازية .

أما مندوبى شرق الأردن فقد طلبوا اخلاء الجوف وسكاكه ووادى السرحان من الإخوان والحقاقها بامارتهم مستندين إلى أنها « حيوية » للاحتفاظ بمواصلاتهم مع العراق . وطلبوا كذلك اخلاء المناطق التى يحتلها أبناء نجد فى اقليم الحجاز ، وهى تربة والحرمة وخيبر ، وجعل الصحراء هى الحدود مع نجد . ورفض السعوديون بطبيعة الحال هذه المطالب . فانفض المؤتمر لكى يتشاور المندوبون مع حكوماتهم ، ويعودوا للاجتماع من جديد فى يوم ٨ يناير سنة ١٩٢٤ .

ولكن الحجاز لم يشترك أيضا فى هذه الدورة الثانية ، بل أن مندوب العراق نفسه قد تخلف ، ولم يحضر إلا وفد نجد ووفد شرقى الأردن . وأصر مندوبوا شرقى الأردن على طلباتهم السابقة بشأن الممر الصحراوى مع العراق وكذلك فى أمر الحدود النجدية — الحجازية ، فغشلت المؤتمر . وفشلت سياسة بريطانيا فى الحصول على اعتراف يدعم من الأمر الواقع . وانتهز

عبد العزيز هذه الفرصة ، التي اصطحبتها زيادة عزلة الملك حسين وتوترت العلاقات بينه وبين البريطانيين ، لكي يهاجم الحجاز ويضمه لنجد .

٣ - هجوم الاخوان وتنازل الحسين

كان فشل مؤتمر الكويت يخدم أغراض عبد العزيز آل سعود بطريقة غير مباشرة ، إذ أنه يطلق يده في العمل على إرضاء مصالحه ، خاصة وأن قواته كانت مستعدة في الوقت الذي ظهر فيه ضعف الحكومة الحجازية .

ولكن عبد العزيز بن عبد الرحمن وجد أنه من الخطورة بمكان أن يقوم بحركة لها لون سياسي ظاهر ، أو يغلب عليها اللون العسكري . فعمد إلى إخفاء أهدافه وراء لون آخر ، هو الدين وفرائضه ، حتى يحرم بريطانيا من إمكانية التدخل في نزاع إسلامي ، وحول الأراضي المقدسة .

فما أن علم سلطان نجد بفشل مؤتمر الكويت حتى جمع مؤتمراً آخر في الرياض للتشاور في مسألة الحج ، وتألفت في هذا المؤتمر كل العداوة القديمة بين الأشراف وبين السعوديين منذ اعلان المذهب الوهابي . واتهم أهل نجد الملك حسين بأنه تركي ، ثم اتهموه بأنه عميل البريطانيين وانتهوا إلى أن ليس له حق في منع المسلمين من الحج إلى بيت الله الحرام . فهو يمنع اذن قيام المسلمين بفرائض دينهم ، وعليهم كسلمين مخلصين أن يسيروا إلى مكة ، وإذا منعهم مانع فهناك السيوف لاعلاء كلمة الله والاسلام .

كان هذا القرار يعني الزحف العام على الحجاز ، ويقوم به أهل نجد . وعمد عبد العزيز آل سعود الى تأييدهم بقوة عسكرية بلغت ستة عشر لواء ، اجتمعت في تربه بقيادة خالد بن لؤي . وكانت هذه القوة كبيرة نسبياً أمام

قوات الملك حسين بأكملها ، وزاد من أهميتها هذا الزحف العام الذي يقوم به أهل نجد للدخول إلى مكة بمجد السيف إن تطلب الأمر . وساروا جميعاً تحت لواء الاسلام وزادت حماسهم لاعلان الاراضى المقدسة ملكاً مشاعاً لكل المسلمين .

ولم تعلم حكومة الحجاز بهذه التعبئة حتى توغل الاخوان صوب الطائف . فحاولت أن توقف هذا الزحف ، وتحفظ بسلطة الدولة على المدن الهامة . فأصدر الملك حسين أوامره إلى حامية الطائف بالوقوف والدفاع . وخرج بعض رجال حامية هذه المدينة الى المرتفعات القريبة ونصبوا عليها المدافع لانتظار مجيء أهل نجد . بضع مئات من قوات الحجاز يساعدها بضع مئات من المتطوعى القبائل ، ولكن القوات الزاحفة كانت حشوداً ، وكنلاً متراصة . وفي نفس الوقت أصدر الحسين أوامره لقواته في مكة بالتقدم في طريقين ، شمالي وجنوبي ، صوب الطائف ، للعمل على انجاد هذه المدينة ، وتطويق قوات نجد وقطع خط الرجعة عليهم . ولكن القوات الزاحفة من مكة تأخرت في سيرها ، كما أن مقدمة جيش الحجاز ، وكانت من متطوعى القبائل ، لم تعتمد كثيراً أمام هجوم الاخوان ، بل قام بعضهم بالانضمام الى قوات نجد نفسها في أثناء المعركة . فاضطرت قوات الطائف الى التقهقر قليلاً قليلاً أمام الاخوان . واحتل أبناء نجد كل موقع ينسحب منه جنود الحسين حتى بلغوا مدينة الطائف نفسها . ولقد استبسل جنود الحجاز في الدفاع عن الطائف ، ولكن شجاعتهم لم تغنهم شيئاً أمام الحشود الزاحفة ، فاضطروا الى اخلاء المدينة التي تدفقت اليها جموع الاخوان .

ووقعت في الطائف مذبحة عامة راح ضحيتها الآلاف من السكان ، ونهبت

الممتلكات والديار ، واستخدمت فيها القسوة وساد عليها روح الانتقام .
وأمر قائد الاخوان باخراج سكان المدينة رجالا ونساء وأطفالا إلى خارج
المدينة . « وكان النساء سافرات لأول مرة في هذه البلاد ، وكن مع الرجال ،
ومكثوا أياما ثلاثة » .^(١) ويقال أن ابن سعود نفسه قد بكى حين بلغته
الأخبار وعرف النّى الذى دفعه لاحتلال الطائف ، وأمر قواده بالكف عن
القتال .

واقترحوا الأمير على بن الحسين أن يقف في الهدي لمنع قوات الاخوان
الزاحفة من الوصول إلى مكة . ولكن قواته لم تزد على مائتى جندي ، وستائة
من رجال القبائل . فلم يتمكن من المقاومة طويلا أمام قوات الاخوان
وأسراهم الزاحفة ، وبأعداد كبيرة . فاضطر إلى الانسحاب الى مكة ، ثم
ذهب منها إلى جدة ، وبقي والده في مكة للدفاع عنها . وفي هذا الوقت ظهرت
فكرة تنازل الملك حسين عن الملك لابنه على ، وعمل من أجلها بعض أهالى
الحجاز أنفسهم .

خدمت هذه الفكرة خطة عبد العزيز آل سعود دون أن تقدم مكسبا
واضحا للعرب عامة وإقليم الحجاز بشكل خاص . وأظهرها أبناء الطبقة
الوسطى الذين يعملون في التجارة ويهمهم سيادة السلم . وأعلنتها هذه الحفنة
من المتعلمين في الحجاز والذين حاولوا الوصول إلى حكم دستورى ، أى إلى
زيادة إشراكهم في تصريف أمور اقليمهم .

اعتقد أعضاء « الحزب الوطنى الحجازى » أن العداوة لاتستحكم إلا بين
الحسين وبين عبد العزيز آل سعود ، فتدخلوا لفرض خطتهم على الموقف

(١) أحمد عبد العقور عطار : صقر الجزيرة . الجزء الثانى . ص ٢٩٠ .

دون أن يستندوا إلى قوة معنوية أو مادية يمكنها أن تؤثر على سير المعركة. وتلخصت خطتهم في تنازل الملك حسين عن التاج لابنه علي ، وفي أن يعلنوا علياً بن الحسين ملكاً دستورياً ، أي أن يكسبوا من الأزمة النجدية - الحجازية إشراكهم في إدارة شئون الحجاز . وكتبوا رسماً إلى الملك في ٣ أكتوبر سنة ١٩٢٤ طالبين منه التنازل عن ملك الحجاز لابنه « علي أن يكون مقيداً بدستور ومجلسين نيابيين » . فوضح الانقسام في المعسكر الحجازي ، وعلى طريقة الحكم ، والقوات النجدية تواصل تقدمها صوب مكة .

ولقد رفض الملك حسين أن يتنازل عن الملك لابنه علي بالذات ، ولكن معارضته انتهت كذلك بالتنازل ، تاركاً لأهل الحجاز أمر اختيار ملك عليهم. وكان هناك كثير من الأشراف في الحجاز ، وكان عباس حلمي ، خديو مصر السابق ، يصلح لمثل هذا « المركز » . ولكن رجال الحزب الوطني الحجازي بايعوا علياً ملكاً على الحجاز ، واشترطوا عليه أن يكون للبلاد مجلس نيابي وطني وقانون أساسي تضعه جمعية تأسيسية « كما هو جار في الأمم المتحدة » . ولما كانت الظروف لا تسمح بإجراء انتخابات في ذلك الوقت ، فقد ألفت رجال هذا الحزب هيئة مؤقتة لمراقبة أعمال الحكومة .

وأدى تنازل الحسين وتولي ابنه إلى اضطراب عام في مكة وغيرها من مدن الحجاز ، خاصة وأن الابن كان يفتقر إلى الهيبة التي يتمتع بها والده ، كما كان ينتقل إلى الخبرة وإلى الاتصالات الخارجية . وكان علي يتصف بالزهد والورع وتنقصه صفات الحاكم ، وخاصة في حالة الحرب .

وأثر تنازل الحسين على معنوية الجند ، وأكد من انتصار عبد العزيز آل سعود ، دون أن يتحرك من الرياض ، وجاء اعترافاً صريحاً من أهل

الحجاز بضرورة تغيير الحال في إقليمهم . وظهر ابن سعود كمارد أمام هذا الملك الصغير المتواضع المسالم .

واعتقد أبناء الحزب الوطني الحجازي أن إبعاد الحسين سيقضى على النزاع مع أهل نجد ، ورغبوا في إنشاء حكومة حديثة في إقليمهم ، ولكنهم فشلوا في فهم عمق الهوة التي تفضل بين عقيدة الإخوان وبين حكومة الأشراف . كما أن خططهم لإنشاء حكومة حديثة في الحجاز كانت تتعارض كذلك ، وفي شكلها الخارجي على الأقل ، مع الطريقة البدائية التي يسير عليها أهل نجد ، رغم اشتغالها على نوع من أنواع الديمقراطية . وتناسوا نمو قوة « الأسرة » السعودية واستنادها إلى القرآن وحده دستورا للمسلمين ، وإلى حد السيف قوة تنفيذية لتطبيق شريعة الله .

وأخيراً فقد فقد الحجاز بهذا التغيير كل المزايا الدولية التي حصل عليها من بقاء الحسين ملكاً عليه ، خاصة وأن الدول الأوروبية كانت قد اعترفت به ملكاً على الحجاز . ولم تعقد أي معاهدات دولية للاعتراف بحدود مملكة الحجاز . فكانت الملكية مرتبطة بشخصيته في هذه المنطقة ، واحتاج ابنه على إلى اعتراف جديد به . وكان في استطاعة الحسين أن يستنجد بالبريطانيين إن تطلب الأمر ، ولكن ابنه فقد هذا السلاح .

وتوجه الحسين إلى جده ثم أبحر منها إلى العقبة بعد أن رفضت مصر إقامته فيها ، ابتعاداً عن المشاكل . ووقع على كاهل على أمر الاشتباك في معركة خاسرة .

ويعتبر قضاء عبد العزيز آل سعود على الملك الحسين قضاءً على تلك القيادة العربية التي استندت إلى دول الغرب الاستعمارية وسمحت لهم بطريق

غير مباشر بالدخول إلى البلاد العربية . ولكن عبد العزيز بن عبد الرحمن كان هو الآخر مرتبطا باتفاقية العقير مع بريطانيا منذ سنة ١٩١٥ ، يصادق من يصادقها ويعادي من يعاديها . وكان قد تراجع عن الصدام مع بريطانيا في الوقت الذي لم يتراجع فيه عن الصدام مع الحسين . وأنهى بذلك هذه المعارضة التي قام بها الحسين ضد بريطانيا ، وعزل هذا « العامل » وأدار هذه الصفحة التي أخذ العرب فيها يطالبون بريطانيا بتحقيق وعودها التي قطعتها على نفسها لهم في أثناء الحرب العالمية الأولى ، إذ لم تكن بريطانيا قد قطعت من العهود للعرب الا للحسين بن علي .

وقام عبد العزيز آل سعود بذلك . مقدما عامل تطبيق الحد في الأراضي المقدسة ، ومخفيا العوامل السياسية والاستراتيجية ، بل والوطنية . وسنري أن عبد العزيز بن عبد الرحمن لن يتقدم بمطالب جديدة الى بريطانيا ، بل سيفرض النظام الذي بناه لإقامة دولته عليها فرضا ، وذلك داخل الحدود التي رسمها لهذه الدولة . ولكنه سيحترم الوضع القائم في الشمال والجنوب ، أي الوضع الذي أقامته الدول الاستعمارية ، لتقسيم العالم العربي .

٤ - وصول عبد العزيز آل سعود

عاد الملك علي من جده الى مكة لكي يدافع عنها . ولكنه لم يمكث بها الا أسبوعا ثم اضطر في ١٤ أكتوبر إلى الانسحاب منها عائدا إلى جدة مرة جديدة بعد أن وجد قوته تنحصر في خمسمائة جندي . ودخل الاخوان مكة دون حرب ، بل محرمين مطوفين ببيت الله ، بعد أن أصدر عبد العزيز أمره بمعاينة كل من يقاتل في هذه المدينة . ورغم ذلك فقد وقعت بعض عمليات السلب والنهب . ثم ضم عبد العزيز بن عبد الرحمن على الحضور الى

أم القرى . وقبل قيام سلطان نجد من الرياض أرسل بقوات الى كل من حدود العراق وحدود شرق الأردن ليمنع أخوي على ، في الشرق والشمال ، من الهجوم على نجد أو من ارسال المعونة لأخيها في جدة . وكان دخول عبد العزيز بن عبد الرحمن الى مكة مع حشود الاخوان يوما مشهوداً ، ارتفعت فيه صرخاتهم تتجاوبها الجبال : لبيك اللهم لبيك .

وكان الملك على قد أرسل بخطابات الى ملوك العرب ورؤساء المسلمين طالبا منهم التدخل للتوسط في الصلح مع سلطان نجد ، وحاول الحاج أمين الحسيني أن يتوسط ، ولكن عبد العزيز عدد له مساويء حكم الأشراف في الحجاز وأكد عزيمته على اقامة ادارة فيه « تكفل حقوق جميع المسلمين بوجه المساواة » . أما شوكت على ، رئيس جمعية الخلافة في الهند ، فانه أجاب حكومة جدة بأنه لا يعترف لهم بحق تولية ملك على الحجاز بمفردهم ، وأن الحكم في ذلك يجب أن يكون لكافة المسلمين في المؤتمر العام ، وأن مسلمي الهند لا يقبلون بأي وجه من وجوه تولية الحسين أو أحد أولاده ولا يرضون الا بتأسيس حكومة ديموقراطية يشترك فيها جميع المسلمين .

فوضح انزال الملك على وضعفه وعدم تأييد العالم الاسلامي له في الوقت الذي دخل فيه عبد العزيز مكة . وسادت نظرية لا تعترف لعربي بفضل على عجمي الا بالتقوى ، وتنادى باشتراك جميع المسلمين في تقرير وضع جديد للأراضي المقدسة ، أي ملكية المسلمين المشتركة لبلاد الحجاز . ولم يبق لفصل الأمر الا القوة المادية ، وكانت في أيدي أبناء نجد دون منازع . وحينما طلب الملك على من عبد العزيز حقن الدماء والوصول الى سلم ، اشترط عليه سلطان نجد أن يقوم باخلاء الحجاز وينتظر حكم العالم الاسلامي في الأمر .

واجتمع عيد العزيز آل سعود بأهل مكة ، ورفض أن يسمح لهم بتقييل يده وحينما أظهروا دهشتهم شرح لهم أن من عادة العرب المصافحة ، وكذلك فعل الصحابة مع الرسول (صلعم) ، ومع بعضهم بعضا ، وأن عادة تقييل الأيادي قد نزلت الى البلاد العربية مع الأجانب .

ثم وافق على اجتماع كل من علماء مكة مع علماء نجد لكي يتشاوروا في أمور الدين والشرع ، ولكي يصلوا الى اتفاق حول المسائل المذهبية ، وبالتالي الى اقرار قانون أساسى ، أو دستور ، يرضاه الجميع . وفي هذا الاجتماع شرح الشيخ حافظ وهبه أهمية مكة والحجاز من الناحية الاسلامية ، ثم رسم الخطوط العامة لسياسة السعوديين في هذه المنطقة ، فربط بين انتشار البدع في البلاد الاسلامية وبين اتجاه « الترقى المدنى » وذكر أن السعوديين يهدفون الى « الارتقاء الدينى » وذلك برجوع المسلمين الى السنن التى سنّها الله لهم فى كتابه وعلى لسان نبيه . ثم شرح أن السعوديين يهدفون الى الرجوع بالاسلام الى عهد الشورى ، وأوضح أن عبد العزيز بن عبد الرحمن لا يريد أن يكون هذا البيت ملكا لاحد بل مشاعا بين المسلمين ، ولكل شعب من الشعوب الاسلامية ولكل فرد من أفراد العالم الاسلامى حق فيه ، وختم بأن التجربة قد أثبتت فشل حكم آل الحسين للحجاز ، وأن الواجب يحتم على كل العرب أن يعملوا على التخلص منهم .

أما عبد العزيز آل سعود فقد شرح أن الرسول (صلعم) قد قاتل من كان بمكة حينما عصيت قريش أوامر الله وأعرضت عن الحق ، وأنه قد شرف بلال الحبشى وسلمان الفارسى بعد اسلامهما ، والأول عبد حبشى والآخر رجل فارسى ، وأن الله قد أذل أبو لهب بالكفر وهو عم الرسول

(صلعم) فالشرف ليس بالحسب ولا بالنسب وإنما هو بالعمل الصالح. فأكد بذلك الديموقراطية الإسلامية دون نظر إلى نسب أو إلى عنصر، بل على أساس المساواة وتقديم العمل الصالح .

ولكن... (من كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) . إذن فالعمل الصالح وحده لا يكفي ، بل من الواجب أن يقترن بالاخلاص في العبادة . وما دام الإسلام هو أساس حياة المسلمين ودستورهم فمن الضروري تطبيق شرع الله .

ولم يكن في استطاعة أي من علماء مكة أن يجادل في هذه المبادئ . فأصبح الشرع هو دستور الحجاز يستمدونه من الكتاب والسنة .

ونشر عبد العزيز بن سعود بياناً تعهد فيه بجعل الأمر في الحجاز شورى بين المسلمين ، وبقصر مصادر التشريع والأحكام على كتاب الله وسنة رسوله ، أو ما أقره علماء الإسلام عن طريق القياس أو ما أجمعوا عليه . وأبرق إلى كافة المسلمين في سائر الدول طالباً منهم أن يرسلوا وفودهم لعقد مؤتمر إسلامي عام يقرر شكل الحكومة الذي يروونه صالحاً ومطابقاً لأحكام الله في الأراضي المقدسة .

ولكن الخلاف لم يكن في وضع أسس الدستور أو الرجوع إليها ، بل كان في استخراج القوانين وفي طريقة تطبيقها ، أي في علاقة الفرد بالمجموع في تفاصيلها ، وسلطة المجتمع ، وتمثله الحكومة ، في تطبيق هذه القوانين على الأفراد ، وخاصة في مسائل الدين . فنجد أن الإخوان لا يدخلون ولا يسمحون للمسلم بالتدخين، ويعارضون في استخدام مظاهر الحضارة الحديثة من برق وهاتف في حياتهم اليومية . فهل يتمشى هذا

الموقف مع الدستور الذي اتفق عليه ، أى مع الشريعة الاسلامية ؟

وقعت بعض المشكلات بين الاخوان وبين أهالى مكة نتيجة لضربهم من يقوم بالتدخين ، ودفعهم الأهالى دفعاً الى إغلاق الحوانيت حينما يؤذن المؤذن للصلاة ، واجبارهم اياهم على القيام بالفرائض وفي أوقاتها . وشعرت « جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » أن من واجبها استخدام كل الوسائل فى اجبار أهل الحجاز على تطبيق ما ارتضته لنجد مذهبها . ولكن هذه المشكلات كانت تهدد عبد العزيز آل سعود بقيام حركة معارضة له فى بقية البلاد الاسلامية ، خاصة وأن مسألة الخلافة كانت لا تزال قائمة ، بل كانت سلطة الملك على لا تزال موجودة فى جدة . فاضطر عبد العزيز بن عبد الرحمن إلى التخلي عن شئ من « توصيات » ابن عبد الوهاب ، بل وأيضاً من اتجاهات ابن قيم الجوزية ، ووقف عند المذهب الحنبلى ، أي أنه اعترف بوجود المذاهب الأخرى وبصلاحية تطبيقها .

واضطر عبدالعزيز إلى أن يوبخ رجاله وأمرهم ألا يشتموا أو يضربوا أحداً إذ أن المعروف لا يدعى إليه بالمنكر .

واكن سيد الجزيرة لم يقبل التساهل فى أمر القيام بالفرائض الاسلامية من صلاة وصوم وزكاة ، وكلف البلدية بمراقبة تنفيذ ذلك . ثم عين الشيخ حافظ وهبه محافظاً على مكة ، نظراً لما عرف عنه من أنه رجل حر الفكر ، دمث الطبع ، فيمكنه أن يجذب القلوب بدلاً من أن يثقلها .

٥ - نهاية حكم الهاشميين :

حاول بعض البريطانيين والعرب والمسلمين من أصدقاء عبد العزيز آل سعود التدخل فى الحرب القائمة بينه وبين الملك علي فى جدة ، وذلك للتوسط

من أجل السلم ، أى بمعنى آخر الوصول إلى حل وسط ، والتالى إلى منع سلطان نجد من الوصول إلى حل حاسم اشبه الجزيرة العربية . ونذكر على التوالى كل من فيلبى المستشرق ، وأمين الريحانى ، وهو من عرب لبنان غير المسلمين ، والسيد طالب النقيب من زعماء العرب والمسلمين فى العراق . وكان فيلبى أقلهم أهلية للتحدث فى موضوع يهم العروبة ويهم الاسلام . أما أمين الريحانى فلم يكن له حق التدخل فى الشؤون الاسلامية ، حتى وإن كان يمثل آراء بعض العرب المسلمين المتحررين فى لبنان . وأما السيد طالب النقيب فكان أكثرهم أهلية .

فاضطرب عبد العزيز آل سعود إلى ارجاع المسألة إلى أصولها ، والوقوف موقفا راديكاليا ، وشرح أن المسألة الحجازية هى اسلامية قبل أن تكون عربية ، وأنها تهم المسلمين جميعا ، مما يحرم الأفراد والهيئات من التدخل بمفردهم ، فأصبح واضحا أن سلطان نجد لن يستمع إلا للحل الذى يرتضيه المسلمون أجمعين ، وأبعدت بذلك كل محاولة تسعى إلى وقف المعركة والاحتفاظ بوضع مقلقل غير ثابت ، يضر ولا يحمل أى فائدة .

بقى الملك على فى جدة وحاول أن يبرر موقفه أمام أهل مكة فى الانسحاب من مدينتهم بضرورة التكتيك الحربى . وطلب منهم أن يساعده باعلان الثورة حتى يتمكن من القضاء على الاحتلال السعودى . وكأنه يحاول إثارة عامل الولاء لدولته سلاحا فى وجه « النظام الاسلامى » الذى دخل مكة . وظهرت ضحالة مجهوداته فى هذا الميدان .

وجمع عبد العزيز آل سعود مجلس مشورته وقرر الزحف على جدة . ولما كان هذا الميناء يشتمل على قنصليات الدول الأجنبية وعلى عدد من

رعايها ، فان الاخوان قد قرروا محاصرته حتى يستسلم . وبدأت القوات تزحف صوب جدة ، وأخذت في محاصرتها وتضييق الخناق عليها ، وسرعان ما بدأت المناوشات .

واعتمد الملك على جيش لا يزيد عدده على الألفين ، ألف من الجنود وألف من متطوعي الأعراب . وكان شخصيا لا يعرف كثيرا من شئون الحرب ، بينما كان ضباطه من بقايا حكومة والده ، ويعتقدون في تكوينهم العسكري أكثر مما يستحقون . وكانت مدفعيته لا تزيد على عشرين قطعة ، وثمانية رشاشات . وحصل على بعض « حاملات البرن » فساها بالدبابات ، رغم عدم صلاحيتها . وكانت لديه خمس طائرات من بقايا الحرب العالمية ، يهتم بها أحد المهندسين الانجليز ، ويقودها بعض الطيارين من الروس البيض الذين تركوا بلادهم بعد ثورة أكتوبر . وكانت تنقصه الذخائر والأموال ، ولم يعتمد إلا على قوات يمكن تسميتها بالمرتقة .

أما قوات بن سعود المحاصرة لجدة فقد زاد عددها من خمسة آلاف حتى بلغ أربعين ألفا ، وكانت أسلحتهم قد زادت مع الغنائم التي حصلوا عليها في المعارك المتعاقبة . وكانوا يحاربون من أجل وحدة الاسلام ، وتطبيق الشرع الاسلامي في الأراضي المقدسة ، ويعملون جيدا أنهم يحاربون ابن من عينه الأتراك على الحجاز ، ومن ضحى بمصالح العرب والاسلام ، ومن يمثل حكم الطبقات الاجتماعية ، ولا يعترف بالديموقراطية . فظهر أن معركة على هي معركة خاسرة من أولها ، ولا تحتاج إلا لعامل الوقت لإقرار نهايتها .

ولقد حاولت حكومة جدة أن تستخدم الطائرات في ضرب مواقع

السعوديين المحاصرين للمدينة ، ولكنها فقد طائرتين في هذه العمليات ، في الوقت الذي تلفت فيه طائرتان أخرتان . فحاولت استخدام المصفحات وعززتها بسيارتى نقل ، درعتها بطريقة بدائية ، ووضعت فيها المدافع الرشاشة ولكنها غاصت في الرمال ، واستولى السعوديون عليها . فخسرت حكومة جدة في ساعات ما صرفت الأشهر في اعدادة ورسمه ، وفقدت في هجماتها ما أمدتها به حكومة شرق الأردن من بعض الأسلحة والذخائر . فانخفضت الروح المعنوية بين رجال الملك على واقتربت النهاية .

وانتهز قناصل روسيا وإيران وهولندا ، وكلهم من المسلمين ، فرصة سماح عبد العزيز لهم بأداء فريضة الحج لكي يطلبوا منه ، بصفته الشخصية وكسالمين ، استقبال وزير خارجية الملك على ، تمهيدا لتصفية الموقف . واشترط ابن سعود أن يكون هذا الوزير مستعدا للموافقة على ما يمليه عليه من شروط . ثم طلب صراحة انتهاء حكم الهاشميين من الحجاز ، وخروج على من جدة وإخراج والده ، الحسين من العقبة .

وحاول كل من امام اليمن وشاه إيران وملك مصر الوسط في المسألة الحجازية ، خاصة وأن وكالات الأنباء كانت قد نشرت الأخبار عن محاصرة السعوديين للمدينة المنورة ، وبدأ رأى العام الاسلامى ينشغل بضرورة حماية قبر الرسول (صلعم) من التخريب . وكذلك حاولت بريطانيا التوسط للدفاع عن مصالحها في منطقة الهلال الخصيب والطريق البري الموصل للهند أمام التوسع السعودى . فما كان من عبد العزيز بن عبد الرحمن إلا أن فصل السياسة الدواية عن السياسة الإقليمية ، ورضى المفاوضة مع البريطانيين

لتحديد مشكلات الحدود مع كل من العراق ومن شرقي الأردن ، وأخرج بذلك بريطانيا من الميدان . ثم نجح في اقناع الوفد المصري بترك الحجازيين أنفسهم يقررون نوع الحكم الذي يرضيهم ، واعترف في نفس الوقت بحقوق العالم الإسلامي في الأراضي المقدسة ، ووكل إلى الملك فؤاد أمر دعوة مندوبي المسلمين في مصر لينظروا في هذه الأمور ، وتعهد بتنفيذ ما يقررون . كما أنه رد على إمام اليمن معلنا قرب دعوة مصر لمؤتمر إسلامي ، ورجا منه أن يشترك فيه . وترك الوفد الإيراني يزور المدينة ويتأكد من عدم تخريب الاخوان لها ، وطلب منه أن يبلغ حكومته فكرة انعقاد المؤتمر الإسلامي لكي تشارك فيه . وهكذا نجح عبد العزيز آل سعود في ابطال مفعول هذه المحاولات ووجهها صوب مشكلة الخلافة ، محتفظا لأهل الحجاز ولنفسه ، بسلطة تقرير المصير الدولي للأقليم .

وتدخلت بريطانيا لسحب الملك حسين من العقبة في شهر يونيو سنة ١٩٢٥ . وانتهت مقاومة المدينة المنورة ودخلتها قوات السعوديين في ٥ ديسمبر من نفس السنة . فاضطر الملك علي إلى قبول الانسحاب من جدة ، وحملته السفينة البريطانية « كورن فلاور » إلى عدن ثم إلى العراق . ودخل عبد العزيز آل سعود المدينة يوم ٢٤ ديسمبر وانتهى بذلك حكم الهاشميين في كل الحجاز .

وشعر كل من السعوديين والحجازيين بضرورة تدعيم الوضع الإقليمي لمنطقتهم قبل اجتماع المؤتمر الإسلامي ، فقرروا في اجتماع عام عقده يوم ٨ يناير سنة ١٩٢٦ مبايعة عبد العزيز بن سعود ملكا على الحجاز ، وأعلنوا

بذلك توحيدهم مع بقية وسط الجزيرة . وأصبح لقب عبد العزيز الجديد هو « ملك الحجاز وسلطان نجد » .

وهكذا نجح عبد العزيز في ضم الحجاز لنجد والقضاء نهائيا على حكم الهاشميين ونظامهم . وقضى بذلك على أعوان الاستعمار . وأصبح عليه أن يدعم بناء دولته في الداخل وفي الخارج .

الفصل الثالث

المملكة العربية السعودية

كانت عملية طرد الهاشميين من إقليم الحجاز وضمه الى اقليم نجد احدى الخطوات التي سار عليها عبد العزيز بن سعود لبناء دولة قوية في منطقة الشرق العربي ، لها خصائصها ودعائها . وأصبح من الواجب على ملك الحجاز وسلطان نجد أن يدعم هذا البناء وخاصة أمام الأخطار والمشكلات التي طالبت بضرورة إيجاد حل لها . وكانت هذه المشكلات متعددة ، فمنها الإسلامي المتصل بأمر الخلافة والحج ، ومنها السياسي الذي يتصل بالحدود مع البلاد العربية المجاورة وفيها نفوذ بريطاني واضح ، ومنها الداخلي الخاص بعملية البناء والتوحيد بين أقاليمه المختلفة ، ومنها كذلك الاقتصادي . ولقد نجح عبد العزيز في حل كل منها وان كان قد اضطر الى تغيير موقفه ، ونتيجة لاغوى المواجهة له في الميدان ، وخاصة في مسألة الوحدة العربية والمذهب الوهابي .

١ - الخلافة والعالم الإسلامي :-

كانت مشكلة الخلافة قد اجترت منذ أن تخلص الأتراك الكماليون من آخر خلفاء آل عثمان ، وقام الملك حسين بإعلان نفسه خليفة على المسلمين دون أن يحصل على البيعة اللازمة لذلك . وكانت قيمة أسهمه قد انخفضت في أعين البريطانيين وقامت حركة مقاومة ضده سار فيها عرب نجد بطريقة إيجابية عملية ، وانتهجتها لجنة الخلافة الإسلامية في الهند ، والملك أحمد فؤاد في مصر بطريقة معنوية أدبية .

وكانت الطريقة التي انتهجها عبد العزيز بن سعود تتلخص في ترك أمر اتخاذ قرار في مسألة الخلافة للمسلمين أجمعين. ولكنه أخذ على نفسه دور القضاء على الهاشميين في الحجاز ، وهدف الى الاحتفاظ لنفسه بالشئون « المدنية » لهذا الاقليم .

ولكن توسع سلطان نجد إقليماً صوب البحر الأحمر كان يحمل عامل تغيير التوازن الدولي في المنطقة ، بشكل يقلق بالبريطانيا ، ويزيد من قيمة أسهم عبد العزيز أمام أسهم من يسعون الى الاحتفاظ لأنفسهم بكلمة حاسمة في أمر الخلافة . وكان تطرف أهل نجد في مذهبهم الحنبلي يثير مخاوف المسلمين السنيين المعتدلين في وادي النيل، والهلل الخصب وفي الهند ، وكلها مناطق تخضع للنفوذ البريطاني . وكانت العمليات الحربية بين السعوديين والاشراف في الحجاز تهدد بتخريب الأماكن المقدسة ، فحاولت البلاد الإسلامية أن تحدد من سلطة السعوديين وذلك بفرض حل بعينه في مسألة الخلافة، وحمل هذا في نفس الوقت معنى محاولة الاحتفاظ بالتوازن بين القوى الإسلامية . واتخذوا من العمليات الحربية في الحجاز عامة ومن محاصرة قوات السعوديين للمدينة المنورة خاصة ، وسيلة للتدخل ، باسم الوساطة بين عبد العزيز والملك علي ، وتهدف الى الحصول على ضمانات في مسألة الأراضي المقدسة ، وفي مسألة الخلافة ، وبالتالي في مسألة توازن القوى الإسلامية .

كانت حكومة الملك علي في جدة قد نشرت في سنة ١٩٢٥ بلاغات جاء فيها أن المدينة المنورة قد أمست في خطر محقق من الوهابيين المتوحشين الذين يستهدفون بمدافعهم قبر الرسول « صلعم » . واذاعت هذا الخبر وكالة رويتر

ونقلتها معظم الصحف العالمية . واختصت جريدة المقطم ^(١) نفسها بالسبق في نشر برقية استغاثة من قائد حامية المدينة ، يستغيث فيها بالعالم الإسلامي ، زاعمة أن بلد الرسول مستهدف للخطر ، وأن الوهابين أخذوا يطلقون عليه وعلى القبة الخضراء رصاصهم بلا انقطاع ، ولم يبالوا حرمة المدينة ولا قداستها ، فقلق المسلمون من هذه الأخبار التي وجدت من يروجها في مصر والشام والعراق والهند وأفريقية وكل بلاد الإسلام ، وقامت ضجة ، وكانت فرصة للتدخل . فتدخل الملك أحمد فؤاد برقيةً لدى ابن السعود لكي يعمل على صيانة الحرم النبوي الشريف وآثار المدينة . فطمأنه عبد العزيز في أول سبتمبر بأن العرب هم أبناء الحرمين الشريفين ولم يسعوا إلى جعل الحجاز ساحة الحرب ، وألقى بمسئولييه هذه الحرب على كاهل الإشراف . فأردف فؤاد هذه البرقيات بارسال وفد من الشيخ محمد مصطفى المراغي رئيس المحكمة العليا . وعبد الوهاب طلعت ، سكرتيره الخاص ، لكي يصل إلى تسوية بين الفريقين المتنازعين في الحجاز . ونجح عبد العزيز في اقناع هذا الوفد بضرورة ترك الحجازيين أنقسم يقررون نوع الحكم الذي يرضيهم ، أي أنه رفض الوساطة المصرية في أمر الحجاز . ولكنه اعترف في نفس الوقت بحقوق العالم الإسلامي كله في الأراضي المقدسة وكان يعلم أن مسألة الخلافة مسألة شائكة ، وأن الخلافات عليها كثيرة والاطماع فيها متعددة . فوكل إلى الملك فؤاد أمر دغوة مندوبي المسلمين في مؤتمر

(١) صاحبها فارس نمر باشا — كانت له علاقات واضحة مع دار المعتمد البريطاني في مصر وكانت بريطانيا تؤيده بالأموال ، وقام بدور هام في الثورة العربية .

إسلامي عالم يعقد في مصر ، وتعهد من جانبه بتنفيذ ما يقررون . واستند ابن سعود الى هذه المسألة لكي يتفرغ هو لتسوية الوضع السياسي والمدني للحجاز ، ولكي يترك القوات الإسلامية الأخرى تتفاعل مع بعضها ، وتتنافس وتتجادل وتتصارع من أجل لقب الخلافة . وكان مارسم ابن سعود ، وأثبت المؤتمر الإسلامي الذي عقد في القاهرة فشله التام ، نتيجة لعدم اشتراك كثير من المسلمين فيه ، ونتيجة لصعوبة التوفيق بين الاتجاهات بل والاطماع المتعارضة ، خاصة وأن أي خليفة جديد لن يتمكن من إدارة شئون المسلمين ، نظراً لافتقاره الى القوة المادية اللازمة ، بل وافتقاره الى القوة المعنوية كذلك ، ما دامت الأراضي المقدسة في أيدي السعوديين .

فوجد عبد العزيز بن عبد الرحمن أن الفرصة قد أصبحت سانحة لفرض الحل الذي ارتضاه على الجميع ، وان كان ذلك الفرض قد غلف في شكل تشاور ديموقراطي فدعا الى عقد المؤتمر الإسلامي الثاني في مكة في يوم ٧ يونيو سنة ١٩٠٦ وشرح لأعضاء المؤتمر أن غزوة للحجاز أمر نهائي ، ولا يمكن النقاش فيه ، وأعلن في نفس الوقت أن الأراضي المقدسة هي وديعة العالم الإسلامي أجمع ، وطلب إبداء الآراء وإيجاد أحسن الطرق للعناية بالحجاج وبالمؤمنين . وكان وفد جمعية الخلافة الإسلامية الهندي من بين أقوى الوفود في المؤتمر ، فترأس حركة مهاجمة الحسين بن علي ، ووصفه بالخيانة وأثنى على إخراجهم من الحجاز ، فخدم السعوديين بهذا الموقف ولو بطريق غير مباشر . ولكن ذلك لم يمنع من ظهور الانقسام واضحاً بين وفود المؤتمر في إتجاهين متباينين ، اتجهاء الوهابيين الذي يسعى الى فرض الشريعة الإسلامية قانوناً ، والى إجبار المسلمين على القيام بفرائضهم ، وإتجاه المسلمين المعتدلين في الهند ومصر وهم

الذين يطبقون الشريعة في شئونهم الشخصية من زواج وميراث، ويتركون أحوالهم المدنية لقوانين وضعية، وينظرون الى الوهابيين نظرتهم الى المتعصب المتحيز . وكان هذا الانقسام من أكبر المصاعب التي واجهت الوفود في المؤتمر ، وهددت بفشله . وجاءت حادثة المحمل لكى تخرج المؤتمر من هذه الأزمة ، وسمحت لعبد العزيز بن سعود بفرض اتجاهه على المؤتمر .

كانت مصر قد اعتادت إرسال المحمل في كل عام للاراضى المقدسة مع بعثة الحج ومع أمير الحج ، وتقوم فرقة صغيرة من الجنود باصطحابه مجهزة بالموسيقى العسكرية والاعلام . ونظر السعوديون الى هذه المظاهر على أنها خارجة عن الاسلام . فوافقت مصر هذه المرة على إرسال المحمل دون موسيقى . ولكن ما أن اقترب المحمل من مكة ، وكان المؤتمر الاسلامى منعقدا ، حتى وقعت حادثة مؤسفة . ذلك أن الجنود المصريين ضربوا نوبة « بروجى » في المساء ، فما كان من رجال نجد إلا أن هاجمهم بدعوى أنهم من الكفار ، وإضطرت القوة المصرية الى الدفاع عن نفسها وأطلقت النار في الهواء أرهايا للمهاجرين ، ثم في هذه الحشود التي حاولت إجتياحها والتفرس فيها . وسقط خمسة وعشرون وهايياً على أرض المعركة . وسرعان ماظهر الملك عبد العزيز نفسه في مكان الالتحام وواسى رجاله ، وذكر للضابط المصري أن ليس له الحق في اطلاق النار في مملكة الحجاز ، وأمره بالعودة مع جنوده الى القاهرة دون أن يكمل الحج .

لقد كانت هذه الحادثة سبباً في امتناع مصر عن إرسال المحمل الى الحجاز حتى سنة ١٩٣٦ ، ولكنها أعطت تأثيراً مباشراً على المؤتمر الاسلامى المنعقد في ذلك الوقت . ذلك ان إغضاب مصر واخراج بعثة الحج التي ارسلتها

للحجاز في هذه السنة قطع على الوفد المصرى كل امكانية للمناقشة في المؤتمر مادام قد أصبح في وضع الخصم من السعوديين . فقلت المعارضة المعتدلة أمام عبد العزيز وأصبح لا يواجهه الا وفد جمعية الخلافة الاسلامية الهندي . وأثبت عبد العزيز بن سعود أنه لا يقبل أى تدخل ادارى أو مدنى في شئون الحجاز إذ أنه هو رئيس السلطة التنفيذية في الاقليم ، فلم يبق أمام المؤتمر الا محاولة الاحتفاظ بالسلطة الدينية ، أي النفوذ الاسلامى « المعنوى » فى الأراضى المقدسة . وأضطر المؤتمر الى قبول الأمر الواقع إخفاء لهزيمته . وكانت هذه الحادثة سبباً مباشراً لعدم الوصول الى حل حاسم فى مسألة الخلافة التى ظلت معلقة . وصرف المؤتمر جهده فى لم الشمل ، وفى محاولة الاحتفاظ بما تبقى له من كيان اسمى ونجح فى تشكيل هيئة دائمة للمؤتمر الاسلامى ، نص على ضرورة إجتماعها من وقت لآخر ، للتباحث فى الأمور التى تهم المسلمين ، ولكنه اعترف بطريق مباشر أو غير مباشر بهذا الوضع الذى إختاره عبد العزيز بن سعود للحجاز ، مادام يفتقر الى القوة التى تسمح له بتغييره . وكان هذا هو ما يسعى اليه ملك الحجاز ونجد ، مادام لا يسعى الى الحصول على لقب الخلافة ، مع كل ما يحمله ذلك اللقب من تبعات وما يجره من مشكلات . ولكن تقرير هذا الوضع للحجاز ولابن سعود جعل منها قوة من القوى الاسلامية التى تمتاز بعروبيتها ، ولكن تحسب حساب غيرها ، وفرض عليها أمر موازنة نفسها مع غيرها من القوى ، فألغى بذلك صفتها الثورية وحددها بحدود المملكة التى تعيش فيها . ويمكننا أن نقول أيضاً أن هذا التنافس بين ابن سعود وبين القوى الاسلامية ، اضطر هذا الملك الى الاسراع فى تسوية المشاكل السياسية مع الدول المحيطة به وخاصة مع العراق ومع شرق الأردن ، حتى يضمن الاستقرار الزمنى . وزاد هذا الاستقرار الزمنى من الغاء الصفة

الثورية لتلك القوة التي خرجت من نجد لنشر مذهب الإخوان ولتوحيد العرب . إذ أنها ستعترف بوجود القوى الأخرى ، داخل حدودها ، وتعترف بتقسيم العالم العربي بين دول متعددة ، وتدخل ، هي الأخرى ، في طور القوميات العربية « المحلية » .

٢ — العلاقات مع بريطانيا وحلفائها :

سأت العلاقات بين السعوديين والبريطانيين نتيجة لعمليات الإخوان في الحجاز ، ومحاولتهم تغيير الوضع القائم في العالم العربي ، وما حمله ذلك من تأثير على كل من مملكة العراق وإمارة شرق الأردن ، حليفتا بريطانيا في الشرق والشمال .

وكان امتداد الحكم السعودي من مياه الخليج العربي إلى سواحل البحر الأحمر يزيد من أهمية عبد العزيز ودولته في نظر بريطانيا ، خاصة وأن دولته أصبحت تكون حزاماً يوصل إلى مياه الهند ، ويقع خارج منطقة النفوذ البريطاني . وكان عبد العزيز آل سعود يطالب بالعقبة على أنها من أرض الحجاز ، وكانت بريطانيا قد اعترفت فعلاً في عام ١٩١٦ بهذه المدينة داخل نطاق مملكة حسين في الحجاز . ولكن تسلم السعوديين لها كان يحرم بريطانيا من قاعدة استراتيجية هامة في المنطقة ، عقدت عليها كثيراً من الآمال ، للمواصلات مع حيفا في الشمال ثم في البحر الأحمر ، في حالة تعطيل الملاحة في قناة السويس ، واختارتها مركزاً لفرض سيطرتها على كل من شرق الأردن وفلسطين ، ومخرجاً لهاتين المنطقتين صوب المياه الإفريقية والشرقية . وكان تسلم السعوديين للعقبة يعني إقفال الميناء الأردني الوحيد ، ويهدد بالتالي باستيلائهم على الجزء الجنوبي من فلسطين (النقب) ويجعل حدودها متاخمة للحدود المصرية في سيناء .

وكان عبد العزيز بن سعود لا يعترف بما أنشأته بريطانيا وسمته إمارة شرق الأردن . بل كانت حدوده الشمالية في نظره هي مع الشام . فحتى إذا فرضنا جدلاً أنه يوافق على ترك الأمير عبد الله في عمان ، فهو يرفض وجود الممر الصحراوي الشمالي الذي يصل عبد الله بمملكة العراق ، ويفصله هو ابن سعود ، عن سوريا . فكان عبد العزيز إذن يهدد الخط البري للمواصلات الامبراطورية البريطانية مع الهند تهديداً مباشراً ، ويسعى إلى قطعه في منتصفه .

وإذا كان عبد العزيز قد أحجم عن الاصدام بقوة بريطانيا ، وامتنع عن معاداة حلفائها الأشراف في كل من العراق وشرق الأردن ، في الوقت الذي قام فيه بعملياته في الحجاز ، فإن ذلك لم يمنعه من التصريح بمطالبه ، خاصة وأنه شعر بأن حياد بريطانيا في حرب الحجاز كان لا ينفي محاولتها الوصول إلى إنهاك القوى العربية ، الواحدة ضد الأخرى ، بما فيها قوته ، ومحاصرته من الجنوب والشمال بشكل واضح .

وتبلور سوء العلاقات مع بريطانيا في الوقت الذي أقام فيه الملك حسين في العقبة وترك ابنه علي يحارب الإخوان من جده . فوضح أن الهاشميين يستندون إلى القواعد الحربية البريطانية . ولك بريطانيا اضطرت إلى إنهاء هذه الأزمة ، فأبلغت الحسين في ١٨ مايو سنة ١٩٢٥ أن السعوديين قد أعدوا قوة جربية لمهاجمة العقبة مستندين إلى إقامته بها ، وإلى أن الأشراف يتخذونها - مع معان - قواعد عسكرية ضد الإخوان . فدعت بريطانيا حسيناً لترك العقبة حتى لا يتسبب في خلق المشكلات بينها وبين سلطان نجد ، وأصرت بالحاح على سفره منها في أقرب فرصة . ولقد طلب الحسين السماح له بالإقامة

في حيفا أو يافا ، ولكن بريطانيا رفضت ، وأشارت عليه بقبرص . وكان خروج الحسين من العقبة عاملا من العوامل الذي خدم المصالح البريطانية وخدم كذلك مصالح السعوديين .

ومع ظهور التنافس الاسلامي ، للتدخل في أمر الخلافة والأراضي المقدسة ، وللتوفيق بين عبد العزيز وعلى ، ثم للحصول على ضمانات بشأن الحرمين ، نجد أن العلاقات السعودية تزداد تحسنا مع بريطانيا . فتستند بريطانيا إلى اتفاقية العقير التي بحثت مشكلات الحدود النجدية مع كل من العراق والكويت ، وترسل المسيو جلبرت كلايتون على رأس وفد للتباحث مع سلطان نجد في أمر الحدود ، وإلا قرارها بشكل نهائي ، وذلك في ٩ أكتوبر لسنة ١٩٢٥ . وأعلن هذا الوفد أن بريطانيا لا تزال محافظة على حيادها التام في المسألة الحجازية النجدية ، فظهرت أسس المصالح المتبادلة بين نجد وبريطانيا في الوقت الذي ثارت فيه المشاكل بين نجد وبقية العالم العربي والإسلامي . ووجد الوفد أنه يريد الاتفاق على المسائل المعلقة بين نجد وشرق الأردن وبين نجد والعراق . وهكذا سعت بريطانيا إلى الحصول على إعراف عبد العزيز بالوضع الذي أنشأته هي في الشمال ، بتشجيعها لمملكة العراق « الخليفة » ، وإمارة شرق الأرض الموضوعة تحت الانتداب ، وفلسطين الخاضعة للحكم البريطاني المباشر . وفي نظير ذلك ترك بريطانيا لابن سعود أمر الوصول إلى حل في مسألة الحجاز ، حسب قوته أمام خصومه ، وموقف المنافسين الآخرين منه .

ولم يكن من مصلحة عبد العزيز أن يجادل كثيرا ، خاصة وأن معظم الدول لم تكن قد اعترفت به ، وكان يستند إلى الاتفاقية التي وقعها مع بريطانيا

سنة ١٩١٥ والتي كانت تحدد من مظاهر استقلاله . فساد المباحثات جو ودي طول فترة المفاوضات التي امتدت خمسة وعشرون يوما . وأثنى السعوديون على روح توفيق السويدي ، ممثل العراق في الوفد البريطاني . فأثبتوا بذلك اعترافهم بحكم « الأشراف » في الشمال في الوقت الذي يرفضونه في الغرب ، واعترافهم بقيام قوميات عربية « محلية » في الوقت الذي لا يرضون عن الوحدة العربية بديلا في مسألة الحجاز .

ولقد أسفرت هذه المفاوضات عن وضع اتفاقيتين : الأولى هي اتفاقية بحره التي عالجت المسائل العراقية النجدية ووقعت في أول نوفمبر سنة ١٩٢٥ ، والثانية هي اتفاقية حداء بين شرقي الأردن ونجد ووقع عليها في اليوم التالي . ولقد أدخلت هذه الاتفاقية الثانية بعض التعديلات الطفيفة على الممر الصحراوي الشمالي الذي يصل شرقي الأردن بالعراق ، ولكنها تركت مسألتى معان والعقبة ، وتركتهما في صمت ، أي تركتهما للأمير عبد الله . واستند عبد العزيز بن سعود إلى هاتين الاتفاقيتين لإضعاف الملك علي في جدة ولضم الحجاز بأكمله إلى نجد .

وبعد إعلان عبد العزيز نفسه ملكا على الحجاز ، أرسلت بريطانيا مرة جديدة السير جلبرت كلايتون للتفاوض من أجل عقد معاهدة بريطانية - سعودية تحل محل الاتفاقية السابقة المعقودة مع السلطات البريطانية في الهند - سنة ١٩١٥ والتي أصبحت غير ذات موضوع . وتم التوقيع على هذه المعاهدة في جدة في ٢٠ مايو سنة ١٩٢٧ واعترفت فيها بريطانيا باستقلال عبد العزيز ابن سعود بمركز بريطانيا الخاص في كل من البحرين وشتياخات الخليج العربي ، وتعهد كذلك بالتعاون مع السلطات البريطانية من أجل إلغاء تجارة

الرقيق . وفي مذكرة ملحقة بالمعاهدة اعترف ملك الحجاز بامتلاك شرق الأردن لكل من معان والعقبة .

وهكذا نجد أن بريطانيا لم تتعهد هذه المرة باعطاء عبد العزيز بن سعود أية معونة مالية ، ولم تحاول أن تحدد من استقلاله ، فأنهت بذلك أسس الخلافات السابقة ، ووطدت صداقتها معه على أسس ثابتة . ولكن وضعية عبد العزيز قد تغيرت ، إذ أنه أصبح رأسا متوجة لدولة ، أي لإحدى «الوحدات» في العالم العربي بعد أن كان شيخا لعشائر نجد ، وأهم من كل ذلك رئيسا «لحركة» إسلامية وعربية .

٣ - اعلان وحدة المملكة :

تطورت سلطة عبد العزيز آل سعود مع تطور الأحداث وتلاحقها في شبه الجزيرة العربية . وأخذ هذا التطور يؤثر على العالم العربي وعلى السياسة الدولية منذ بدء عملياته في الحجاز بشكل عام ، وبعد وصوله إلى اتفاق مع بريطانيا بشكل خاص . فاتخذت سلطته شكل الدولة التي تعترف - بالترامات - في المحيط العالمي ، وتكبح بالتسالي أو تلغى أو تتناسى مقوماتها الثورية . فما أن تم الاتفاق بين عبد العزيز من ناحية ، وبريطانيا وحلفائها في العراق وشرق الأردن من ناحية أخرى ، حتى ظهر الانقسام واضحا بين سيد الجزيرة وبين زعماء الأخوان وقادتهم . وأدى هذا الانقسام إلى تبلور ثم إلى اصطدام بين القوي الوهابية وبين قوة الدولة الناشئة . وأصبح مستقبل الجزيرة العربية متوقفا على نتيجة هذا الصراع .

أعلن قائدان من قواد ابن سعود الثورة عليه بمجرد اتفاه مع السير جلبرت كلايتون بشأن مسائل الحدود مع كل من العراق وشرق الأردن . وها فيصل

الدويش وسلطان بن بجاد . وكانا من أكبر قواد الاخوان ومن الدعائم التي استند إليها ابن سعود في مد سلطته في شبه الجزيرة العربية ونجح كل منهما في الخروج على رأس فرقة من الاخوان . وعارضا الاتفاقيات السعودية البريطانية واتهما عبد العزيز بالكفر نتيجة لمهادنته الكفار واعزافه بهم ورموه بأنه لم يكن إلا طالب ملك . وأردفوا ذلك بانتقاد وسائل الحضارة الحديثة التي يستخدمها ابن سعود من هاتف وبرق للقيام بدعاية ضده . وحاولوا مواصلة الكفاح من أجل الوهاية في شكلها البدائي من ناحية ، وأبطال هذه الاتفاقيات بمهاجمة حدود العراق وشرق الأردن من ناحية أخرى .

ورأى ابن سعود مع تطوره وتطور سلطته أن هذا القسم من الاخوان يأبى التطور ، فاتهمهم بالهجمية والرجعية . واضطر أمام هذا الانشقاق إلى الاعتماد إلى درجة كبيرة على أسرته آل سعود لكي يسد النقص في القيادة . فجاء هذا مدعما لظهور أسرة عربية حاكمة ، ولاضطراد نموها وازدياد نفوذها . فنمت سلطة الدولة وتبعها بالتالي ازدياد اختصاصات الملك ، وقلة الشورى وتقليم أظافر الأخوان ، والحد من قوة الدعوة الوهاية . بل لقد اضطر عبد العزيز إلى التعاون مع القوات العراقية والأردنية وسلاح الطيران البريطاني المرابط في كل منهما للقضاء على هذه القوة البدائية التي كانت الأساس الأول لقيام حركته ثم دولته .

واستعد عبد العزيز للقضاء على هؤلاء الثوار . فجمع قوة من الفرسان والمقاتلين بلغ عددها أربعين ألفا . وكان هدد الثوار لايزيد على أربعة آلاف ووقعت المعركة الأولى في السبة ، وتولى عبد العزيز آل سعود نفسه قلب الجيش وولى أخاه محمد بن عبد الرحمن الجناح الأيسر ، وابنه سعود الجناح

الأيمن . ورغم اشتداد المعركة قانها لم تكن جاسمة إذ تمكن كل من فيصل الدويش وسلطان بن بجاد من الانسحاب رغم خسائرها .

ولكن سلطان بن بجاد اضطر الى طلب العفو من عبد العزيز آل سعود ثم سلم نفسه في الرياض ، فاحتفظ به الملك سجيناً نظراً لخطورته على الأمن العام . واشتبك حاكم إقليم حائل مع إحدى القوات التابعة لفيصل الدويش وقتل معظم رجالها ، ومن بينهم ابنه . ورغم ذلك فإن الثوار واصلوا الهجوم وعمليات السلب والنهب وهددوا المواصلات في شبه الجزيرة العربية كلها رغم أن قواعدهم الأساسية كانت في المنطقة الواقعة بين الاحساء والكويت وخشى ابن سعود من أن يلتجئ الثوار الى العراق ومن أن يتخذهم الهاشميون والبريطانيون وسيلة لاقلاقه في بلاد خاصه وأنه قد سمع باتصال الديش بكلوب (أبي حنيك) ، المفتش الاداري للبادية الجنوبية في العراق في ذلك الوقت . استند عبد العزيز الى مركزه الدولي والى الاتفاقيات المعقودة مع العراق ، وأبلغ المندوب السامي البريطاني في بغداد أنه قد سار على رأس قواته لتأديب الثائرين الذين قامت عليهم قائمة الحكومات البريطانية والعراقية والكويتية بعد أن قتلوا رعاياها وعاثوا في أرضها فساداً ، وطلب منه أن تنفذ بريطانيا تعهداتها التي قطعها على نفسها باخراج « المجرمين » من المناطق الخاضعة لنفوذها . ولكن السلطات العراقية كانت قد رفضت مساعدة الثوار فخرجوا منها الى الكويت فكذب ابن سعود الى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي مذكراً أياه بتعهدات بريطانيا حياله في هذا الشأن . فاضطرت السلطات البريطانية الى القاء القبض على فيصل الدويش ورجاله على إحدى البواخر الحربية حينما طلبوا حق اللجوء السياسي ، بعد أن انهكت قواهم ثم قامت بنقلهم جواً وسلمتهم الى ابن سعود الذي زج بهم الى السجن .

اضطر اذن عبد العزيز آل سعود في الناحية الداخلية الى الاعتماد على قوة عصبيته وأسرته أمام هذا الانفصال الذي وقع في جبهة الاخوان .

وازدادت سيطرة السعوديين على أمور شبه الجزيرة العربية مع القضاء على بعض القيادات القديمة . فازدادت سلطة الأسرة الحاكمة التي ربطت نفسها بعلاقات المصاهرة مع معظم القبائل . ومع ازدياد سلطة الأسرة الحاكمة والدولة قلت الفوارق بين الاقاليم العربية . سمح ذلك لعبد العزيز آل سعود بتوحيد ممتلكاته في ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣٢ تحت اسم المملكة العربية السعودية . وأقام ابنه سعوداً نائباً عنه في الرياض وولياً للعهد ، كما أقام ابنه فيصل نائباً عنه في الحجاز ووزيراً للخارجية نظراً لمعرفته اللغات الاوربية ووجود السفارات الأجنبية في هذا الاقليم ولقد نجحت هذه الادارة القوية في الضرب على أيدي العابثين وفي إقرار الأمن بشكل غير من تاريخ البلاد .

واضطر كذلك عبد العزيز آل سعود في الناحية الخارجية والدولية إلى التعاون مع السلطات البريطانية للمحافظة على الأمن والنظام على الحدود . فأصبح رأساً لدولة تعترف بالتزاماتها حيال جيرانها ، وتعترف بالتى بهم . واضطر إلى نسيان العداوة التقليدية بين السعوديين والهاشميين أو تناساها ، حتى يدعم الوضع القائم ، ويمنع أي تهديد يقوم به الهاشميون في الشمال ضد ملكه . ولما كان النفوذ البريطاني متفوقاً في مناطق حكم الهاشميين فقد أصبحت كل عداوة أو جفاء بين السعوديين والهاشميين أو بينهم وبين البريطانيين غير ذات موضوع . فوافق ابن سعود على مقابلة الملك فيصل الأول وتمت المقابلة في بارجة حربية بريطانية راسية في ميناء الخليج العربى . ولعبت بريطانيا دور حامية السلام بين ملوك العرب ، واستقر الوضع الذي رسمته

لخدمة مصالحها ، ويتعاقب الملكان ويتماهدا على العمل من أجل « البلاد » العربية . وشهدت سنة ١٩٣٠ التوقيع على معاهدة « صداقة » بين المملكة العربية السعودية والعراق ، كما شهد عام ١٩٣٣ إبرام معاهدة « صداقة » أخرى مع إمارة شرق الأردن . وهكذا نصل إلى هذه المرحلة الجديدة ، مرحلة « الصداقة » بين « البلاد » العربية وعلى إحدى البوارج البريطانية ، بعد أن كانت صرخات العروبة تدوي سنة ١٩١٦ بالوحدة والاستقلال .

وإذا كانت هذه هي الخطوط العامة للتطورات السياسية والاجتماعية في هذه المنطقة فلا يمكننا مواصلة تاريخ المملكة العربية السعودية دون التحدث عن التطورات الاقتصادية وتأثيرها بالتالي على السياسة والمجتمع .

٤ - البترول وأمريكا :

كان إكتشاف البترول في أراضي المملكة السعودية عاملا هاما رئيسيا أثر في تاريخ هذه المملكة وفي تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية فيها . وأثر كذلك في موقفها من القوي العربية الأخرى في الفترة التالية التي وقعت فيها الحرب العالمية الثانية وما تلاها من أحداث حتى يومنا الحاضر .

وقد أعطت المملكة العربية السعودية امتياز استخراج البترول في ٢٩ مايو عام ١٩٣٣ إلى شركة زيوت استاندارد كاليفورنيا Standard Oil Compny of California وذلك لمدة ستين عاما وفي منطقة واسعة في شرق المملكة . فتكونت نتيجة لذلك شركة استاندارد كاليفورنيا العربية لاستغلال هذه المواد . ولما انضمت إليها شركة بترول تكساس في العام التالي ، تألفت منهما الشركة العربية الأمريكية للبترول وهي المعروفة باسم (أرامكو) . وكانت المملكة العربية السعودية تجتاز أزمة اقتصادية عصبية في هذه السنوات

نتيجة لقلّة عدد الحجاج ، وكانوا موردها الاقتصادى الرئيسى ، ونتيجة بالتالى للأزمة الاقتصادية العالمية فى أوائل الثلاثينات . فطلبت الحكومة السعودية من هذه الشركة أن تقدم لها قرضا يبلغ ٣٠٠٠٠ جنيه انجلىزى (من الذهب) حتى تتمكن من تصريف أمورها . ورغم صعوبة المناخ الذى عملت فيه الشركة وافتقارها إلى تأييد رسمى من حكومة الولايات المتحدة ، التى أحجمت عن تشجيع مشروعات اقتصادية فى مناطق قريبة من النفوذ البريطانى ، فإن تقارير الخبراء عن كمية البترول الموجودة دفع بالشركة إلى أن تقدم هذا القرض دون تردد . وسرعان ما حفرت الآبار فى مناطق الظهران والدمام وأبى حضرية فى إقليم الإحساء . واكتشفت أن كمية البترول المخزونة تحت الأرض تفوق أضعاف أضعاف ما جاء فى تقارير الخبراء الأوائل . فشجع ذلك كل من شركة أرامكو والمملكة العربية السعودية على مواصلة التعاون وبخاصة بعد استخراج البترول بكميات كبيرة .

وساعدت إيرادات البترول المملكة العربية السعودية على إدخال وسائل الحضارة والمدنية الحديثة فى بلادها ، من إنشاء الطرق ووسائل المواصلات والتعليم . ودخل العمران فى مناطق كثيرة منها . وتمكنت الحكومة من إنشاء إدارة حديثة واستخدمت فيها الموظفين من كل البلاد العربية وبخاصة من سوريا وفلسطين ومصر . واستندت الحكومة السعودية إلى موارد ثروتها الجديدة ، وإلى الخبرة الفنية لكى تسير بخطوات واسعة وسريعة إلى الأمام .

وأصبحت حقول استغلال البترول أساسا للنشأة « صناعة » حديثة فى إحدى البلاد العربية وصحبها ظهور طبقة خاصة من العمال لهم شخصية وعقلية تختلف تماما عن عقلية وتقسية الرعاة والزراع والتجار . وكان هذا التطور

خطر في الحياة الاجتماعية وبخاصة في إقليم الاحساء .

كما كانت موارد البترول العربي أساسا لاتجاه جديد في السياسة العربية ، وهو الميل إلى الولايات المتحدة الأمريكية وتفضيلها على غيرها من الدول الصديقة الخارجية . وأملى البترول على الملك عبد العزيز بن سعود موقفه في التنافس الدولي الذي بدأ في الثلاثينات بين الدول النازية ، أي دول المحور من ناحية ، وبين الحلفاء ، أو الدول الرأسمالية من ناحية أخرى .

فلقد عرضت عليه اليابان في عام ١٩٣٧ عرضا مغريا لاستغلال البترول العربي ويفوق بمراحل شروط الاستغلال الأمريكي ، ولكن عبد العزيز رأى أن هذا العرض يسعى إلى الحصول على نتائج سياسية ، فرفضه . وحاولت ألمانيا كذلك في نفس السنة إبعاد أمريكا عن هذه المناطق ، فقام الدكتور فريتزجروبا Dr. Fritz Grobba وزيرها المفوض في العراق والمملكة السعودية ، بالانتقال من بغداد - مقر منصبه - إلى جدة - وعرض على ابن سعود عروضاً جديدة . ولكن عبد العزيز رفضها ، مفضلاً استمرار التعاون مع الأمريكيين ، ومواصلة العمل من أجل بناء دولته دون إقحامها في ميادين التنافس الدولية ، أي أنه فضل العمل في اتجاه واحد يسمح له بالاستقرار والمواصلة ، والحصول على نتائج ملموسة .

وأعطى الملك عبد العزيز لشركة أرامكو امتيازاً جديداً لاستغلال البترول في ٣١ مايو سنة ١٩٣٩ وظهر أن اتجاهه السياسي قد تحدد بالخطوط التي يسير عليها في اقتصادياته . ومع مجيء الحرب العالمية الثانية أصبحت المملكة العربية السعودية قلعة من أهم قلاع الديموقراطيات الغربية في العالم العربي ، وأصبحت تميل إلى الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من ميلها إلى غيرها من

دول الحلفاء الغربيين ، بل أصبح استغلال البترول عاملا للتنافس بين أمريكا وبريطانيا في المنطقة .

* * *

وهكذا نجح عبد العزيز بن عبد الرحمن في السيطرة على وسط الجزيرة العربية واستند إلى قوة إسلامية أفاد منها وقت انغزال الأشراف في الاستيلاء على الحجاز ، ونجح في بناء دولة تخلصت من النفوذ البريطاني ولكنه اضطر إلى أن يعترف بالتزاماته تجاه الدول العربية الأخرى التي نشأت بمساعدة الحلفاء بعد الحرب العالمية الأخرى . وسمحت له إمكانياته الاقتصادية بالسير في طريق وارف مستظل بالدولارات .

الفصل الرابع

اليمن

إذا كان عبد العزيز آل سعود قد أثر تأثيرا واضحا في تاريخ بلاد العرب المعروفة باسم الصحراء الغربية Arabia Deserta فقد كاد أن يؤثر أيضا في تاريخ بلاد العرب السعيدة Arabia Felix وهي اليمن ، خاصة وأنه حاربها في عام ١٩٣٤ ، أي بعد العثور على البترول في أراضيها بعام واحد ، وكاد أن يضمها للملكة . فلا يتم الحديث عن شبه الجزيرة العربية دون التحدث عن اليمن ، ومعرفة تطور كفاح العرب فيها ضد الاستعمار ، خاصة وأنها كانت تتميز عن غيرها من الأقاليم العربية ، وفي كثير من المقومات والعوامل .

١ - الامام يهي والزيدية

دخل اليمن تاريخه الحديث منذ أن تولى أموره الامام يحيى « المتوكل على الله » في عام ١٩٠٦ . ورغم أن ترتيب هذا الامام كان هو السابع والثمانين في قائمة الأئمة اليمنيين من نفس الأسرة ، إلا أنه هو الذي أعاد بناء هذه الدولة حتى أصبحت تنسب إليه ، وتسمى بالدولة المتوكلية اليمنية .

وكانت الدولة العثمانية تحتل اليمن منذ عهد سليمان القانوني ودفعها إلى ذلك الاحتلال ضرورة توحيد البلاد العربية والإسلامية في جبهة واحدة تحت إدارة مركزه ، يمكنها أن تدافع عنها أمام هجمات الأعداء ، وترد عنها أطماع الأجانب المستعمرين . وكان لموقع اليمن الاستراتيجي أهمية خاصة في أعين رجال الدولة العثمانية ، إذ كان يسمح لهم بالتحكم في المدخل الجنوبي

للبحر الأحمر ، ويمنعون بذلك سفن البرتغاليين من الدخول فيه ، ومن مهاجمة سواحل مصر والأراضى المقدسة ، كما كان يسمح لهم كذلك باقامة قواعد على مياه المحيط الهندي الذي ازداد فيه خطر الاستعمار الأوربي في ذلك الوقت وبخاصة على سواحل شرق أفريقية وسواحل الهند الاسلامية . وبذكر التاريخ تلك الصفحة الطويلة من الصراع بين المسلمين وعلى رأسهم الدولة العثمانية ، وبين قوي الاستعمار التي توغلت في المحيط الهندي ، منذ مجيء البرتغاليين والهولنديين حتى مجيء الفرنسيين والبريطانيين . ولقد حاول كل منهم الاستيلاء على مناطق في جنوب اليمن ، وخاصة في عدن أو قربها ، حتى يدعم خطوط مواصلاته ، ويفرض كلمته على الشرق ، وينفرد باستغلال موارده . وتوصلت بريطانيا في عام ١٩٣٩ إلى الاستيلاء على عدن في الوقت الذي استعدت فيه لمهاجمة الدولة المصرية التي أنشأها محمد علي ووجد بها دول الشرق العربي . وبقيت هذه القاعدة الاستعمارية عاملا هاما يؤثر في الموقف السياسي والاستراتيجي في العالم العربي ، ويؤثر في علاقة القوات العربية والإقليمية الواحدة بالأخرى وحتى وقتنا الحاضر .

ولكن بقاء الاستعمار البريطاني في جنوب اليمن لم يؤد إلى تدعيم العلاقات بين القوى العربية والإسلامية في هذه المنطقة . فنجد أن العثمانيين يحاولون فرض « الوحدة » على اليمن ، ونجد اليمنيين يحاولون من جانبهم التملص من هذه الإدارة العثمانية وبخاصة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فأرسلت الدولة العثمانية حملات متتالية إلى هذا الإقليم العربي ، بقيادة الغازي مختار باشا ، ثم أحمد فيضى باشا ، ثم عزت باشا الالباني . وسارت الحملتان الأخيرتان على اليمن في عهد الإمام يحيى في سنة ١٩٠٦ وسنة ١٩١٠ . فهل كانت العوامل

الداعية إلى التفرقة بين العرب والمسلمين أقوى من عوامل توحيد الجبهة ،
وبخاصة أمام وقوف القوي الإستعمارية على الأبواب .

كان المذهب الدينى السائد فى اليمن ، ومنذ قرون ، يختلف عن المذاهب
السائدة فى الدولة العثمانية . فبينما كان المذهب الشافعى السنى هو المذهب
الرسمى للدولة ، كان المذهب الشيعى الزيدى هو السائد فى اليمن منذ القضاء
على القرامطة فى عصر الدولة العباسية . ولكن الكفاح بين أهل اليمن والدولة
العثمانية لم يأخذ اللون المذهبى ، ولم يحاول اليمنيون توحيد مجهوداتهم مع غيرهم
من الشيعة فى مسقط أو فى العراق . وحتى إذا أخذنا جدلاً بسيادة الجهل ،
فلا يمكننا أن نلغى وجود المنطق ولو بشكل بدائى . فرفض هذا العامل
المذهبى كأساس لتدهور علاقة اليمنيين بالدولة العثمانية .

وكذلك الأمر إذا حاولنا أن نرى أساس المشكلة يستند مثلاً إلى ظهور
شخصية قوية فى اليمن تسعى إلى بناء دولة مستقلة تنفصل بها عن جسد الدولة ،
إذ أن يحيى بن محمد حميد الدين لم يسبغ على نفسه ألقاب الملك ، بل ولم يحاول
من جانبه بناء جهاز حكومة يسمح له بالوصول إلى ذلك .

فلنبحث إذن عن عوامل أخرى :

إن الشخصية الأولى فى اليمن تحتفظ لنفسها بلقب « الإمامة » : الإمام يحيى
فالمسألة تتعلق إذن بإدارة شئون المسلمين . وهذا هو أساس الاختلاف بين
اليمن وبين الدولة العثمانية . وإذا رجعنا إلى مطالب الإمام ، لثبت لنا أهمية
هذا العامل ، وخطورته على الوضع القائم فى جنوب الجزيرة العربية .

فما أن حصل الإمام يحيى على البيعة حتى أذاع منشوراً للتعبئة وللجهاد

ضد الترك : (الذين سعوا في الأرض بالفساد ، وتركوا الشرائع ، وظلموا العباد) . فسوء الادارة العثمانية والظلم لهما مكانهما ، وترك العمل بالشريعة الاسلامية له مقامه . وما دام رأس هذه الحركة يحتفظ لنفسه بلقب الامامة فتطبيق الشريعة الاسلامية يزيد في أهميته على سوء الادارة .

فيمكننا أن نربط بين كفاح اليمن اذن ضد الدولة العثمانية وبين تلك الحركات التي انتشرت في المناطق الإسلامية الأخرى ، في السودان ، ووسط الجزيرة ، والصحراء الليبية ، وزادت قوته منذ أواسط القرن التاسع عشر ، وجاءت نتيجة مباشرة لموافقة الدولة العثمانية على نصائح الغرب بادخال « وسائل الادارة الحديثة » في أقاليمها . وكانت الدول الغربية تسعى للوصول إلى مرحلة تعترف بالمساواة بين المسلمين والمسيحيين وبخاصة في البلقان التي بدأت شعوبها تدخل في مرحلة « القوميات » ووافقت الدولة العثمانية على تطبيق تشريعات وضعية ، والسير على طرق حديثة في ادارتها . ولكن هذه « التشريعات الوضعية » كانت صدمة عنيفة للشعوب المتدينة التي لا ترضى بالشريعة الإسلامية بديلا ، بل ولا تعترف بشرعية حكم من يفرض غيرها . وهكذا نرى أن هذه السياسة أدت إلى زيادة حقوق الشعوب المسيحية في البلقان من ناحية ، وعملت على التفرقة بين المسلمين ، حتى وإن كانوا من العرب ، من ناحية أخرى . وقسمتهم إلى أنصار للتحرير من بين ذوى الثقافة الحديثة ، وأنصار للشريعة ، من بين ذوى الثقافة الاسلامية التقليدية . وكان الامام يحيى على رأس هذا القسم الثانى والذي كان ينتمى إليه أغلبية اليمنيين في مطلع القرن العشرين .

فرغما عن وجود البريطانيين في عدن ، بدأ الامام يحيى بالكفاح ضد

الدولة العثمانية التي تركت الشرائع الاسلامية جانبا . ولا شك أن الأتراك أنفسهم قد احترموا هذا الموقف من الإمام . فبعد أن نجح أحمد فيظى باشا فى الدخول إلى صنعاء سنة ١٩٠٦ ، طلب إلى الإمام أن يتقدم بمطالبه . وكانت طلبات الامام تتلخص فى ضرورة : تطبيق الأحكام على الشريعة (الفراء) وعدم تولية أحد من أهل الكتاب على المسلمين ، وترك الامام يتصرف فى أمور تعيين القضاة وحكام الشرع وعزلتهم ومعاينة الخائنين والمرتشين ، وإقامة الحدود الشرعية على مرتكبي الجرائم من المسلمين واليهود ، كما أمر الله تعالى بها وأجراها رسوله (صلعم) ثم أبطلها الموظفون الترك فى اليمن ، وكذلك فى اشرافه على الأوقاف والاتفاق منها على التعليم . وترك الامام للدولة العثمانية أمر المحافظة على أمن اليمن الخارجى من اعتداء الدول ، وجباية الأموال بواسطة مشايخ البلاد وتحت نظارة مأمورى الدولة . دون أن تكون له أية علاقة باستلام الأموال الاميرية ، وكذلك تخصيص الرواتب للحكام والمأمورين . كما طلب اعلان العفو العام فى اليمن ، واعترف بسلطان الاسلام ودعا الله أن يؤيد ملكه .

ولكن الدولة العثمانية رفضت هذه الشروط إذ رأت فيها انتقاصا لحقوق سيادتها وتناقضا مع السياسة التى رسمتها وحاولت تطبيقها ، لادخال وسائل الادارة الحديثة فى أقاليمها ، والدخول فى زمرة «المجتمع» الأوربى الحديث وحاولت أن تثبت للإمام أن هذه الادارة الحديثة لا تتعارض مع الشريعة الاسلامية ، فأرسلت له وفدا لمناقشته يتألف من عشرين عالما من علماء الحجاز ولكن الامام يحى شرح لهم أن أجداده لم تكن لهم ارادة (سوى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر المخوف ، واقامة الشريعة ، وتعديل المسائل ، وارشاد الجاهل ، وتقريب المؤمنين وارشاد الظالمين) ثم شرح ما كان بين

والده وبين الموظفين الأتراك الذين تنوعت معاصيهم وارتكبوا الشهوات
ظاهرا بلا حياء واحتشام (حتى مضى لسبيله ... فانتصبنا لذلك المقام ، ولم
نقم والله لدرهم ولا لدينار) . وختم باصراره على موقفه ، بمحاولة
إكتساب علماء الحجاز إلى نظريته : (ها نحن ناشدكم الله والاسلام ، هل
تجدون ناسخا للامر بالمعروف والنهي عن المنكر المخوف ؟ أم هل تجدون من
محرم للدفاع عن الأموال والأعراض والنفوس والبنين والبنات ؟ أم هل من
مانع لقتال من أضاع أركان الإسلام ؟ أم هل من تثريب على من اقتضى الأثر
بآيات قرناء القرآن والحجة على الأمة في كل عصر وأوان ؟ الذين أوجب
الله محبتهم على كل بى الإنسان ، أم هل من ناسخ لآيات ومن لم يحكم بما
أنزل الله ؟ (١) .

فتظهر أسس الخلاف بين اليمن والادارة العثمانية واضحة اذن ، رغم
وجود القوي الاستعمارية في عدن في جنوب اليمن ، وازدياد الأطماع الاستعمارية
على سواحل اليمن الغربية المطلة على البحر الأحمر .

فشلت الدولة العثمانية في الوصول إلى حل لمشكلة اليمن وقامت ثورة
تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ وجاءت تدافع عن مبادئ تزيد في تعارضها مع اتجاه
اليمن عن الاتجاه السابق في العصر الحميدي . إذ أن رجال الاتحاد والترقي
كانوا يهدفون إلى الوصول إلى « توحيد » الامبراطورية العثمانية على أسس
مركزية في الإدارة ، فيصبح الجميع عثمانيين لهم نفس الحقوق ، وعليهم نفس
الواجبات . فلا فرق بين العربي والكردي ، بل ولا فرق بين المسلم والذمي .
فوجدت الحكومة الاتحادية أن من واجبها القضاء على هذه « المقاومة »
المعلنة في جنوب الجزيرة العربية ، وأرسلت ضدها حملة عسكرية بقيادة عزت

(١) أنظر أمين سعيد : اليمن

باشا الالباني سنة ١٩١٠ وشارك في أركان حربها كل من عصمت (اينونو) وعزيز على المصري وسليم الجزائري . كان على هذه الحملة أن تخضع اليمن وتقضى على النزعة التقليدية الموجودة فيه ، حتى يتم التقارب بينه وبين بقية أنحاء الامبراطورية . ولكن نجد أن عاملا آخر تدخل في المسألة ، وفي صالح اليمن .

ذلك أن رجال الاتحاد والترقي كانوا ، رغم إصرارهم على ضرورة تطبيق الإدارة المدنية ، يحترمون الروابط الإسلامية أعمق الاحترام . وسرعان ما أخذوا على أنفسهم إعادة تطبيق « السياسة الإسلامية » التي سار عليها السلطان عبد الحميد في الماضي . وزاد مع الأيام اقتناعهم بضرورتها لامبراطوريتهم وخاصة في الأقاليم الإسلامية التي لا توجد بها أية أقليات مسيحية . فأخذ ضباط الحملة من الأتراك والعرب في التفاوض مع الإمام يحيى ، ووصلوا معه إلى اتفاق عقد في دعان ، إحترم حقوق السيادة العثمانية واعترف باستقلال اليمن داخليا ، وخاصة في شأن تطبيق الشريعة فأصبح للإمام حق انتخاب حكام مذهب الزيدية . وانتخاب القضاة بما فيهم أعضاء محكمة الاستئناف ورئيسها ، على أن تصدق القسطنطينية على هذا الاختيار . وكذلك أصبح الإمام هو المشرف على جميع شئون الأوقاف والوصايا ، وأصبح من حقه استلام الهدايا والهبات من الزيود والمشايخ ، ونصت الاتفاقية على ضرورة جباية التكاليف الأميرية (بحسب الشرع) وتعهد الإمام بدفع عشر حاصلاته للدولة .

ونظمت هذه الاتفاقية علاقة إقليم أو ولاية اليمن مع الدولة العثمانية حتى خروج تركيا من الحرب العالمية الأولى ، وانسحابها من كل أقاليمها العربية واهترفت بمركز الزيدية ، وبمركز خاص للإمام يحيى في جنوب الجزيرة .

٢ — اليمن فى العرب

أن تحسن العلاقات بين الامام يحيى والدولة العثمانية باتفاقية دعاء سنة ١٩١٠ لم يقض على كل الأخطار التى كانت تهدد اليمن. إذ أن قوات بريطانيا الاستعمارية كانت تستند إلى قاعدة عدن وتحاول التوسع منها بين مشايخ العرب ورؤسائهم فى جنوب الجزائر . وكانت منطقة العسير فى شمال اليمن فى ثورة معلنة على الدولة العثمانية وبقيادة محمد على الأدريسى . وجاء العام التالى لكى يشهد اعلان ايطاليا الحرب على الدولة العثمانية ، وارسال حملة بحرية وبرية قوية لاحتلال ولاية طرابلس الغرب ومتصرفيه بنغازي . وزاد شعور ايطاليا بعجزها عن غزو هذين الاقليمين العربيين فأرسلت وحداتها البحرية لضرب الموانئ العثمانية فى الشام ومصر والحجاز واليمن . واحتلت جزر الدود يكانيز ، وتدخلت فى ثورة العسير ، وهى ما تهمنا بنوع خاص .

أثارت الحرب الايطالية التركية فى طرابلس شعور العرب والمسلمين ووحدت بين صفوف أبناء الشرق الأدنى ، فزاد اقترابهم من بعضهم ووضحت المصالح المشتركة بينهم وظهر رجحان كفة من يعملون من أجل الرابطة الاسلامية ، ومن بينهم الامام يحيى وزاد من قيمة التجربة أن محمد على الادري (صاحب صبيا) تعاون مع ايطاليا واستلم منها الأموال والأسلحة والذخائر وقبل حضور بعثة عسكرية ايطالية لتنظيم وتدريب رجاله واعدادهم لمحاربة دولة الخلافة . فلم تتدخل اليمن فى هذه الحركة وبقيت موالية للدولة العثمانية محافظة على روابطها الاسلامية معها ، واستمرت فى هذا الموقف بعد أن أعلنت الحرب العالمية الأولى ، وطوال مدة هذه الحرب .

وزادت أهمية اليمن من الناحية الاستراتيجية نتيجة لموقعها الجغرافي في أقصى الجنوب العربي ، مجاورة لعدن ، ولضيق باب المندب ، وقريبة من الساحل الأفريقي . وشعرت القيادة العثمانية وحلفاؤها الألمان بأهمية هذا الموقع فحاولوا استغلاله في مهاجمة عدن وإخراج البريطانيين منها ومن « محميات الجنوب » ، وفي التحكم في مضيق باب المندب وإغلاق البحر الأحمر من الجنوب في الوقت الذي يقوم به جمال باشا بمهاجمة قناة السويس وقطع طريق المواصلات البحرية للحلفاء من الشمال . بل لقد كان في استطاعة الأتراك والألمان أن يتصلوا لاسلكيا من اليمن بمستعمرة تنجانيقا الألمانية في شرق أفريقيا ويتعاونوا معها في مطاردة البريطانيين في كينيا وزنبار ، وكان في استطاعة العثمانيين أن يتخذوا من اليمن قاعدة لامتداد محمد بن عبد الله حسن في الصومال بما يلزمه من أسلحة وذخائر ، ويساعدونه في الحرب التحريرية التي بدأها سنة ١٨٩٨ ضد كل من البريطانيين والفرنسيين واليطاليين والاحباش في منطقة الصومال . وزادت أهمية اليمن وضوحا سنة ١٩١٦ حين أشهر امبراطور الحبشة ليبيج يسوع إسلامه وأعلن الحرب على « الحلفاء » وانضم إلى دول الوسط وطلب إلى الدولة العثمانية أن تعترف به كأمر مسلم يحارب في جانبها الاستعمار الغربي . لقد كان في استطاعته أن يسير غربا لاجراج البريطانيين من الخرطوم في الوقت الذي تزحف فيه قوات السلطان على دينار من دارفور على الضفة الأخرى لوادي النيل .

لقد كان في استطاعة الأتراك أن يحصلوا على كل هذه المزايا من قواعدهم في اليمن . وساعدهم على ذلك أن الإمام يحيى كان من أنصار الحركة الإسلامية التكتيلية والتقليدية ، في الوقت الذي ظهرت فيه الآراء الغربية ، الانفصالية التحريرية ، في الشام والعراق . فأرسلت الدولة العثمانية فرقتين عسكريتين

إلى اليمن ، وساعد مجيء هذه القوات على القضاء على كل أمل لدى البريطانيين في عدن أو في لندن لنجاح المفاوضات السرية التي حاول المقيم السياسى البريطانى في عدن أن يبدأها مع الإمام يحيى . ذلك أن الامام قد احتفظ بموقف سلبي تجاه البريطانيين ، وحتى النهاية . بل لقد قامت القوات العثمانية في اليمن ، وبمساعدة الزيود بالتوغل في منطقة المحميات البريطانية في الجنوب ونجحت في تحرير سلطنة لحج . ولكنها لم تقو على مهاجمة عدن نفسها ، وخاصة بعد أن نقلت بريطانيا بعض وحداتها المحاربة من مصر إلى جنوب شبه الجزيرة .

وحاولت الدولة العثمانية أن ترسل إمداداً إلى اليمن ، فجهزت قوة تبلغ ٣٥٠٠ جندي بقيادة خيرى بك ، وكان عليها أن تتعاون مع إحدى البعثات الألمانية التي ترغب في العمل في قنفذة وتفتح ميادين جديدة ضد قوات الحلفاء سواء أكان ذلك مع شرق أفريقيا أو على مياه المحيط الهندي . ولكن الشريف حسين علم بأمر هذه الحملة من جمال باشا ، فأعلن ثورته على الدولة قبل وصولها إلى جدة ، واضطرت الحملة والبعثة الى الرجوع إلى الشام .

ورغم أن إعلان الثورة قد جرم الامام يحيى من المدد وقطع خطوط مواصلاته مع الدولة العثمانية وقضى على كل أمل له في زحزحة البريطانيين من الجنوب العربى ، فانه لم يغير من موقفه الودى تجاه تركيا ، فأعطى لرجال الحماية العثمانية في بلاده ما يحتاجون اليه ، وقدم لهم القروض حين انقطع وصول رواتبهم .

واضطرت تركيا إلى قبول هدنة مودروس ، وخرجت من الحرب مستسلمة بلا قيد ولا شرط . فطلب القائد العام للقوات البريطانية في عدن

من القائد العثماني في اليمن ومن الوالي ، التسليم والخروج برجالهم من الاقليم .
واتصل في نفس الوقت بامام اليمن ، وأبلغه ضرورة جلاء القوات العثمانية
وإدارة هذه الدولة من بلاده . وحاول كل من الامام والقائد العثماني
الاتصال بالدولة العثمانية ، وإبقاء القوات والادارة في اليمن . ولكن القيادة
البريطانية أصرت على ضرورة تسليم الاسلحة ، والانسحاب والجلاء . فقرر
القائد العثماني ترك أسلحته وذخائره ومعداته لليمنيين . وقبل أن يستقل مع
جنوده البواخر التي نقلته الى مصر نشر بلاغا مؤكدا نهاية الحرب وشارحا
أن سبب الانهزام هو إعلان اخوانهم العرب من أهل الحجاز وفلسطين
وسوريا والعراق الحرب على الدولة واشتراكهم مع العدو : (فنحن مجبورون
على التخلي عن اليمن ، وأهل اخواننا المجاهدين ، الذين اشتركوا معنا في
الجهاد منذ أربع سنين . ومع أننا كنا على استعداد لبذل أرواحنا ودمائنا في
في سبيل المحافظة على تربة اليمن المقدسة الا أننا مضطرون للتقيد بتعهدات
حكومة الآستابة وأوامرها ... وعلى كل فأننا نتمنى ، ونحن نغادر اليمن
مضطرين لـاخواننا في الدين ، الانحداد والاتفاق التام ، وأن يقاوموا استيلاء
الأجانب ويصدوهم من بلادهم ، فيكون في ذلك عزاء لنا .

ودخل اليمن في طور جديد من أطوار تاريخه وأصبح على الامام أن
يقف وحده أمام الاطماع الاستعمارية الأوربية ، وبخاصة اطماع البريطانيين
وأطماع الايطاليين .

٣ - التنافس الانجليزى - الايطالى :-

كانت البحرية البريطانية قد هاجمت ثغر الحديدة واحتلتها قبيل نهاية

الحرب ثم سلمته إلى محمد علي الأدريسى الذي اشترك في العمليات الحربية إلى جانب « الحلفاء » رغم أن الحديدية هي ميناء صنعاء الطبيعي . فجاء هذا العامل مضافا إلى الأطماع التوسعية البريطانية في الجنوب العربي لكي يصنع المصالح اليمنية في تضارب واضح مع الخطط البريطانية .

ورغم ذلك فإن السلطات البريطانية في عدن حاولت جذب الامام يحيى إليها معتقدة في مرونته وفي سهولة اغرائه أو الضغط عليه . فلم تعامله على أنه حليف للدولة العثمانية ، واعتبرت أن موقفه في الحرب كان هو موقف الحياد . ثم أرسلت إليه هدية باسم الملك جورج الخامس ، هي سيارة فاخرة في عام ١٩١٩ . وعادت في عام ١٩٢١ . وأرسلت مساعد المقيم السياسي في عدن يحمل الهدايا للامام ويغني الوصول إلى تسوية المشكلات المتعلقة بشأن الحدود مع المحميات في الجنوب ويهدف إلى الاتفاق والصداقة بين القوتين المتعارضتين . ولكن هذه البعثة لقيت المصاعب في الطريق بين الحديدية وصنعاء واحتجزها الأهالي في الأسر مدة ثلاثة أسابيع اضطرت بعدها إلى العودة فاشله إلى عدن . فواصلت بريطانيا مجهوداتها وأرسلت بعثة جديدة في عام ١٩٢٣ طلبت إلى الامام عقد معاهدة صداقة مع سلطات عدن . فاشتراط الامام لبدء المفاوضات أن تقوم السلطات البريطانية أولا بأن تعيد إليه ثغر الحديدية مع المناطق المجاورة له لأنها من أراضي اليمن ، ولأن الحديدية ثغر صنعاء الطبيعي ففشلت هذه البعثة كذلك .

وتوفي محمد علي الأدريسى سنة ١٩١٤ وقام نزاع بين ابنه علي وبين أخيه الع حسن على الأمانة . فانهزت اليمن هذه الفرصة وزحمت قواتها واحتلت ثغر

الحديدة وجزء كبير من السهل الساحلى للعسير . ولم يوقفها إلا تدخل السعوديين فى أمر هذا الاقليم .

واعتقد البريطانيون أن استيلاء اليمن على الحديدة يقضى على الخلاف القائم ويمهد الطريق للوصول الى اتفاق مع الامام يحيى . فأرسلوا السير جلبرت كلايتون إلى صنعاء لمحاولة اقناعه بضرورة التفاهم مع بريطانيا والوثوق بها مثلما فعل معظم الأمراء العرب ، ولكن الإمام يحيى اشترط إعادة المحميات إلى اليمن ، باعتبارها جزءا من أراضيه ، واستنادا إلى أن أئمة اليمن لم يعترفوا بالاتفاقات البريطانية مع المشايخ المحليين ، ولا باتفاقاتهم حتى مع الدولة العثمانية . ومكثت هذه البعثة ٢٦ يوما فى صنعاء وتأكدت من فشل كل مجهوداتها . وثارَت مشكلة العسير حين إلتجأ الحسن الأدريسى إلى نجد وطلب حماية عبد العزيز آل السعود . ومن الطبيعى أن يحاول الامام يحيى الربط بين الأطماع البريطانية فى الجنوب ، وفى العسير ، وبين حماية السعوديين للإدارة ، خاصة وأن جلبرت كلايتون هو الذى سوى مشكلات السعوديين مع كل من العراق وشرق الأردن ، وهى مناطق تفوذ بريطانية فاتجه الامام إلى دولة أوربية أخرى إزداد نفوذها قرب بلاده فى السنوات الاخيرة ، وظهر أنها تنافس بريطانيا منافسة لا غبار عليها ، وكانت هذه الدولة هى إيطاليا التى غيرت سياستها نتيجة لوصول موسوليني على رأس الحزب الفاشستى إلى الحكم .

وجدت إيطاليا أن بريطانيا قد مهدت الطريق لها فى اليمن وذلك بموقفها فى مسألة الحدود الجنوبية وفى مسألة العسير . ورأت إمكانية مد نفوذها على السواحل الشرقية لجنوب البحر الأحمر فى نفس الوقت الذى تحكم فيه

الارتريا ، على الساحل الأفريقي ، مما يساعدها على التحكم فى خطوط المواصلات الدولية بين الشرق والغرب عند باب المندب . فأسرت بإرسال حاكم عام الارتريا ، مندوبا فوق العادة وسفيراً ، فى زيارة رسمية لليمن فى أواخر شهر أغسطس سنة ١٩٢٦ . فأكرم اليمنيون استقباله ، ووقع الامام يحيى معه فى ٢ سبتمبر على معاهدة فائقة الأهمية ، إذ أنها كانت أولى المعاهدات الدولية التى اعترفت « بمملكة اليمن » وباستقلالها وكمال سيادتها وتعهدت فيها إيطاليا بعدم التدخل فى شؤون اليمن . ولكن كل من الطرفين تعهد فيها بتسهيل التبادل التجارى مع الطرف الآخر . والواقع أن هذه المعاهدة جعلت من اليمن منطقة نفوذ إقتصادية للإيطاليين ، وصرحت فيها الحكومة اليمنية برغبتها فى استيراد البضائع والآلات والفنيين من إيطاليا ، وتعهدت فيها الحكومة الإيطالية بارضاء رغبات الحكومة اليمنية فى أقرب وقت وبأنسب ثمن . وربطت هذه المعاهدة بين الدولتين لمدة عشر سنوات .

ولكن الأمور سارت بسرعة فنجد من ناحية أن عبد العزيز آل سعود قد عقد معاهدة الطائف مع السيد حسن الإدريسي فى أكتوبر سنة ١٩٢٦ ووضع بها إقليم العسير تحت الحماية السعودية ، وأبلغ هذه المعاهدة للامام يحيى ، الذى اضطر الى اصدار أمره الى قواته فى هذا الاقليم بعدم التوغل شمالاً ، والوقوف فى الأماكن التى تحتلها .

وإشتد النزاع بين البريطانيين واليمنيين من ناحية أخرى بشأن الحدود ، خاصة وأن قوات الإمام كانت قد دخلت أمارت الضالع ورفضت تركها رغم اصرار بريطانيا على أنها تحت حمايتها . فأخذت طائرات سلاح الطيران البريطانى تضرب الأهالى اليمنيين فى مناطق الحدود ارباباً للوطنيين الذين

فقدوا كثيراً من القتلى ، ومن بينهم النساء والأطفال . وزاد شعور بريطانيا بالمهانة بعد أن أجبرتها روما على الاعتراف في شهر يناير سنة ١٩٢٨ بأن اليمن منطقة نفوذ اقتصادي للايطاليين لا يزاحمهم فيها مزاحم ، فأسرفت القوات البريطانية في انتقامها من اليمنيين ، مما أثار ثائرة الرأي العام في البلاد العربية ووصل الأمر الى مناقشات في مجلس العموم البريطاني . وتدخل سلطان لحج للوساطة فقامت الهدنة . وبعد محاولات طويلة تمكن البريطانيون من عقد معاهدة مع اليمن في ١١ فبراير سنة ١٩٢٤ . وكانت معاهدة « صداقة » ، اعترفت فيها بريطانيا باستقلال اليمن وتعهد فيها الطرفان بالعمل على سيادة السلم بينهما . ولكن المعاهدة أجلت البت في مسألة الحدود الى أن تتم مفاوضات خاصة بشأنها ، وفي انتظار ذلك تعهد الطرفان بابقاء الحالة القائمة على ما هي عليه ، وقت التوقيع على المعاهدة ، ومنع قوانينها من تخطى هذه الحدود ، ومنع تدخل كل منهما في شئون الاخرى في الجانب الاخر منها . وكانت المعاهدة صالحة لمدة ٥ سنة . فبقيت مشكلة الحدود معلقة ، ولا تزال معلقة حتى الان

ولم تتمكن هذه المعاهدة من أن تجدد من ازدياد النفوذ الايطالي في اليمن رغم أنها كانت دعامة للمملكة اليمنية في مسألة الاعتراف باستقلالها في المحيط الدولي . وكانت هذه المملكة مهددة فعلاً وقت التوقيع على المعاهدة بزحف قوات السعوديين عليها من الشمال ، بل لا نستبعد أن الامام قد وقعها مع بريطانيا لكي يغلق باب المشكلات الجنوبية مؤقتاً حتى يتفرغ للمشكلات الشمالية ، مع جيرانه المسلمين .

٤ - الفزو السعوى :

بدأت المشكلات بين اليمن والسعوديين فى الوضوح عندما أبلغ عبد العزيز بن عبد الرحمن معاهدة الحماية التى عقدها مع الادارة الى الامام يحيى . وكانت حكومة اليمن تعتبر هذه المنطقة تابعة لها ، وتألم الإمام يحيى من قبول ابن سعود وضع الادارة تحت حمايته ، بعد الدور الذى لعبوه فى أثناء الحرب إلى جانب الانجليز وضع دولة الخلافة الإسلامية . وكان ابن سعود قد بدا يحسب للسياسة وشئون الحكم حسابها ، مقللاً بذلك من قيمة عامل الاخلاص المطلق للمبادئ الإسلامية ، خاصة وإن وضعية القوى الإسلامية كانت قد تغيرت - من الناحية السياسية - بعد الحرب . ولكنه حاول إزالة ما بنفس الإمام يحيى وحاول الوصول معه إلى تفاهم ، يستند إلى الإسلام من ناحية ، ويستند إلى الظروف السياسية والاستراتيجية بل وشئون الحكم الزمنى من ناحية أخرى . وأثبت بذلك أنه لا يزال مخلصاً للروابط الإسلامية ، رغم اهتمامه بشئون الحكم الزمنى .

فأرسل عبد العزيز بن عبد الرحمن وفداً إلى اليمن لمحاولة الوصول إلى تسوية ، ولكن وجهات النظر كانت متباعدة بين الطرفين : إذ أصر اليمنيون على أن إقليم العسير هو جزء من بلادهم ، وأنه ليس للادريسي أى حق فيه وأن الإمام لا يوافق على التنازل عنه أو الاعتراف لأية حكومه أخرى باعلان سيادتها عليه ، بينما أصر السعوديون على أن إقليم العسير لا يدخل فى نطاق اليمن ، وبالتالي ليس لائمة الزيدون أى حق فيه ، بل هو إقليم متميز داخل حدود واضحة ، وكان تحت سلطة الادارة الفعلية ، وانتقل إلى

سيادة السعوديين، فطالبوا بالاعتراف بهذه الحقوق وبجلاء اليمنيين عن المناطق التي يحتلونها في الاقليم . ففشلت المفاوضات .

واضطر عبد العزيز آل سعود إلى إرسال وفد جديد إلى صنعاء لمحاولة عقد اتفاق ينص على الاحتفاظ بالحالة الراهنة على الحدود ، ومحاولة الوصول إلى أسس ترمم عليها الحدود فيما بعد بشكل نهائي . ولكن هذا الوفد فشل كذلك في مهمته نظراً لأنه أصر على ضم كل اقليم العسير بل ومنطقة نجران أيضاً إلى سلطة السعوديين . وأرسل إمام اليمن وفداً ثالثاً إلى مكة . ولكنه فشل بدوره نتيجة لتشبث السعوديين بموقفهم في إقليم العسير ، وإن كانوا قد أدوا للإمام يحيى عدم طمعهم في بلاد اليمن ، وملك اليمن . فظهر الموقف في شكل أزمة بين قوتين عربيتين اسلاميتين . ولا يمكن لأحد أن يفيد منها إلا الخصوم والاعداء . فقامت محاولات للتقريب بين وجهات النظر ، وسافر وفد من القاهرة الى صنعاء برئاسة أحمد زكي باشا وحاول اقناع الإمام يحيى بالاتفاق مع السعوديين لحسير العروبة والاسلام . ورغم توتر الموقف نتيجة لتوغل بعض مشايخ الزيدية ووعظهم لمذهبهم في العسير ، فقد اتفق الطرفان في شهر ديسمبر سنة ١٩٣٣ على المحافظة على الصداقة وحسن الجوار . واشتملت هذه الاتفاقية على تسليم المجرمين السياسيين وغير السياسيين من الطرفين ، ومعاملة كل حكومة لرعايا الحكومة الأخرى طبقاً للأحكام الشرعية ، ومنع الأمراء والعمال من التدخل بما قد يحدث القلق ويوقع سوء التفاهم بين الدولتين . فظهر أن كل من الحكومتين السعودية واليمنية تسعى الى تثبيت دعائم حكمها في المناطق الخاضعة لها وتنتظر من الحكومة الأخرى نفس المعاملة .

ولكن تطور الأمور داخل أراضى السعوديين أنفسهم أدى الى نقض هذا

الاتفاق الذي كان يتعارض مع واجب العرب لحماية المستجيرين بهم . فقد حاول أحد رؤساء العرب أن يهاجم السعوديين في الحجاز (ابن رفادة) والتجأ بعض رجاله ، ، بعد فشله ، الى اليمن ، ثم أعلن الادارة الثورة على السعوديين والتجئوا الى امام اليمن كذلك . وحين طلبت السلطات السعودية تسليم اللاجئين أجابت حكومة صنعاء بأنها ستحدد مكان اقامتهم وتمنعهم من القيام بأي نشاط . فما كان من ابن سعود الا أن أعلن إلغاء امارة الادارة وضم اقليمها الى مملكته . وصمم على تسوية المشكلات المتعلقة مع اليمن بشكل نهائي . فاقترح تثبيت الحدود بين البلدين بشكل لا يحتمل التأويل والشك ، والاتفاق على التساند والتعاقد في سائر المواقف الدولية ، سواء داخلية أو خارجية وتحديد صلات الأمراء والعمال على الحدود والرجوع الى الملكين شخصيا في المسائل الهامة ، وتعهد الطرفين بأن يصبح أمرهما واحداً وكلمتها واحدة وعائلتيها كأنهما واحدة .

ووافق الامام يحيى على بدأ المفاوضات على هذه الأسس ولكن هذه المفاوضات كانت بطيئة . وحاول اليمنيون فيها أن يعيدوا إثارة مسألة الادارة وحقوق اليمن في اقليم العسير كله ، بينما رفض السعوديون مناقشة مسألة اعتبارها منتهية ، وذهبوا الى أن رفضوا الاعتراف بدخول منطقة نجران نفسها داخل حدود اليمن . وضاق صبر السعوديين فاتهموا اليمنيين بالمطالبة والتسويق في المفاوضات وتدخل عبد العزيز آل سعود بنفسه واقترح جعل منطقة نجران منطقة حياد بين الطرفين ولكن الامام يحيى رفض هذا الاقتراح فقرر عبد العزيز بن عبد الرحمن استخدام القوة كوسيلة للضغط على اليمن ، وأصدر أمره بتحريك قواته وتجمعها في منطقة العسير . وادي التسويف

من جانب ، والرغبة في الوصول الى حل سريع من جانب آخر ، علاوة على تشبث كل من الطرفين بحقوقه الاقليمية في منطقة العسير الى اعلان الحرب في ٢٢ مارس سنة ١٩٣٤ ، أي بعد أشهر من عقد الإمام لمعاهدته مع البريطانيين .

ولا يمكننا أن نقارن في هذه الحرب بين القوات الحربية لكل من الطرفين اذ كانت الغلبة مؤكدة للسعوديين . أما الدول الأوربية فأنها لم تتدخل في النزاع . فنجد أن بريطانيا قد اظهرت عطفها على السعوديين وأرسلت احدي سفنها الحربية الى ميناء الحديدة بعد أن دخلتها قوات السعوديين كما أرسلت طائراتها الى جزيرة القمران بدعوى حماية أرواح رعاياها . ولكن حكومة لندن أعلنت حيادها في الحرب السعودية اليمنية مدعية أن لها علاقات ودية مع الفريقين المتحاربين . أما ايطاليا فقد ظهر أنها تعطف على اليمنيين ، وأرسلت إحدي بوارجها للحديدة وحاولت إنزال بعض قواتها . ولكن السعوديين منعوها من ذلك . فأعلنت الحكومة الايطالية أمام توغل السعوديين أنها لا توافق على سقوط اليمن في يد حكومة غير يمنية .

ولقد اتخذ الامام يحيى في هذه الحرب موقفاً واضحاً بسيطاً هو إصدار الأمر إلى قواته بعدم الالتحام مع السعوديين ، وأعلن أنه لا زال محافظاً على السلم والصداقة مع أخيه الملك عبد العزيز واتصل بالهيآت العربية والاسلامية وبالمجلس الاسلامي الأعلى في فلسطين وطلب منه التدخل وارسال رجل للوساطة فأرسل المجلس الاسلامي وفداً ضم هاشم الاتاسي (عن سوريا) ومحمد علي علوبة (عن مصر) وشكيب ارسلان (عن لبنان) والحاج أمين الحسين (عن فلسطين) . وترك هذا الوفد السويس يوم ١٢ ابريل الى جدة للوساطة في الصلح .

وقبل وصول الوفد كانت قوات السعوديين قد توغلت جنوباً بقيادة الأمير سعود بن عبد العزيز ، فأبرق الامام يحيى إلى الملك عبد العزيز : (يكفى ماقد كان ، ونعوذ بالله من شرور المتربصين بالإسلام الدوائر لتحقيق مطامعهم ووافق الملكان على المفاوضة ، على أساس انسحاب الجنود اليمنية من منطقة نجران ، وإعادة اللاجئين والادارة إلى السعوديين .

وبدأت المفاوضات بين الطرفين وفي حضور وفد المؤتمر الاسلامى وانتهت بعقد معاهدة الطائف في ١٢ يونيو سنة ١٩٣٤ ، وانتهت بذلك حالة خطرة بين قوتين عرييتين اسلاميتين وتذكر « مقدمة » المعاهد أن الملكين... « رغبة منهما في انهاء حالة الحرب التي كانت قائمة لسوء الحظ فيما بينهما وبين حكومتيهما وشعبيهما ، ورغبة في جمع كلمة الأمة الإسلامية العربية ورفع شأنها وحفظ كرامتها واستقلالها .

« ونظرا لضرورة تأسيس علاقات عهدية ثابتة بينهما وبين حكومتيهما وبلادهما على أساس المنافع المشتركة والمصالح المتبادلة ، وحباً في تثبيت الحدود بين بلديهما وانشاء علاقات حسن الجوار وروابط الصداقة الإسلامية فيما بينهما وتقوية دعائم السلم والسكينة بين بلديهما وشعبيهما .

« ورغبة في أن يكونا عضداً واحداً أمام الملهمات المفاجئة وبنينا مترابطين للمحافظة على سلامة الجزيرة العربية - قررا عقد معاهدة صداقة اسلامية وأخوة عربية فيما بينهما » .

فانتهى خطر الغزو السعودى لليمن ، وتحالف هاتان القوتان تحت راية العروبة وفي ظل الإسلام .

هـ — العزلة والاحتفاظ بالوضع القائم :

كانت معاهدة الطائف بين المملكة السعودية والمملكة المتوكلية نقطة هامة في تاريخ كل منهما ، وفي تاريخ علاقاتهما ببعضها وبقية الدول العربية . وجاءت لتدعم سلطة « الدولة السعودية في اقليم العسير ، واعترف السعوديون فيها من ناحية أخرى باستقلال اليمن وتمايم سيادته . فهي معاهدة تتم ، من وجهة نظر السعوديين الاتفاقات التي عقدت لرسم الحدود مع كل من العراق وشرق الأردن في الشمال ، ونجد من ناحية أخرى أنها أظهرت اليمن في شكل دولي واضح متميز عن غيره من الوحدات الدولية العربية . أي أنها معاهدة تقوم بدورها في عملية تقسيم العالم العربي إلى دول ، وتمهد بذلك لنشوء « قوميات » « عربية » « محلية » داخل هذه الاطارات الجديدة .

وجاءت هذه المعاهد لكي تتم المعاهدتين السابقتين التي عقدهما اليمن مع كل من إيطاليا سنة ١٩٢٦ ومع بريطانيا سنة ١٩٤٤ ، وإذا كانت الصداقة الاسلامية والأخوة العربية قد سادت بين اليمن والمملكة العربية السعودية ، فإن اليمن لم يعترف بحق البريطانيين في البقاء في الجنوب العربي . ولذلك فانه اضطر إلى الاحتفاظ بصداقته لإيطاليا ، وكان مضطراً لذلك أمام تهديد الاستعمار البريطاني وتعديه على حقوق العرب ، خاصة وأن الإيطاليين لم يحتلوا أية مناطق من اليمن ، بل كان تفوذهم تفوذاً اقتصادياً ، وأمدوا ~~ال~~ بعض ~~ال~~ المعونات الفنية والاقتصادية .

ولقد حاول البعض أن يرى في بقاء العلاقات الينية الإيطالية في مستوى التعاون الاقتصادي دليلا على ميل الإمام يحيى إلى زعماء الفاشستيين ، وعلى وضعه لبلاده داخل منطقة نفوذهم الاقتصادي . وساد هذا الاعتقاد وأصبح وسيلة لمهاجمة إيطاليا نفسها ونفوذها في البلاد العربية وخاصة بعد أن بدأت إيطاليا تحقق أطماعها الاستعمارية في المناطق القريبة من البلاد العربية سواء أكان ذلك في حوض البحر الأبيض المتوسط أو في الحبشة . ذلك أن موسوليني قد عمل بالفعل على زيادة سيطرته في حوض البحر المتوسط ، وعمل على احتلال الحبشة وضمها للإمبراطورية الإيطالية في شرق أفريقية . ومع هذه العمليات الإيطالية ظهرت المطامع الإيطالية واضحة في مصر وفي فلسطين ثم في السودان واليمن . وجاءت صيحات التحذير للإمام يحيى بشكل خاص من البلاد العربية التي يتفوق فيها النفوذ البريطاني والاختلاص والولاء للصداقة البريطانية . فكانت أكثر ارتفاعا في العراق عنها في بقية البلاد العربية ولكن نظرة واحدة إلى قيمة التبادل التجاري بين اليمن وإيطاليا تثبت أن اليمن لم يصل إلى مرحلة الوقوع تحت براثن « الاستغلال » الإيطالي . كما أن نظرة ثانية لعدد الإيطاليين في اليمن ومشاركة اليمن في الأحداث الدولية تثبت أن اليمن لم تكن منطقة نفوذ سياسي إيطالي فلم يقم اليمن بمحاولة اخراج البريطانيين من الجنوب العربي ولم تتعد المسألة إذن استناد الإمام يحيى إلى نفوذ إيطاليا حتى يتمكن من الاحتفاظ بموقف « الدفاع » عن بلاده أمام الاطماع التوسعية البريطانية ، أي الاحتفاظ بالوضع القائم ، مستوى الصفر ، بدلا من أن تتفرس فيه بريطانيا وتنخفض حالة بلاده ووضعها الدولي إلى ما تحت الصفر .

وحينما انتهت صلاحية المعاهدة اليمنية الإيطالية سنة ١٩٣٦ وافق الامام يحيى على تجديدها، مما أثار نائرة بريطانيا ضده، ومما ساعد على ارتفاع أصوات زعماء العرب في بغداد، أولئك الزعماء الذين مهدوا في ذلك الوقت لتدعيم علاقاتهم مع الامبراطورية البريطانية، وذلك بالدخول في حلف سعد أباد . ولكن الامام يحيى لم يغير موقفه بين الدولتين الاستعماريتين .

واعتقدت حكومة بغداد أن في استطاعتها تقديم المعونة لحكومة اليمن ، وخاصة في النواحي الفنية، وإعداد بعض الضباط اللازمين للجيش اليمني بدلا من ترك هذا الميدان للايطاليين . وكان الامام قد انضم الى ميثاق بغداد الذي نص على التعاون والتآخي بين ملكى العراق والمملكة العربية السعودية . فرحب بهذه المعونة الفنية العراقية ، دون أن يغير من موقفه تجاه بريطانيا ، أو تجاه إيطاليا .

وظل اليمن في عزلة واضحة عن بقية العالم العربى ، وساعدت صعوبة المواصلات وقلة التعليم على تمهله في هذه الحالة . وإن كان الامام يحيى قد أحترم الوضع القائم مع البلاد العربية المجاورة ، وبخاصة مع المملكة العربية السعودية ، فانه قد رفض الاعتراف بشرعية وجود البريطانيين في عدن وفي الجنوب العربى . ولم تكن معاهدة سنة ١٩٣٤ إلا عبارة عن هدنة في تلك الجبهة التى أعيد فتحها بعد الحرب العالمية الثانية .

وهكذا نجد أن الإمامة تتحول في اليمن الى دولة وترضى بالاعتراف

بغيرها من القوى العربية الناشئة، ولكنها ترفض الاعتراف بأى حق للاستعمار
فى البقاء فى المنطقة . فكان موقفها راديكاليا واضحا فى علاقتها مع المستعمر ،
وفى احتفاظها بحقوق العروبة الاقليمية على سواحل المحيط الهندي
وإن كان حكمها وعلاقتها بأبناء البلاد لا تمت للقرن العشرين
بكبير صلة .

خاتمة الباب

يمكننا أن نقول أن القوى العربية قد لعبت دوراً هاماً بعد الحرب العالمية الأولى في منطقة شبه الجزيرة. ذلك أنها استندت إلى الإسلام كدعامة أساسية لها وقامت بالتخلص من حكم الهاشميين الذين تحالفوا مع البريطانيين في فترة الحرب .

وكذلك في الجنوب ، فقد وقف عرب اليمن موقفاً ثابتاً في مسألة وجود البريطانيين في عدن ومنطقتها .

ولكن القوى العربية في كل من وسط الجزيرة وجنوبها قد سارت مع تأكيد شخصية كل إقليم عربي حول حاكمه أو ملكه ، أي إلى نمو الأسرة السعودية ونمو الأسرة المتوكلية بشكل أدى إلى فرض هذه الأسرات لنفسها على « الوحدة » العربية ، وإلى ظهور قوميات عربية « محلية » أو « إقليمية » داخل الوطن العربي .

وإذا كانت الطريقة التي تطورها تاريخ الكفاح العربي في هذه المنطقة قد اختلفت عنها في المناطق العربية الأخرى ، فمن الواجب علينا ألا ننسى أن كل من عبد العزيز آل سعود والامام يحيى قد عمل في أراضى لا تخضع للاحتلال الأجنبي الاستعماري . وهذا العامل يضعهم في موضع يختلف عن مواضع غيرهم ، ويساعد بالتالي على وصولهم إلى نتائج عزت على أخوانهم .

الباب الثاني

الهلال الخصيب

إذا كان وسط شبه الجزيرة العربية قد نجا من إحتلال القوات الاستعمارية الأجنبية ، فإن منطقة الهلال الخصيب قد وجدت نفسها في حالة إحتلال فعلي عند نهاية الحرب العالمية الأولى . وإذا كانت القوى العربية الإسلامية قد جاهدت ضد أعوان الاستعمار وحلفائه في شبه الجزيرة ، فإن بقية القوى العربية في كل من العراق وسوريا ولبنان قد وجدت نفسها في أوضاع مختلفة ، وفي ظروف تتحكم فيها عوامل عديدة متباينة . وكذاك اختلفت القيادة الوطنية في هذه الأقاليم عنها في بلاد العرب ، واجهت قوى الاستعمار البريطانية والفرنسية بامكانيات مادية بسيطة ، أثرت بالتالي في ضحالة مكاسبها الوطنية .

الفصل الخامس

العراق

مر العراق بتجربة كاملة مع الإستعمار البريطاني في تلك المرحلة التي حاول بها المشاركة في الثورة العربية والحصول على استقلاله وحرية . وبدأت هذه التجربة بالأطماع التوسعية والتسلطية الإستعمارية ، واستمرت في شكل عمليات حرية استخدمت فيها القوي المادية المتفوقة أمام السلاح القومي المعنوي . وقام شعب العراق بثورة عاتية على قوات الاحتلال ، ولكن ظروفه الداخلية والأحوال المحيطة به تكافت مع الامكانيات الإستعمارية للاحتفاظ بالعراق في موضع التابع الخاضع ، رغم تمتعه (باستقلال) قبل غيره من البلاد العربية .

١ - التطور والانقسام:

ظل العراق حتى الحرب العالمية الأولى يكون جزء لا يتجزأ من أملاك الدولة العثمانية . وكان هذا الإقليم كبير الأهمية بالنسبة للإمبراطورية العثمانية نظرا لأهمية مركزه الاستراتيجي الذي يصل به إلى ميساه الخليج العربي وبالتالي إلى مياه الهند ، ولجأورته للإمبراطورية الفرس . وكان منها بالنسبة لدار الخلافة ما دام أهلها من المسلمين ، وامتاز على ذلك بوجود مراكز الشيعة ومدنهم المقدسة في داخله . ولا يمكن لأحد أن يقلل من أهمية مدن الكاظمية وسمارا والنجف و كربلاء بالنسبة لكل الشيعة . وكانت سيطرة الدولة العثمانية على هذه المراكز تسمح لها بالسيطرة على شئون الشيعة ، وبالتالي

بالتدخل في شئون الفرس نفسها ، ولو عن طريق غير مباشر .

و كانت أحوال العراق الداخلية تشجع الأجانب على الطمع في الإقليم
فع اختلاف الأحوال الجغرافية والمناخية والاقتصادية بين الشمال والوسط
والجنوب ، بين الجبال والوديان والسهول ، اختلفت أحوال معيشة الأهالي
في كل منطقة منها في المنطقة الأخرى . وحاول الطامعون أن يروا في هذا
الاختلاف أساسا للفرقة والتفريق ، ومنفذاً إلى إضعاف الإقليم بتفتيته إلى
وحدات صغيرة ، مستندين في ذلك إلى العوامل الدينية والعنصرية والمذهبية
ورغم أن الوطنيين لم يفتنوا إلى هذه الفروق فإن المستعمر أشار إليها وحاول
إظهارها في شكل واضح خطير : فهناك الأكراد في الشمال وهم من السنين ،
وهناك العرب بعد ذلك . ويمكننا أن نلاحظ وجود كثير من الشيعة ومن
السبئيين . ولا يمكننا أن نغفل اليهود الذين بلغ عددهم جالياتهم ٥٠ ألفاً في بغداد
وحدها في مطلع القرن العشرين . وكان لهذه الجالية وضعاً خاصاً بما لها
من اتصالات تجارية واقتصادية مع جميع أنحاء العالم . وكانت تسيطر فعلاً
على اقتصاديات الإقليم ، ولها اتصالات مباشرة مع مراكز رؤوس الأموال
الغربية في لندن وباريس وبرلين وفيينا . وكانت لها كلمة في الشئون
الثقافية والتعليمية ، وتداخلت مع الفرنسيين في هذا الميدان عن طريق التحالف
الاسرائيلي الدولي الذي تأسس سنة ١٨٤٦ . ولقد بقيت هذه الجالية محافظة
على ميزاتها وامتيازاتها في العراق حتى منتصف القرن العشرين ، حيث صفيت
نتيجة لإنشاء دولة اسرائيل .

رأي المستعمر هذه الفروق الداخلية بين سكان الإقليم ، وبحث بعد ذلك
عن المشكلات التي تفرق بين أهالي العراق وبين جيرانهم في الأقاليم المحيطة
بهم ، سواء أكانت هذه الأقاليم داخل الدولة العثمانية أو خارج حدودها .

ولم يتعب المستعمر في البحث طويلا ، إذ كانت هذه المشكلات موجودة وقائمة بالفعل .

فكانت العراق ، كجزء من أملاك الدولة العثمانية ، على علاقات غير ودية مع دولة فارس التي تجاورها من الشرق . وتكاثفت عوامل متعددة للوصول إلى هذه النتيجة . إذ كانت الدولة العثمانية على المذهب السني بينما كانت الفرس على المذهب الشيعي . وأدى ذلك إلى خلافات وحروب بين القوتين الاسلاميتين . وبينما أخذت الدولة العثمانية في تطبيق نظم الادارة الأوربية الحديثة في ممالكها ، حافظت دولة الفرس على اقطاعية العصور الوسطى . وكانت الحدود غير محددة بشكل قاطع بين الدولتين وخاصة في منطقة شمال العراق ، وهي المنطقة التي يسكنها الأكراد ، وتفصل الحدود فيها بين أهالي يتحدون من كلا الجانبين ، ويبعدون عن عواصم امبراطوريتهم المحترمة . وساد الخلاف بين الدولتين كذلك في جنوبي العراق عند شط العرب ، وحول الجزر الموجودة في الخليج العربي . وأدى ذلك الخلاف إلى اضطراب الأمن في هذه المناطق المطلة على مياه الهند ، وانتهزت بريطانيا الفرصة ، ووضعت سفينة حربية أمام شط العرب منذ سنة ١٨٩٨ . وكان مجيء الشيعة الفرس للحج إلى المدن المقدسة في العراق مورداً للعمال في هذا الاقليم ، ولكنه كان سببا لنشوء مشكلات أخرى بين الفرس والدولة العثمانية . فاتهمت الحكومة الفارسية السلطات العثمانية بالتحكم في رعاياها ، وناقشت معها اجراءات السفر ورسوم الدخول والحجر الصحي . وخشيت الحكومة الفارسية من مجيء الآراء الحديثة من العراق إلى بلادها الاقطاعية . وعملت الحكومة الفارسية على مناوأة سلطات بغداد وبخاصة في منطقة عربستان والمحمرة التي كان بعض شيعاء العراق يلتجئون إليها إذا ما ساءت علاقاتهم مع حكامها الأتراك

ولقد احتفظت حكومة فارس بهذه المناطق في حالة استقلال اسمي . وكان أهلها من العرب ويمتازون بالتححرر في آرائهم الدينية ، ولكنهم يحافظون في نفس الوقت على نظمهم القبلية .

أما في الغرب فإن جيران العراق كانوا من العرب . ولكن الاختلاف كان واضحا بين الاقليمين . إذ أن الجزيرة العربية كانت لا تخضع إلا للنفوذ العثماني في الوقت الذي خضع فيه العراق لسلطة هذه الدولة . وكانت البلاد العربية لا تزال في عزلة عن غيرها في مطلع القرن العشرين وكانت متأخرة عن العراق من الناحية الحضارية . ويمكننا أن نذكر من جيران العراق الغربيين ومن الشمال إلى جنوب آل الرشيد في شمر ، وآل سعود في نجد وآل صباح في الكويت . وكان النزاع بينهم مستمر . وشهدت هذه المنطقة تغلغل النفوذ البريطاني فيها من الجنوب صوب الشمال في الوقت الذي حاول فيه النفوذ العثماني أن يدعم سلطته متجها من الشمال صوب الجنوب .

ورأي المستعمر كذلك الفروق بين أهل الحضر وأهل البادية . وبين ذوي الثقافة التقليدية وأنصار الثقافة الحديثة . وحاول الافادة من كل ذلك لخدمة أطماعه الاستعمارية .

فبينما كان المجتمع العراقي في مطلع القرن العشرين هو مجتمع تقليدي في مجموعة ، كان من السهل تتبع وصول الآراء الحديثة التي أتت مع وحدات الجيش الذي ظهر فيها النفوذ الأوربي ، ومع الموظفين من أنصاف المتعلمين على الطريقة الغربية ، والذين حضروا مع أسرهم من القسطنطينية ، وعهدوا بتربية أبنائهم إلى مدارس المبشرين . وأنت هذه الآراء كذلك مع المسيحيين والمرتبطين ببلادهم الأوربية ، واليهود المتصلين بكل أنحاء العالم . فبدأت

الملابس الأوربية في الظهور ، وكذلك الصحف والجرائد والمجلات وزادت الثروة وزادت معها ضرورة إيجاد أبواب جديدة للاتفاق . ونلاحظ أن أنصار الثقافة الحديثة ، رغم انصرافهم عن الآراء التقليدية كانوا مضطرين إلى عدم مواجهتها أو الجرأة على محاربتها ، بل كانوا مضطرين إلى احترامها وعلى أي حال فلا يمكننا أن نقول بأن العراق كان بلدا متقدما في مطلع القرن العشرين ولا أن نضعه على قدم المساواة مع سوريا ولبنان مثلا . فكانت الأوبئة متكررة الظهور ، كما كان الجهل وضعف التغذية والجرائم وعدم استتباب الأمن من الأمور الشائعة فيه . وكانت شوارع المدن ضيقة . مليئة بالقاذورات ، وغير مضاءة . ولكن التطور الطبيعي واصل سيره ، وبدأ عدد من الأطباء والمحامين في الظهور . وكان هذا يدل على ظهور طبقة متوسطة حديثة ، نمت مع السنوات ، وعززتها زيادة الثروة في أيدي التجار . ووصل الأمر بهذه الطبقة الاجتماعية الهامة إلى السيطرة على شئون العراق قبيل الحرب العالمية الأولى . ولكنها كانت طبقة منقسمة على نفسها في الدين والمذهب وأساس التكوين .

وإلى خارج المدن نجد البادية بعشائرها ونظمها وبنائها ومشكلاتها التي تختلف عن حياة العواصم . ولم تشهد البادية وعشائرها إلا لونا سطحيا باهتا من ألوان الحضارة الحديثة . ورأته في امتداد أعمدة التلغراف مثلا في أقاليمها ومرور رجال الضبطية للقبض على المجرمين ، ومجيء بعض التجار لشراء الحبوب .

فيمكننا أن نقول إذن أن منطقة العراق قد بدت أمام المستعمر الأجنبي منقسمة على نفسها تمام الانقسام ، وفي كل ميدان ، وأن حظها من الحضارة

كان حظاً بسيطاً . وكانت تعتمد بشكل عام على الزراعة في الوقت الذي لم تعتنى فيه حكومة القسطنطينية بوسائل الري . فظل المجتمع متخلفاً حتى في مرحلة الزراعة . وزاد تأخر وسائل المواصلات من صعوبات الحكومة ، التي ظهرت في شكل حكومة أجنبية وضعيفة . وكانت حكومة بغداد تعتمد على عدد من أنصاف المتعلمين نظراً لقلّة المدارس ، وسادت فيها الرشوة وعرفت بالفساد وبيع المناصب وبقلّة الكفاءة . وكثيراً ما كان الجنود لا يتقاضون رواتبهم مما يثيرهم ضد الدولة ، وكانت الدولة تعتمد على العراق في التجنيد أكثر من اعتمادها على غيرها من الأقاليم العربية . وعرفت القوات العثمانية في العراق باسم الجيش السادس ولقد حاولت الدولة أن تطبق النظم والقوانين الحديثة ، ولكن العراقيين ، وبخاصة التقليديين ، لم يرضوا بذلك . وحينما حاولت جميع المسلمين حول الخلافة ، وتأييد حركة الجامعة الإسلامية ، اضطرت إلى احتضان السنة ، فتبرم الشيعة . ولا يمكننا أن نتحدث عن نهضة أدبية أو قومية عربية في العراق بنفس الدرجة التي وجدت في لبنان أو سوريا أو مصر . وجاء القرن العشرين لكي يجد العراق نفسه في نفس اللجة وبين نفس الأمواج مع كل من السوريين واللبنانيين .

ولقد استمر التطور التدريجي ، مع بقاء الانقسام في العراق في السنوات المباشرة للحزب العالمية الأولى ، وزادت النتائج السياسية لثورة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ من السرعة النسبية للتطور . فأخذ العراقيون في الاشتراك في الانتخابات وأرسلوا نوابهم للجلوس إلى جانب النواب السوريين في مجلس المبعوثان ، وأخذوا بالتالي في التمرن على الحياة السياسية . كانوا قد دخلوا هذا الميدان لأول مرة ، وظهر بعضهم في جمعية المنتدى العربي ، ولكن تمثيلهم « للرأي العام » العراقي إن جاز هذا التعبير - كان يقل عن تمثيل النواب

السوريين والبنانيين . ذلك أن مجهوداتهم التحررية كانت تلقى معارضة قوية في العراق وخاصة من الجهات « التقليدية » والرجعية . ونظرا لكثرة عدد الضباط العراقيين في القوات العثمانية ، اشترك بعضهم في الجمعية القحطانية . ولقد شارك بعض العراقيين كذلك في الجمعية العربية الفتاة ، ولكن ميلهم كان واضحا نحو حزب الإدارة اللامركزية العثماني ، وساروا بذلك على نفس الخطى التي سار بها زعماء العرب في مصر في ذلك الوقت . ورغم أن هذا الحزب كان يخدم كل من أغراض البريطانيين والحدوي في مصر فإن ميل العراقيين اليه أكثر من ميلهم إلى الجمعية العربية الفتاة لا يعتبر دليلا باهتا على توسع النفوذ البريطاني في العراق في نفس الوقت الذي سيطر فيه على مصر . والمهم هو أن العراقيين قد أخذوا يسعون إلى الاستقلال المحلي باسم العروبة ، وأن هذه الحركة كانت تلقى تشجيعا من السلطات البريطانية في مصر وفي الخليج العربي ، وكانت تخدم المصالح البريطانية بطريق غير مباشر وساعد على هذه الحركة زيادة انتشار الصحف في العراق في هذه الفترة . ولكن مراكز السنة والنفوذ التقليدي واصلت ولائها لفكرة الجامعة الاسلامية ، وعارضت بذلك الحركة التحررية في العراق . وكان هذا الولاء وتلك المعارضة لكل من حركة الجامعة الاسلامية والحركة التحررية ، أقوى بكثير في العراق عما كان عليه في سوريا ولبنان .

وقد أدى التطور في العراق في السنوات السابقة لاعلان الحرب العالمية الأولى إلى ظهور أهمية منطقة البصرة في السياسة العربية ، وإلى نشوء قوة عربية انفصالية . وكان نفوذ السيد طالب النقيب يسود هذه المنطقة ، فأخذ يطالب بالحكم الذاتي ، ووضح نشاطه في اتصاله بالبريطانيين في مصر وقوات

الاستعمار البريطانية في سملا (الهند) . وانصل كذلك آل صباح في الكويت وآل سعود في نجد . وكان يسعى فعلا إلى الاستقلال بجنوب العراق عن الدولة العثمانية ، وفي صداقة مع البريطانيين .

كما أدى هذا التطور إلى ظهور مجموعة من الساسة العراقيين ، كانوا من الشبان ، ومن أبناء الطبقة الوسطى . فنجد العمري وجيلالي والخياط في الموصل ، والنقيب وباش أعيان في البصرة ، والجادر جي (رفعت بك وابنه رؤوف) ، ويوسف السويدي وأبناءه الثلاثة وبابان اسماعيل بك حقي وحمدى بك والباجاجي والدفتري والراوي وحيزري وجميل زادة وخضيرى وأعضاء أسرة شوكت باشا وغيرهم في بغداد .

وكان هذا التطور مع ظهور النزعة الانفصالية مما يخدم الأغراض الاستعمارية في المنطقة ، ولو عن طريق غير مباشر . مادام يسير صوب انقسام المعسكر الاقليمي وتفتت القوى الوطنية . وزاد الطين بلة أن الاطماع الاستعمارية قد زادت وضوحا في ذلك الوقت ، وساعدت بالتالى على تقوية الحركة التحررية والانفصالية . فعملت القوة الوطنية الناشئة على الانفصال عن المجموع وأخذت القوى الاستعمارية في تشجيعها وفي جذبها صوب الخارج .

٢ - المصالح والاطماع الاستعمارية

كانت أحوال العراق الداخلية ، وظروفها المحيطة بها ، مما يشجع الدول العظمى على الإهتمام بالمنطقة . وزاد هذا الإهتمام في العصر الاستعماري الممتد من نهاية القرن التاسع عشر إلى أواسط القرن العشرين ، ثم تدرج الأمر من مجرد الإهتمام إلى نشوء مصالح وبالتالى إلى ظهور الاطماع .

وكانت بريطانيا هي أكثر الدول الأوروبية إهتماما بشئون العراق نظرا

لموقعه الجغرافي وأهميته الاستراتيجية بوقوعه على الطريق البري الموصل إلى الهند . فظهر اهتمام بريطانيا واضحا بشئون الملاحة على الدجلة والفرات منذ أواسط القرن التاسع عشر . وكان مجيء عدد من الشيعة الهنود للحج إلى العراق ، وبقاء بعضهم في مدنه ، وعملهم في التجارة يخلق لبريطانيا مصالحاً ونفوذاً في بلاد الرافدين . وازداد النفوذ البريطاني الاستعماري من الهند في مياه المحيط الهندي والخليج العربي . وأصبحت لبريطانيا كلمة مسموعة حينما أخذت سفنها في المرور ثم في الرسو في هذه المياه العربية . وانتهى بها الأمر إلى عقد الاتفاقيات مع المشايخ المحليين . ولقد وجدت بعض العناصر الثائرة على سلطة الدولة ، وبعض رجال العشائر ، في البريطانيين حامياً ، وفي أموالم عصبا لحركاتهم . وكثيراً ما وصل الأمر إلى تأزم الأحوال بين بريطانيا والدولة العثمانية بهذا الخصوص . وظهر عند نهاية القرن التاسع عشر أن بريطانيا هي الدولة الأجنبية الأولى ، أو هي على رأس الدول ذات المصالح أو ذات الأطماع في العراق . ذلك أن مصالح روسيا كانت بسيطة ، وبخاصة لعدم وجود رعايا من الأرثوذكس في الإقليم . وكانت روسيا تنظر إلى إيران أكثر من نظرها إلى العراق . وأما فرنسا فلم تكن تهتم كثيراً إلا بالنفوذ الثقافي ، وانخفضت أسهمها السياسية والاقتصادية في بلاد الرافدين بشكل واضح ، رغم ازدياد قيمة هذه الأسهم في كل من آسيا الصغرى والشام ولكن النفوذ الألماني قد ظهر في الميدان العراقي واضحا عند نهاية القرن الماضي وجاء من الشمال ومن عاصمة الدولة العثمانية وفي توافق وانسجام معها . وجاء عن طريق البعثات العسكرية ، ومشروع سكة حديد بغداد الذي هدد بوصول برلين بمياه الهند . ولقد كان رد بريطانيا عليه هو عقد اتفاقية سنة ١٨٩٩ مع الشيخ مبارك آل صباح في الكويت .

تبلورت الأطماع الاستعمارية في العراق حول عاملين ، كان أولهما في الوضوح من ناحية التسلسل التاريخي هو الاستراتيجية ، إذ أن المصالح الاقتصادية كانت مركزه في الهند والشرق الأقصى ، وحاولت الدول الاستعمارية أن تستغل العراق في الوصول إلى مستعمراتها في الشرق الأقصى ، وفي استمرار التحكم فيها . ويشتمل هذا العامل على مشروعات الملاحة النهرية ثم مشروعات السكك الحديدية . أما العامل التالي ، ولا يقل أهمية عن سابقه فهو الاقتصاد . وبدأ بأشكال غير مباشرة ، مثل الاهتمام بوسائل الري ، المرتبطة بالزراعة ، وبغلة الأرض ، وبالتجارة ، ثم استمر في مسائل في غاية الوضوح ، وهي البترول . وكانت بريطانيا هي السابقة إلى الميدان وبقوات تفوق قوات منافسيها الاستعماريين .

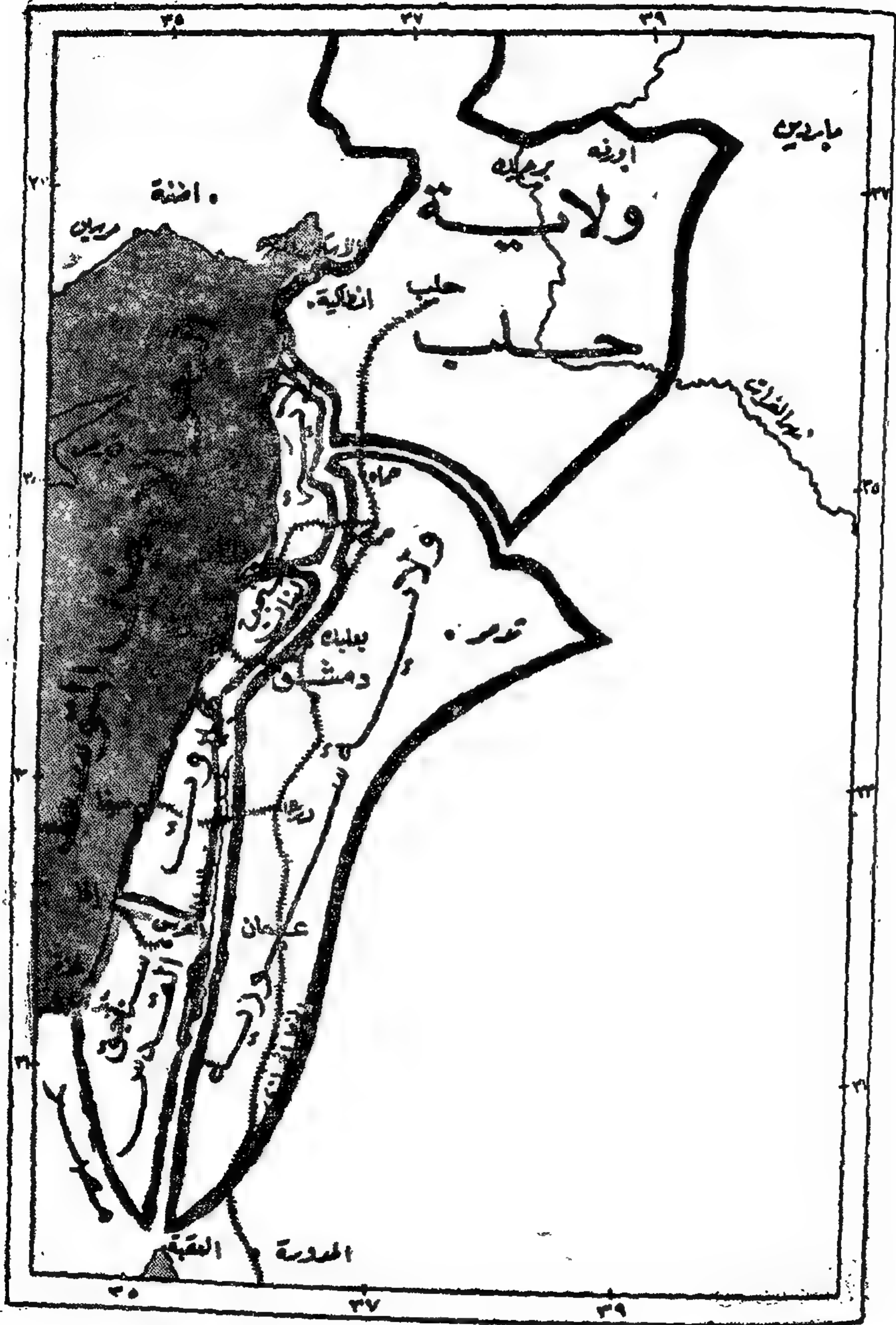
فلقد اعتمد النقل والمواصلات في العراق على القوافل وعلى بعض القوارب ولكننا نجد أن الاهتمام البريطاني قد تبلور ووصل في عام ١٨٢٤ إلى الحصول على فرمان لتأسيس شركة للملاحة النهرية في العراق . ولا يمكننا أن نفصل بين هذا الامتياز وبين الاستعمار البريطاني في الهند من ناحية ، ولا بينه وبين دخول القوات العربية في العام السابق له في سوريا من ناحية أخرى ، خاصة وأن القوات الاستعمارية البريطانية خشيت من ظهور قوة موحدة في الشرق الأدنى ، قد تعمل على قطع مواصلاتها مع الهند ، ووقفت موقف العداء من تجربة محمد علي الاقتصادية التي اعتمدت على تركيز الزراعة والتجارة والصناعة في أيدي الدولة ، معارضة بذلك نظرية حرية التجارة والباب المفتوح التي سارت عليها بريطانيا في ذلك الوقت . ثم تكونت شركة الدجلة والفرات للملاحة البخارية سنة ١٨٦١ في كل من بغداد والبصرة وسيطرت عليها أسرة لينش البريطانية التي عملت على زيادة نفوذها ، ثم تعاونت منذ سنة ١٨٧٩ مع

خريطة رقم (٢)



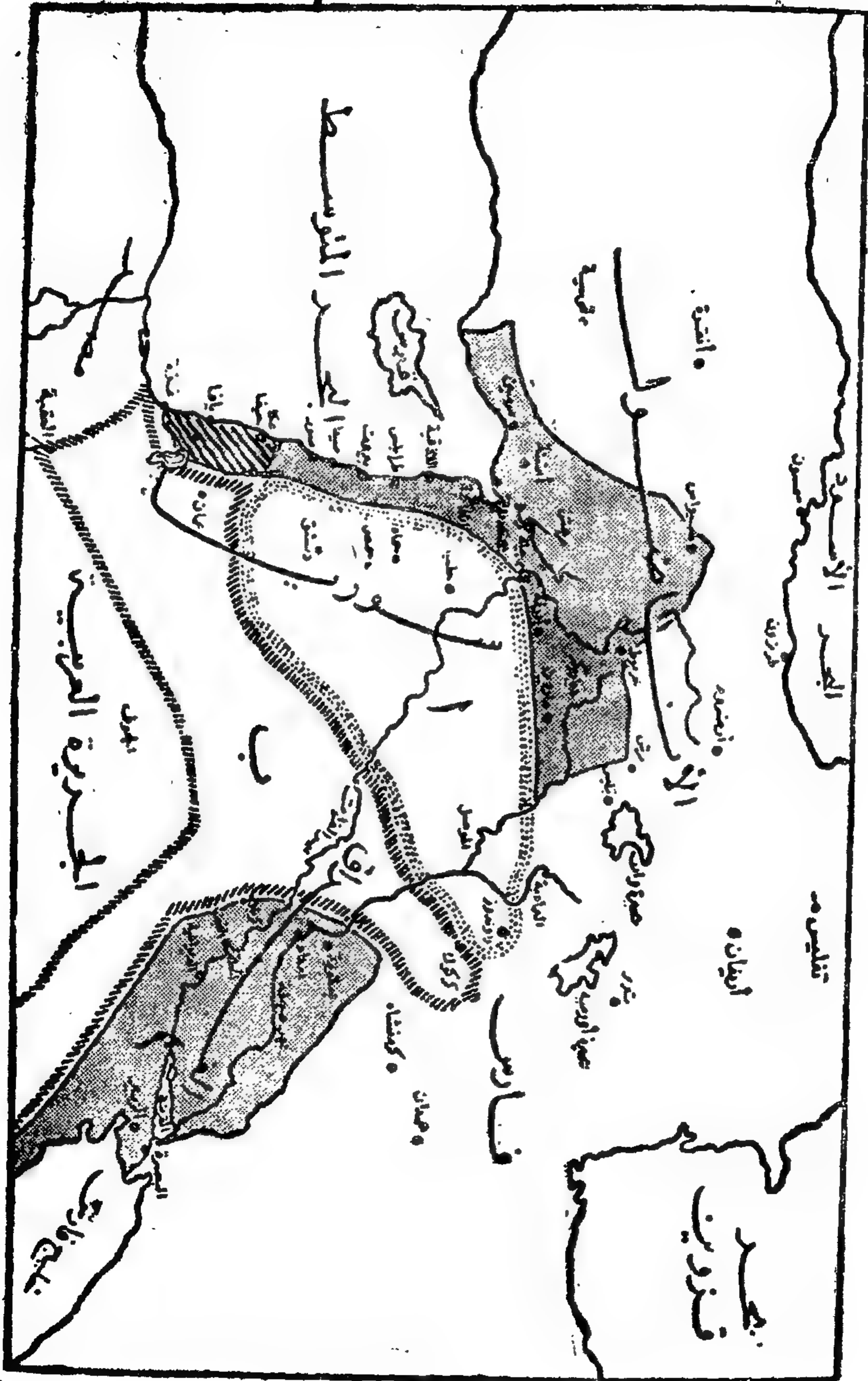
القسم الشرقي من العالم العربي والذي
طالب باستقلاله الشريف حسين بن علي .

خريطة رقم (٣)



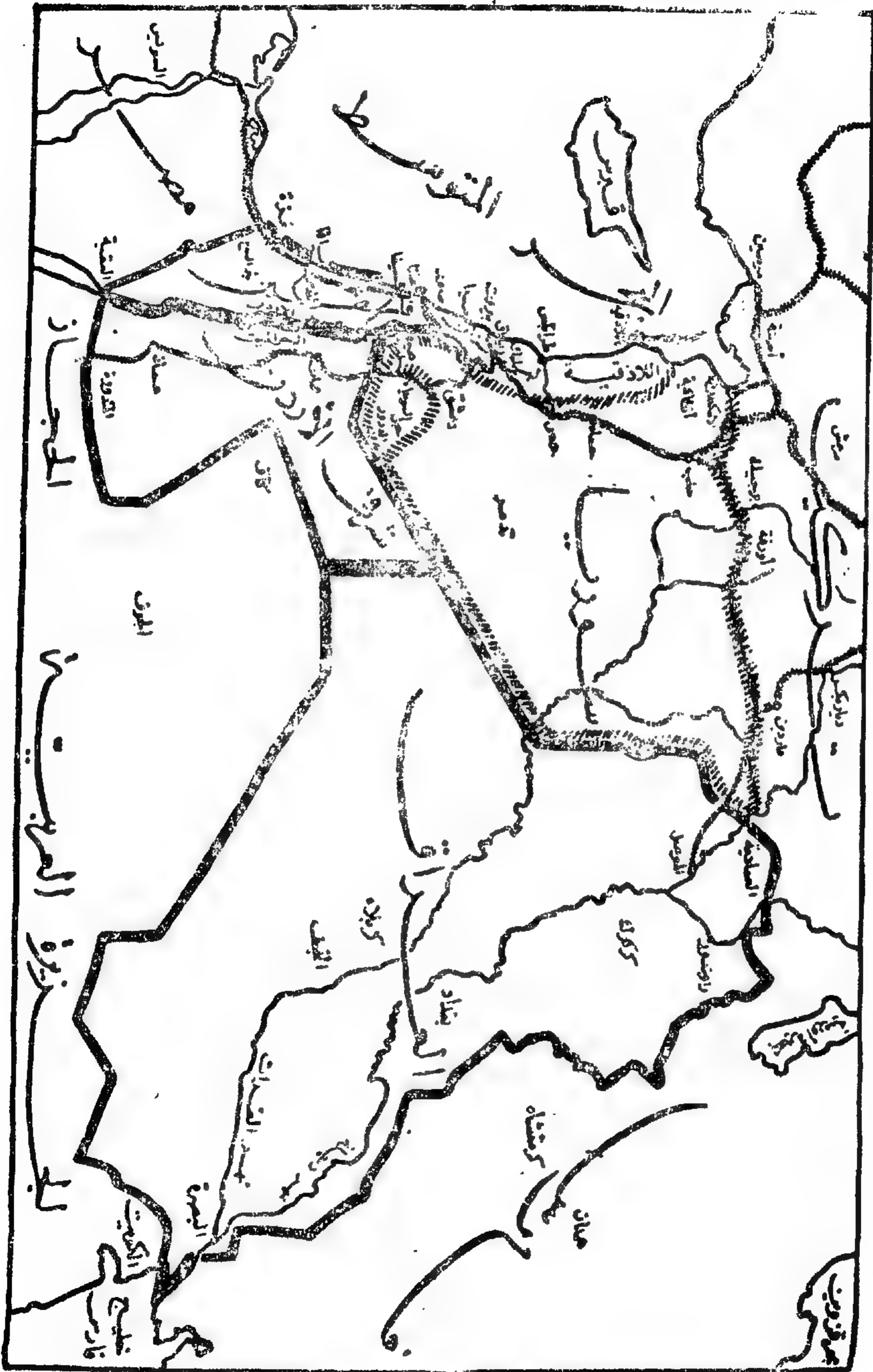
سوريا : تقسيماتها الادارية تحت الادارة العثمانية
عن كتاب جورج أنطونيوس : يقظة العرب : ترجمة الدكتور فاضل الدين الأسد
والدكتور أحمد عباس صفحة ٢٢٢

خريطة رقم (٤)



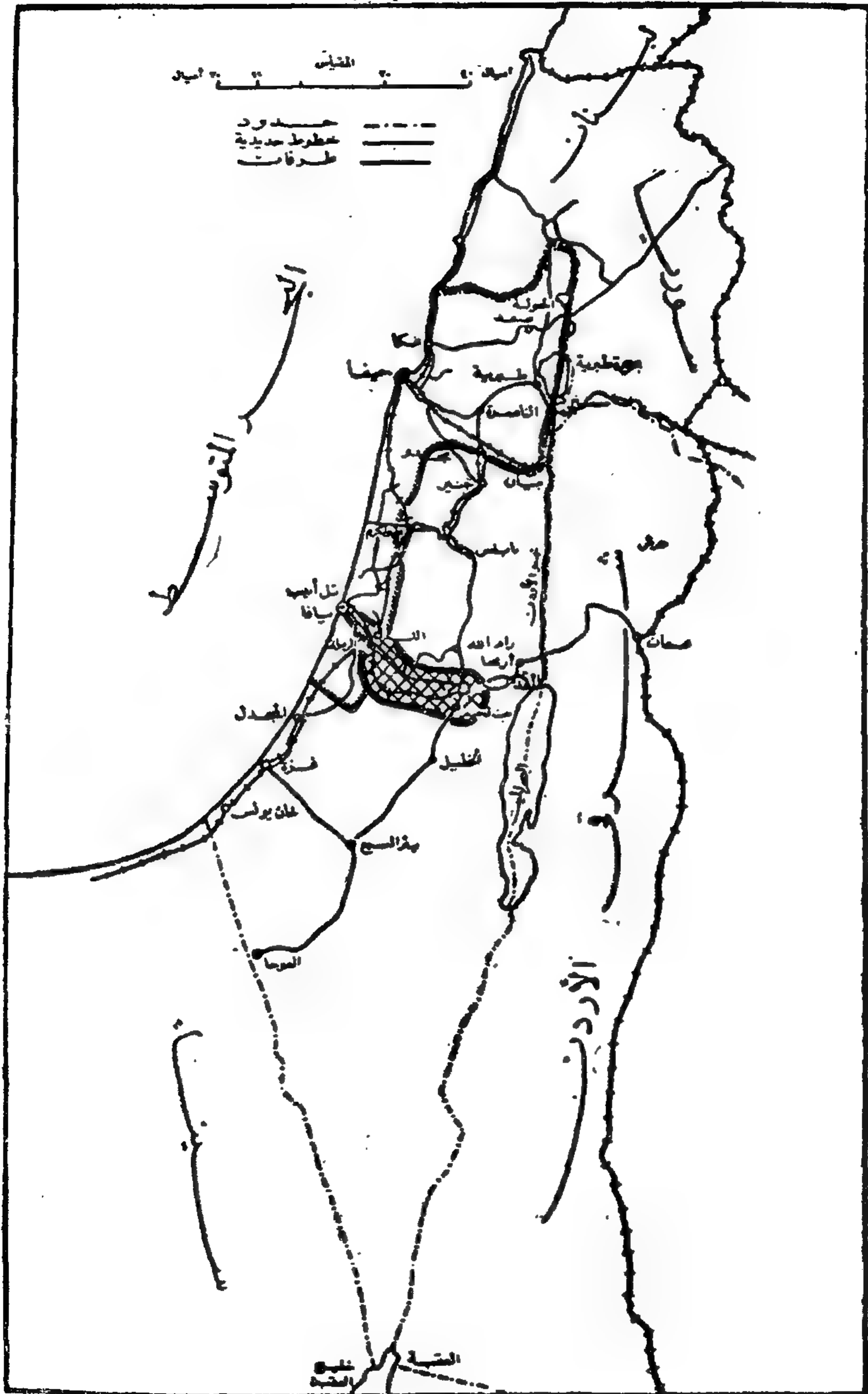
تقسيم بلاد العراق والشام
حسب اتفاقية سايكس بيكو سنة ١٩١٦

خريطة رقم (٥)



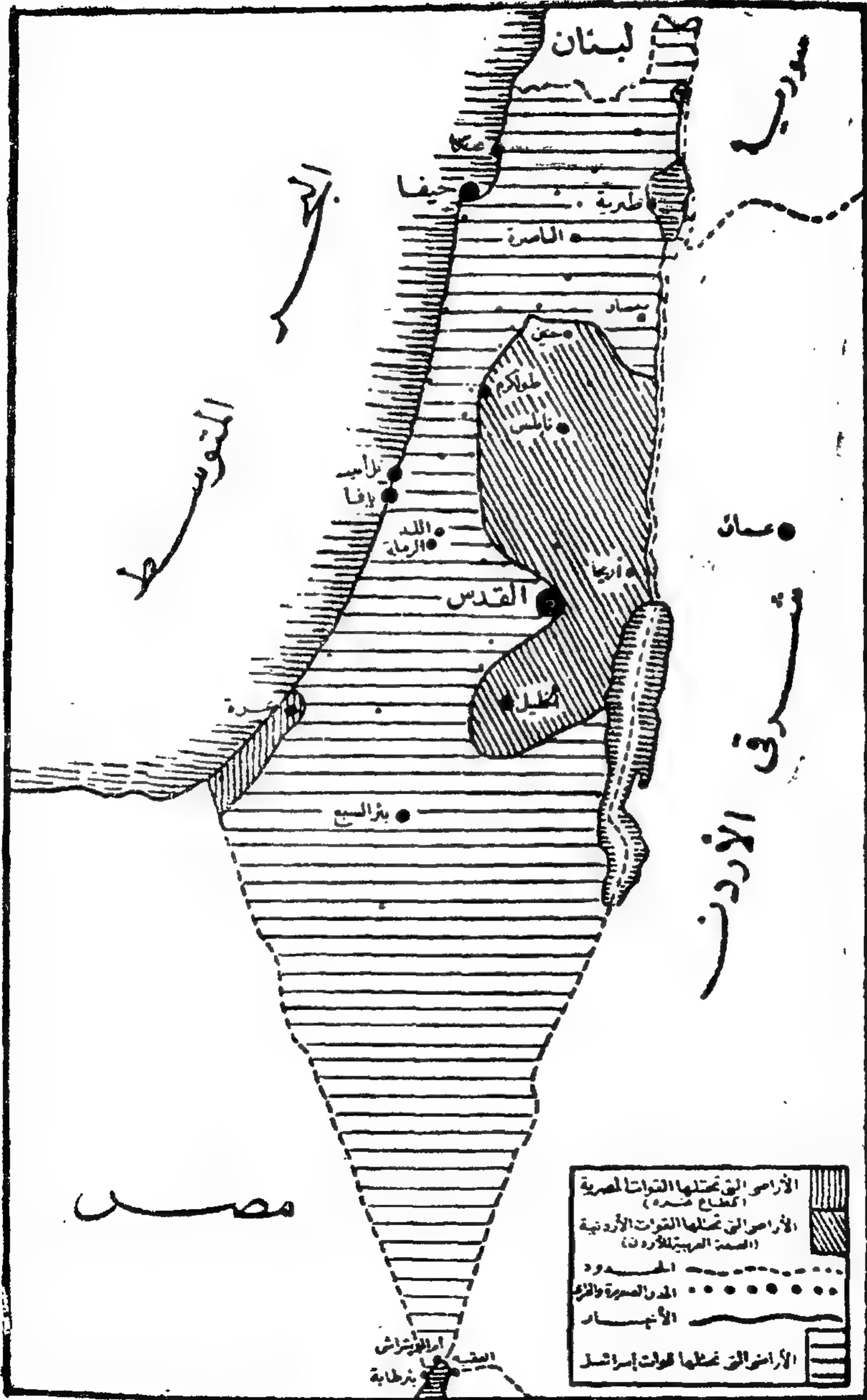
مناطق الانتداب البريطاني والفرنسي
عن كتاب : أكرم زعيتر : قضية فلسطين : دار المعارف : ١٩٥٥

خريطة رقم (٧)



مشروع تقسيم فلسطين
عن كتاب : أكرم زعير : قضية فلسطين - دار المعارف ١٩٥٥

خريطة رقم (٨)



خريطة فلسطين الآن

مع شركة الهند البريطانية للملاحة البخارية . وعملت وزارة البحرية العثمانية من ناحيتها بعد ذلك على توحيد عمليات الملاحة التي يقوم بها الأهالي وذلك تحت إشراف إدارة ملاحة عمان العثمانية ، رغم أن سفنها كانت أصغر حجما من السفن البريطانية . وحاولت الدولة أن تساعد في هذا الاتجاه ، فتقدمت الدائرة السنية في سنة ١٨٩٠ بمشروع لتحسين وسائل المواصلات في العراق وإنشاء دار لصناعة السفن في بغداد . ورغم نجاح مشروع دار الصناعة ، فإن منافسة الشركة البريطانية من ناحية ، وظهور مشروعات السكك الحديدية من ناحية أخرى ، قد تكاثفا على فشل مجهودات الدائرة السنية ولكنها قامت في سنة ١٩٠٤ بشراء سفن إدارة ملاحة عمان العثمانية وأنشأت ماسمته «إدارة الملاحة الحميدية» التي ظهر نجاحها في مدة الخمس سنوات التي عاشتها حتى بدا امام البريطانيين أنها تهدد شركة لينش . فحاولت هذه الشركة البريطانية سنة ١٩٠٥ أن تعيد تكوينها على أساس اشتراك بعض اليونانيين فيها ، ولكن المشروع فشل .

وبعد ثورة تركيا الفتاة قامت الحكومة العثمانية بتحويل سفن «الملاحة الحميدية» من ملكية الدائرة السنية ، إلى ملكية السلطان ، إلى «إدارة الملاحة النهرية» الخاضعة للدولة سنة ١٩٠٩ . وحاولت الإدارة النهرية أن تحسن وحداتها ، ولكنها اصطدمت بصعوبات فنية واقتصادية . فحاولت أن توحد تكوينها مع شركة لينش ، فاصطدمت بالمعارضة في كل من بغداد والقسطنطينية وظهر الخوف واضحا من سيطرة البريطانيين على المجموع . وعقدت الحكومة العثمانية اتفاقا مع بريطانيا في مايو سنة ١٩١٣ نص على اعطاء امتياز لمدة ستين عاما لشركة جديدة تسمى «الشركة العثمانية للملاحة النهرية» وتتكون مناصفة من رؤوس أموال عثمانية وبريطانية . ولكن لينش ظل يواصل نشاطه

وينافس هذه الشركة الجديدة . ولما أعطت شركة سكة حديد بغداد للشركة العثمانية حق نقل جزء من مهاتها ، قام لينش بتقديم الاحتجاج تلو الآخر فدارت المباحث وانتهت الى عقد اتفاقيه جديدة في مارس سنة ١٩١٤ أدخلت مصالح لينش داخل الشركة العثمانية ، ونصت على تكوين شركة جديدة لبناء ميناء البصرة هي « الشركة العثمانية للموانئ » شارك فيها كل من لينش وبعض البريطانيين ، والهند البريطانية ، وشركة سكة حديد بغداد وكانت الحاجة الى نقل مهات السكك الحديدية اللازمة للخط قد أدت إلى إنشاء « الشركة الشرقية للنقل البحري » في عام ١٩١٣ مناصفة بين شركة لينش والبنك الألماني ، وكانت شركة لينش « الدجلة والفرات » تسيطر عليها سيطرة فعلية . فظهر أن النفوذ البريطاني والمصالح البريطانية تزيد عن مصالح كل من الدولة العثمانية والمانيا في هذا المجال . وقامت الحرب العالمية الأولى قبل أن تصدق حكومة القسطنطينية على هذه الاتفاقيات (مايو سنة ١٩١٣ ومارس سنة ١٩١٤) وقبل انتهاء سنة ١٩١٤ نجح البريطانيون في القضاء على النفوذ الألماني بل والعثماني في هذه المشروعات .

وأما عن السكك الحديدية في العراق فقد بدأت مشروعاتها منذ القرن التاسع عشر ، في الثلاثينات ، مع مشروع شسني ، وفي الخمسينات مع مشروع أندرو ثم مع مشروعات فون برسل النمساوي ، وتوتيني الايطالي وجوتار الفرنسي وكابنست الروسي . ولقد قامت محاولة لإنشاء شركة محلية للسكك الحديدية بين بغداد والحائقي في الثمانينات ، ولكنها فشلت نتيجة للصعوبات المالية وكذلك فشلت المحاولة الثانية سنة ١٨٩٠ . ولكن الحديث عن سكة حديد بغداد قد بلغ أقصاه في نهاية القرن الماضي ، نتيجة لإهتمام المانيا بمصالحها الشرقية

منذ سنة ١٨٨٨ . فقامت الشركة العثمانية لسكك حديد الأناضول في سنة ١٨٩٢ باكمال خطها الى أنقرة ، ثم وصلت به الى قونية سنة ١٨٩٦ . وحصلت في هذه السنة الأخيرة على حق مد الخط الى ديار بكر ثم في العراق . ولكن روسيا احتجت على المشروع فاضطرت الدولة العثمانية الى صرف النظر عن مواصلته الى ديار بكر ، ووقف النشاط لمدة عامين . وجاء الامبراطور الألماني في زيارته الثانية للدولة العثمانية ، وأعلن صداقته للسلطان وللخلافة والاسلام ، ونجح في الحصول على امتياز لألمانيا في سنة ١٨٩٩ لبناء خط حديدى من قونية الى الموصل وبغداد والخليج العربى . وحضر خير الماني لدراسة الطرق الى العراق ، وظهرت طراة المانية في الخليج ، وقررت لجنة فنية سنة ١٩٠٠ تحاشى المرور في أراضي الكويت حتى لاثير الشكوك البريطانية ، واجتمع ساسة تركيا وألمانيا لبحث الاتفاق النهاى وأخذت كل من لندن ونيودلهى في مراقبة الحال بكل اهتمام ، ووصلت سكك حديد الأناضول الى اتفاق مع كل من الحكومة العثمانية والبنك الألماني . وتوجت « الارادة » الصادرة فى يناير سنة ١٩٠٢ هذا الاتفاق . وأدخل على المشروع بعض التنقيحات ، وعدل فى مارس سنة ١٩٠٣ بشكل يؤكد نجاح الألمانين فأصبح من المتوقع البدء فى انشاء خط من قونية الى الخليج العربى ، وفروع له داخل العراق ، بشروط مالية سخية ، مع انشاء شركة جديدة تسمى الشركة الامبراطورية العثمانية لسكك حديد بغداد .

وأثار نشر عقد الامتياز كل الاهتمام الدولى . فنجد أن الفرنسيين الذين وافقوا فى عام ١٨٩٩ على مبدأ المشاركة ، يتراجعون . فحاول الألمان الوصول إلى تعاون مع البريطانيين ، ولكن الرأي العام البريطانى وبخاصة الدوائر المالية والسياسية والتي كانت منقسمة على نفسها ومتردة منذ سنوات ، أظهرت

خوفها من تهديد المشروع للهند ، وللمصالح البريطانية في العراق وفي الخليج العربي . وأعلن بلفور أن بريطانيا تمتنع عن المشاركة في مثل هذا المشروع فأسقط في يد ألمانيا ، خاصة وأن بعض الدوائر العثمانية تقسها كانت تعارض المشروع وتنقده . وبالرغم من محاولة بعض العراقيين الدفاع عنه ، إلا أن غيرهم رأي فيه تمهيداً للتوغل الأجنبي والمسيحي في الأقليم .

وتقدم المشروع في آسيا الصغرى من سنة ١٩٠٤ إلى ١٩١٤ بكل بطء ، وتقدمت الدول العظمى بمشروعات مساعدة أو مضادة . فاقترحت بريطانيا إنشاء خط حديدي من بور سعيد الى العقبة فالجوف فالبصرة ، واقترحت فرنسا خطاً من حمص إلى دير الزور فبغداد والموصل . ولكن الحكومة العثمانية رفضت كل منهما . وواصلت ألمانيا مجهوداتها لضمان المشاركة البريطانية في خط بغداد ، وردت عليها بريطانيا سنة ١٩٠٧ بأن معارضتها للمشروع الألماني لن تختفي إلا إذا حصلت بريطانيا على امتياز إنشاء الجزء الواقع بين بغداد والبصرة ولها وحدها .

ولقد ساءت العلاقات مع ألمانيا نتيجة لوصول جمعية الاتحاد والترقي الى الحكم ، ولم تأخذ هذه العلاقات العثمانية الألمانية في التحسن الا في سنة ١٩١١ . وواصلت بريطانيا رفضها المساهمة المالية ، وعارضت في محاولة الدولة العثمانية زيادة الضرائب الجمركية في موانئها . وفشلت اقتراحات سنة ١٩١٠ لجعل المصالح البريطانية متفوقة في الجزء الجنوبي من السكة الحديدية ، كما فشلت في أول العام التالي المقترحات العثمانية الخاصة بإنشاء شركة عثمانية - فرنسية - بريطانية لبناء الخط بين بغداد والبصرة . فاضطرت ألمانيا في مارس سنة ١٩١١ إلى التنازل عن حقها في جنوب العراق ، وذلك نظير وعد لها

بالاشتراك في أى شركة غير عثمانية ، أى أجنبية ، يعهد إليها ببناء السكك الحديدية في هذه المنطقة .

وكانت المانيا قد توصلت باتفاقية بوتسدام سنة ١٩١٠ إلى الاعتراف بمركز روسيا في شمال الفرس ، وقبلت عدم معارضة مد السكك الحديدية الروسية من طهران إلى الخانقين . ولما ثارت ثائرة فرنسا نتيجة لهذه الاتفاقية عمدت المانيا إلى تعزيزها وتهديتها ، بالاعتراف بمركز فرنسا الخاص في سوريا وذلك باتفاقية أخرى تؤكد لألمانيا مشاركة فرنسا المالية في إنشاء سكة حديد بغداد . ثم واصلت المانيا محادثاتها مع بريطانيا لإنشاء سكة حديدية في جنوب العراق ، وهي المنطقة التي تهم بريطانيا ، إذ أنها تتحكم في وصول النفوذ الألماني إلى مياه الخليج العربي . ووصل الطرفان إلى اتفاق في مايو سنة ١٩١٣ اعترف باستقلال الكويت المحلي « داخل نطاق الدولة العثمانية » ، وبمركز بريطانيا « الخاص » في الخليج العربي ، ونص على أن نهاية خط السكة الحديدية سيكون في البصرة نفسها إلى أن توافق بريطانيا على مده إلى الساحل ، ووافقت شركة السكك الحديدية على تعيين مديرين بريطانيين فيها ، كما ضمنت بريطانيا تفوقها في الملاحة النهرية . فوافقت بريطانيا في نظير ذلك على رفع رسوم الجمارك العثمانية في البصرة من ١٠ إلى ١٥ ٪ .

ولقد وقع السير ادوارد جراي في ١٥ يونيو سنة ١٩١٤ بالأحرف الأولى من اسمه على الاتفاقية النهائية الخاصة بذلك مع السفير الألماني في لندن . ووضعت هذه الاتفاقية حدا للمعارضة البريطانية لمشروع السكك الحديدية الذي يصل حتى البصرة ، كما أنها أكدت تطبيق سياسة الباب المفتوح في التجارة في العراق ، واعترفت بالمصالح البريطانية في شئون الري العراقية ، وأكدت موافقتها على شروط الاتفاقية البريطانية — العثمانية (مايو سنة

(١٩١٣) الخاصة بالملاحة النهرية . واعترفت ألمانيا بجنوب فارس كمنطقة نفوذ بريطانية لاستغلال البترول ، ولانشاء السكك الحديدية . ولكن الحرب أعلنت قبل أن يتم التوقيع النهائي على هذه الاتفاقية .

وكانت شركة سكة حديد بغداد قد أرسلت ميسنر باشا منذ شهر يوليو سنة ١٩١١ الى عاصمة العراق لسكى يبدأ فى العمل ، فاختار موقع انشاء المحطة ونجح بعد سنة كاملة فى افتتاح أول الخط من بغداد الى سمارة وفى حضور الوالى . ولصكن الصعوبات احاطت به من كل جانب ، خاصة وأن النقل النهري الضرورى لارسال المهمات الى بغداد كان تحت السيطرة البريطانية . وشاب شعر ميسنر فى ثلاث سنوات رغم صغر سنه . ولم يتم حتى شهر مايو سنة ١٩١٤ الا بناء ٤١ ميلا . ولكنه نجح فى بناء ثمانين ميلا أخرى ، ووصل بغداد بسمارة بعد أسابيع قليلة من اعلان الحرب . وكان مجهوداً كبيراً ، وضعت فيه المعارضة البريطانية ، بل والسيطرة الاستراتيجية وخصوصاً من الخليج العربى .

وكذلك وضحت المصالح البريطانية الاقتصادية فى مشروعات تحسين وسائل الرى ، فأخذ السير ويليام ولكوكس الذى تمرن فى مصر ، على دراسة امكانيات العراق ، وحصل على منصب مستشار الرى سنة ١٩١٠ . وقامت شركة جاكسون بتنفيذ المشروعات البريطانية فى الدولة العثمانية . ورغم قلة الموارد وضعف الميزانية ، الا أن هذا يثبت تفوق المصالح ، بل وظهور الأطماع البريطانية الاقتصادية فى المنطقة .

وأخيراً وليس آخراً نصل الى البترول . وكان الأهالى يستغلون الزيت فى شمال العراق وبطريقة بدائية منذ عصور طويلة . ولكننا لم نسمع عن

استغلاله بشكل حديث الا في أوائل هذا القرن ، حيث أعطى امتيازات سنة ١٩٠٢ وسنة ١٩٠٣ لشركة سكك حديد الأناضول حق استغلال البترول على طول شريط ضيق يبلغ عشرين كيلو مترا مجاورا للخط الحديدي . وأكد السلطان العثماني في ديسمبر سنة ١٩٠٣ « اراداته » السابقة وأعلن أن المالك الوحيد لزيت العراق هو « الخاصة الشاهانية » . وأعطت الخاصة في يوليو سنة ١٩٠٤ امتيازاً آخر المبحث عن البترول الى سكة حديد بغداد ، وقامت هذه الشركة بتحويله الى البنك الألماني .

وفي نفس الوقت نجد عناصر منافسة . ذلك نجد أن دارسي الذي نجح في الحصول على امتياز استغلال البترول في فارس قد أرسل مندوباً عنه الى القسطنطينية سنة ١٩٠١ وقام بعد ثلاث سنوات من المفاوضات والوعود الوزارية والشفعية ، بتكوين « الاتحاد العثماني للبترول » . ولم يؤخر من نجاحه في الحصول على امتياز هام سنة ١٩٠٨ الا قيام ثورة تركيا الفتاة واصدار الإرادة التي نقلت حقوق البترول العثماني الى ملكية الخزانة . فبدأت المفاوضات من أساسها ، وظهر الى جانبه في الميدان شركة بريطانية أخرى متحدة مع جولبنكيان الأرمني ، والذي كان مندوباً عن الأميرال شستر الأمريكي .

وقام جولبنكيان في يناير سنة ١٩١١ بتكوين شركة الامتيازات الافريقية والشرقية . وشارك فيها بنك تركيا الاهلي ، وهو حديث التكوين وتحت اشراف بريطاني ، وشركة شل ، والبنك الألماني وجولبنكيان نفسه واتخذت هذه المجموعة لنفسها في آخر عام ١٩١٢ اسم « شركة البترول التركية » بعد أن ضاعفت رأسمالها ووافق البنك الألماني على التنازل لها عن امتيازها السابق . وواصل دارسي مجهوداته ، وخاصة بعد أن نجح في سنة ١٩٠٩ في تكوين

الشركة الأنجلو فارسية للبترول. فأتحدت هذه القوى الاستغلالية مع بعضها سنة ١٩١٣ وجاءت الاتفاقية البريطانية الألمانية في المجال الدولي لكي تدعم تعاون الشركات مع بعضها في ميدان الاستغلال الرأسمالي. فأعيد تكوين « شركة البترول التركية » على أساس الاحتفاظ بـ ٢٥٪ من أسهمها للبنك الألماني والربع الثاني لمجموعة شل والنصف للشركة الأنجلو فارسية، محتفظين لجولبنكيان بخمسة في المائة من الأسهم. وتقدم الجميع لرئيس وزراء الدولة العثمانية، طالبين منحهم امتيازاً لاستغلال البترول، وأبدى في ذلك كل من سفراء بريطانيا وألمانيا في القسطنطينية. فجاء الرد في خطاب الأمير سعيد حليم بتاريخ ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤. معلناً لهم موافقة وزارة المالية على منح شركة البترول التركية حق استغلال موارد البترول التي اكتشفت أو تكتشف في المستقبل في كل من ولايتي الموصل وبغداد، وأن الدولة العثمانية تحتفظ لنفسها بحق تحديد نصيبها، وكذلك الشروط العامة للاتفاقية. ولقد استندت الحكومة العراقية في سنة ١٩٢٣ إلى هذا الخطاب لكي تعطى امتياز الشركة الأنجلو عراقية إلى هذه المجموعة الرأسمالية بعد تعديلها نتيجة لخروج ألمانيا، وإحلال فرنسا محلها. وسري فيما بعد الشروط التي وضعت لا لتحديد نسب مشاركة رؤوس الأموال، بل لتوزيع الأرباح، ونصيب الحكومة الوطنية منها.

وهكذا تكاثفت العوامل الاستراتيجية والاقتصادية لإظهار المصالح ثم الأطماع الاستعمارية في العراق. وجاءت سنة ١٩١٤ وبريطانيا على رأس قائمة الطامعين الاستعماريين.

٣ - الاحتلال البريطاني :

كان من الواضح أنه في استطاعة العراق أن يصل إلى تحسين أحواله

الاقتصادية، خاصة بعد الاهتمام بوسائل المواصلات ، والالتفات الى البترول رغم أن الاستغلال قد وضع في أيد أجنبية. وكان من الممكن للعراق أن يحسن أحواله الاجتماعية ، خاصة وأن الآراء الحديثة ووسائل التعليم قد أخذت في الانتشار فيه ، وأصبح من المتوقع أن يدعم علاقاته بالبلاد العربية الاخرى ، الداخلة في نطاق الدولة العثمانية . ولكن إعلان الحرب العالمية الأولى، التي بالعراق في تجربة عنيفة وقطع بينها وبين جيرانها العرب .

ورغم ازدياد النفوذ والأطماع البريطانية في العراق فقد كان من المستبعد أن تقوم القوات البريطانية باحتلال العراق عسكريا في صيف سنة ١٩١٤ ولكن الحكومة البريطانية درست مع سلطاتها في الهند عناصر الموقف في الشرق الأدنى وبخاصة في منطقة الرافدين . فوجدت أن في استطاعة الدولة العثمانية أن توصل النفوذ الألماني الى منطقة شط العرب ، فيعمل بدوره على تهديد النفوذ البريطاني في منطقة الخليج العربي . وخشيت السلطات البريطانية بنوع خاص من اعلان الدولة العثمانية للتعبيث ، ومن حشد قواتها وتسييرها صوب جنوب العراق . وكان من السهل على القوات العثمانية أن تعمل في منطقة عربستان في غرب فارس ، وتحرم بريطانيا من موارد البترول ، بل كان في استطاعتها كذلك أن تقضى على النفوذ البريطاني في جنوب الفرس وتهدد الادارة الاستعمارية البريطانية في الهند ذاتها . ولذلك فان السلطات البريطانية في الهند قد اتخذت للأمرأهته قبل دخول تركيا الحرب. ورغم ارسالها لعدد كبير من قواتها الى ميدان الحرب في فرنسا ، وعدم وثوقها في قوات هندية إسلامية قد تنضم الى جنود خليفة المسلمين في أرض المعركة نفسها فان السلطات البريطانية قررت منذ ١٢ أكتوبر إرسال قوة حربية الى الخليج العربي ، للدفاع عن منشآت البترول في عبادان ، ولتسهيل لعمليات إنزال

قوات تاليه ولضمان ولاء المشايخ المحليين. ولقد أقلعت هذه القوة في يوم ١٦ من الهند ، ووصلت بعد أسبوع الى البحرين . وكان السير برسي كوكس هو الضابط السياسى المرافق لهذه الحملة الصغيرة. فما أن أعلنت الدولة العثمانية الحرب فى ٥ من نوفمبر ، حتى نشر على الأهالى فى منطقة الخليج العربى بلاغا ذكر فيه أن بريطانيا لاتضمّر أى عدااء للعرب ، ماداموا يظهرون صداقتهم لها ، وأن القوات البريطانية لم تحضر إلا لتواجه الاعتداء التركى وتدافع عن أصدقائها العرب. وقامت قطع الأسطول البريطانى باسكات قلاع فاو فى اليوم التالى ، ونزلت القوات الى عبدان ، وزحفت منها صوب الشمال. ولقد قامت القوات العثمانية بمقاومة الغزو البريطانى فى موقعين حامين فى سيحان والساحل فى يومى ١٥ ، ١٧ نوفمبر ، ولكنها اضطرت الى التقهقر أمام مدفعية الأسطول. وحاولت أن تسد مدخل شط العرب باغراق بعض السفن فيه ولكن ذلك لم يمنع القوات البريطانية من التقدم ومن احتلال البصرة فى يوم ٢٢ . وبدأ بذلك الاحتلال البريطانى للعراق .

كانت بريطانيا قد بلغت الهدف الذى سعت اليه بارسال هذه الحملة وباحتلالها عبدان والبصرة . ورغم أن أركان الحرب كان لايعلم الكثير عن شئون العراق والقوات العثمانية الموجودة فيه فانه قد طلب من حكومة الهند ، ومنذ دخوله البصرة ، أن تسمح له بالتقدم وباحتلال بغداد. فرفضت حكومتى لندن ودلهى هذا الطلب . وأخذت السلطة العسكرية فى انشاء إدارة للمنطقة الخاضعة لها وأحضرت بعض قوات البوليس من الهند ، ومن السودان ومن الصومال ، وجمعت بعض المشايخ ، وطلبت منهم إرسال برقية تهنئة للملك جورج الخامس . وحضر نائب الملك فى الهند اللورد هاردينج لزيارة البصرة فى فبراير سنة ١٩١٥ وحاول السيد طالب مقابلته ، ثم تفاهم

مع السير برسى كوكس فى أمر تقديم خدماته للبريطانيين فى نظير الاعتراف به كأمر عربى على المنطقة المحتلة ، ولكن البريطانيين رفضوا هذا الطلب إذ أنهم لم يكونوا فى حاجة الى أعوان يطلبون الألقاب والإعانات المالية مادامت قواتهم الاستعمارية تسيطر على الاقليم ، وبالقوة الصريحة .

وعملت القوات العثمانية على مهاجمة القوات البريطانية فى كل من عربستان وجنوب العراق ، وكبدت البريطانيين خسائر فادحة . وقام أنصارها فى عربستان بنسف خطوط أنابيب البترول ، كما اشتبكت مع البريطانيين عند شعبية فى جنوب العراق فى معركة حامية دامت أربعة أيام فى شهر ابريل ١٩١٥ ولكنها اضطرت بعدها الى التقهقر ، نتيجة لتمرد القوات العربية ومهاجمتها للجنود الاتراك ، ولانتحار القائد العثمانى سليمان بك العسكرى أمام هذا الموقف الفاضح .

وواصلت بريطانيا إرسال قواتها المحاربة الى جنوب العراق وكلفتها رسميا ، منذ شهر ابريل سنة ١٩١٥ ، بالسيطرة تماما على ولاية البصرة وعلى كل المناطق المجاورة الضرورية لأمنها ، وبأن تضمن سلامة آبار البترول والأنابيب ومعامل التكرير ، وبأن تدرس الخطط اللازمة للتقدم صوب بغداد واحتلالها . ولقد قامت هذه القوات فى شهر يوليو بالاستيلاء على قرنه والاهواز والعمارة والناصرية ، ولكنها أصبحت مشتتة ، وأضحى من الصعب عليها امداد الحاميات المتقدمة عند هجوم العثمانيين عليها . ورغم انهزام البريطانيين فى غاليبولى فان سحر بغداد كان يجذبهم شمالا وخاصة بعد المارك البسيطة التى كسبوها وانتصروا فيها على العثمانيين . وسمحت حكومات لندن ودلهى للقوات البريطانية فى أوائل شهر أكتوبر بالتقدم والاستيلاء على بغداد . ومع تقدم هذه القوات بقيادة الجنرال تونستند طالت خطوط

مواصلاتها ، وكانت القيادة تجهل في نفس الوقت أمر تقدم فرقتين عثمانيين صوبها وبقيادة خليل باشا . ووقعت موقعة حامية في العزيزية ، اضطرت بعدها القوات البريطانية إلى التقهقر إلى كوت في حالة من الانهك يرثى لها . واضطرت هذه الحملة إلى البقاء في الحصار في هذا الموقع مدة ١٤٠ يوما ، إلى أن استسلمت للقوات العثمانية بدون قيد ولا شرط في ٢٩ أبريل سنة ١٩١٦ وتمكن العثمانيون من الدفاع عن العراق ، ومن صد البريطانيين عن التقدم شمالا أكثر من كوت حتى ربيع سنة ١٩١٦ .

ولقد قامت السلطات البريطانية في سنتي ١٩١٥ و ١٩١٦ بتكوين فيلق من العمال العرب يخدمون في المعسكرات البريطانية ، لسد حاجتها من ناحية ولمواجهة الحالة الاقتصادية التي ساءت في الاقليم من ناحية أخرى . ثم أدخلت العملة الهندية (الروبية) وبدأت في انشاء ادارة مدنية باشراف السير برسي كوكس ومساعدة ويلسون . وأعلن كثير من مشايخ العرب ورؤسائهم رفضهم الخضوع لادارة يسيطر عليها المسيحيون ، فزادت السلطات البريطانية من إنفاق الأموال ، وكونت قوات من البوليس الراكب (الفرسان) من بين الأهالي ، وبقيادة ضباط بريطانيين لتدعيم سلطتها على المنطقة .

وأخذت السلطات البريطانية من جنوب العراق في الاتصال برؤساء العرب ومحاولة ضمهم اليها . فاتصلت بآبن الرشيد في شمر ، ولكنه رفض التحدث معها ، وبقي على ولائه للدولة العثمانية . أما مبارك آل الصباح فانه توفي سنة ١٩١٥ وتولى ابنه جابر شياخة الكويت مكانه لمدة سنة ، ثم تلاه ابنه الثاني سالم . وسرعان ما ظهر للبريطانيين أن سالم يميل إلى الأتراك ، ويفضل حركة الجامعة الإسلامية على التحرر في ظل العلم البريطاني . فاضطرت السلطات

البريطانية إلى إرسال حملة لاحتلال الكويت والبقاء فيها . كما اتصل البريطانيون بعبد العزيز بن عبد الرحمن في الرياض ، وأرسلوا إليه شكسبير ، وتمكنوا من عقد اتفاقية معه قبل نهاية عام ١٩١٥ . ونظراً لعدم تمكن الأهالي أو السلطات الاستعمارية من اللغة التركية ، نجد أن سلطات الاحتلال تستخدم اللغة العربية ، إلى جانب الانجليزية ، كلغة رسمية في المنطقة المحتلة . فرحب العرب بذلك ، كنصر للغتهم القومية . وكذلك ترك البريطانيون المحاكم تعمل بالعربية ، وصدرت جريدة رسمية في البصرة بالعربية والانجليزية . وسرعان ما فتحت بعض المدارس الوطنية ، ويمكن البريطانيون قدموا مساعدات فائقة لمدارس المبشرين ومدارس الطائفة الاسرائيلية .

ومن الجانب الآخر من خطوط القتال نجد أن الوثام قد ساد بين العثمانيين والعرب بعد إعلان الحرب والدعوة للجهاد ، ونادى كل من شيوخ السنة ورجال الشيعة بالوقوف إلى جانب دار الخلافة . ولكن الظروف تطورت وقررت الدولة العثمانية الخدمة الاجبارية على الجميع ، ثم أخذت في التصلب تجاه القادة العرب المتحررين ، وظهر ميلها إلى أهل السنة أكثر من ميلها إلى رجال الشيعة ، فأخذت المصاعب في الظهور أمامها ، وشهدت آخر أيامها في العراق كفاح مراكز الشيعة ضد السلطة العثمانية ، وفي الوقت الذي تقدمت فيه قوات الاحتلال الأجنبية من الجنوب . وبدأت الدولة في اساءة معاملة المسيحيين الذين أظهروا ميلاً لأعدائها ، وفي أثناء الحرب ، وأوقفت نشاط الجمعيات المسيحية الأجنبية ، وقيدت من حرية الجمعيات اليهودية . وظهر أن الأرمن في الشمال من العراق يناضلون ضد الدولة العثمانية . وأخيراً تم الانقسام بين أهل السنة أنفسهم إلى أتراك وعرب ، عندما أعلن الشريف حسين الثورة

على الدولة العثمانية . كان كل هذا يفتت من القوي الاقليمية ، ويضعفها أمام بعضها وفي معارك داخلية ، ويفتح الباب على مصراعيه للقوات الاستعمارية المتربصة .

وقضت السلطات البريطانية عام ١٩١٦ في الاستعداد في جنوب العراق فأنشأت ميناء حديثاً في البصرة مجهزا بالأرصفة والمخازن ، واستخدمت فيه العمال العرب . وأخذت الناقلات والسفن التجارية تصل في كل يوم مشحونة بالأسلحة والذخائر والمهمات والأطعمة وأدوات السكك الحديدية . واهتمت السلطات البريطانية بالطرق البرية وأحضرت بعض السفن للملاحة على الدجلة والفرات . ووصلت القوات من الهند ومن ميادين القتال في أوروبا ، ثم تقدمت هذه القوات في شهر ديسمبر من الجنوب ، ومستندة إلى هجومات القوات الروسية من الشمال ، صوب إيران وكرديستان . ودخلت القوات البريطانية بغداد في ١١ مارس سنة ١٩١٧ ، وسيطرت على المنطقة المحيطة بها . ولكنها اضطرت إلى عدم المغامرة أبعد من ذلك ، وفضلت انتظار وصول جيش « الصاعقة » العثماني التي هددت الدولة بارساله لالقاء البريطانيين في البحر . ولكن الدولة كانت مشغولة بتقدم قوات الأعداء ضدها من شبه جزيرة سيناء ، في فلسطين وحبوب سوريا ، وكانت مشغولة كذلك بالموقف في الجزيرة العربية وفي الحجاز ، وتركز اهتمامها في سوريا قبل غيرها من المناطق ، فبقيت جبهة العراق دون عمليات حربية هامة .

ولم تدخل القوات البريطانية أراضي ولاية الموصل الا في مايو سنة ١٩١٨ حيث احتلت كركوك ، ثم اضطرت إلى اخلائها بعد اسبوعين بسبب صعوبة المواصلات والتموين . وما أن علم البريطانيون ، قرب نهاية شهر اكتوبر ، بأن تركيا تستعد لقبول الهدنة حتى قاموا بالزحف من جديد على كركوك .

ولكن القائد على احسان باشا وقف في سبيلهم في معارك دامية قضى فيها على جزء كبير من قوات الجيش السادس العثماني . ثم انسحب هذا القائد إلى الموصل حيث وصلت أنباء هدنة مودروس التي وافقت بها تركيا على أن تسلم حامياتها الموجودة في العراق لقيادة الحلفاء ، وعلى حق هذه القيادة في احتلال المواقع الاستراتيجية اللازمة لضمان أمن قوات الحلفاء . ولكن احسان باشا رأى أن البريطانيين يتوغلون في الولاية لاحتلالها بعد اعلان الهدنة ، فطلب منهم أن يتقهقروا إلى المواقع التي كانوا يحتلون بها يوم ١٣ من اكتوبر ، وادعى القائد البريطاني من ناحية أخرى أن الهدنة تسمح له باحتلال « ولاية الموصل » ولكنه فشل في إخراج احسان باشا من الموصل ، إذ أن هذا القائد قد أصر على أن قواته ليست « حامية » بل جيشا في الميدان ، وعلى أن الموصل ولاية مستقلة ومنفصلة عن ولايتي بغداد والبصرة . ولكن احسان باشا اضطر في ٧ نوفمبر إلى التوقيع على تعهد باخلاء الموصل في مدة عشرة أيام ، وقعه تحت التهديد ، ووقعه مع الاحتجاج . وانسحب بقواته في هذه المهلة ، وضمت القوات البريطانية ولاية الموصل إلى بقية العراق مستندة إلى « الأمر الواقع » . أما تركيا فقد أعتبرت أن هذه الولاية منفصلة عن العراق من الناحية القانونية . ولم تسوى المسألة نهائيا إلا بعد سنوات .

٤ - الادارة المباشرة وعدم الرضاء :

عمد البريطانيون منذ أول اجتلالهم للأراضي العراقية إلى فرض إدارتهم المباشرة على المناطق التي تخضع لقواتهم . وكان القائد العام للقوات البريطانية في العراق هو المسئول عن الإدارة ، ولكنه اضطر أمام مسؤولياته العسكرية إلى ترك الشئون المدنية لمدوب مدني خاضع له . واختارت الحكومة البريطانية لهذا المنصب الخطير السير برسي كوكس الذي سيطر على الموقف

حتى شهر مايو سنة ١٩١٨ حيث نقل إلى منصب الوزير البريطاني في فارس وترك منصب بغداد لمساعدة الكولونيل ويلسون ، يديره بالنيابة .

ولقد عملت ظروف الحرب وامكانياتها على تطور الموقف الاقتصادي والاستراتيجي والسياسي وفي صالح بريطانيا .

فما أن نزل البريطانيون في الجنوب حتى شعروا بحاجتهم إلى خدمة العرب . فاستخدموا العمال العرب في ميناء البصرة وفي المعسكرات وفي انشاء السكك الحديدية والطرق التي امتدت مع زحفهم شمالا ، وأيدت هذا الزحف . فاختفت البطالة ، وزادت الثروة في أيدي أهالي البصرة وجنوب العراق ، ولم نسمع عن المقاومة ، بل على العكس من ذلك ، إرتفعت أسهم العناصر العربية الانفصالية ، وسأيرت الموقف . فقام النقيب السيد عبد الرحمن ، بالاتصال بالبريطانيين ، وأرسل كثير من مشايخ العرب بتهانيهم وبرقياتهم إلى البريطانيين في البصرة . وشارك في هذه الحركة عدد من رجال الطبقة الوسطى ، التي تعمل في التجارة ، وعدد من العناصر الدينية وخاصة رجال الشيعة .

وحينما امتدت الحرب شمالا صوب بغداد ، تعرضت بعض المدن لنقص مواد التموين ، كما تعرضت للتخريب أيضا ، نتيجة للعمليات . وسرطان مادخل البريطانيين ، وعملوا على تشغيل العمال ، واحضار التموين من البصرة . فزادت الثروة في أيدي أهالي هذه المنطقة كذلك . وعاد بعض المشايخ ورجال القبائل إلى أراضيهم ، بعد أن كانوا قد انسحبوا منها مع الاتراك ، وأمام الغزو الاستعماري .

وكانت الأمور تسير بسرعة وبهمة في أثناء الحرب ، وظهر فيها النشاط نتيجة لسهولة اتخاذ القرارات وإصدار الأوامر من ناحية ، وللمكثورة

الإمكانيات الاقتصادية من ناحية أخرى . فقررت القيادة البريطانية احتياج الإقليم إلى انتاج القمح ، ثم أمرت بإنتاج ٣٠٠.٠٠٠ طن في العام . ثم شجعت المشايخ وأعطت السلفيات مع كميات من البذور . فأقبل الزارع على انتاج ما يحتاجه العراق ، وما قد يحتاجه بعض أجزاء أخرى من الامبراطورية البريطانية . واستخدمت السلطات البريطانية عددا من العمال العرب في شق بعض الترع وتطهيرها . فتكاثفت كل هذه العوامل على العمل ، على زيادة الإنتاج . وعلى زيادة الثروة ، وعلى الاتفاق ، ونزلت العوامل السياسية والنفسية إلى مستوى ضحل ، ولم يظهر التضارب بين الاستعمار وبين القوى الوطنية لفترة من الزمن . بل وظهر بجلاء أن أسهم البريطانيين قد ارتفعت في هذه المنطقة من العالم العربي .

ولكن سيطرة بريطانيا على الإدارة في العراق قد أدت إلى احتكاكها بالقوى الوطنية ؛ وخاصة ذلك القطاع الذي حاول أن يحصل على ادارة شؤون الإقليم من الدولة العثمانية ، أى الاستقلال المحلى ؛ إذ أن الادارة البريطانية جاءت لكي تسد الطريق أمامه وتحاول وقف نموه . ومع ازدياد تغلغل البريطانيين في الادارة من ناحية ، وتطور الموقف الاقتصادي والسياسي من ناحية أخرى ، بدأت مظاهر عدم الرضاء من البريطانيين في الوضوح ، وظهرت مع الشيعة ، ومع الاكراد ومع العرب .

كان البريطانيون قد استعانوا بأخذ رؤساء العصابات السابقين ، وهو علية أبو قل في حكم النجف . وتنجح هذا الرجل في اسكات كل معارضة ؛ ولكن سرعان ما ظهر فساد بل واجرام هذا النظام . فعمدت السلطات البريطانية الى تخيرة واستوردت حاكما من الخارج ، وإن كان من الشيعة

وهو حميد خان (ابن عم الاغاخان) . وكان في استطاعته أن يدير شئون الاقليم لو لم يكن أجنبيا ، ولم تكن هناك ظروف حرب ، ومجتمع يسير بخطى واسعة صوب التحرر والتطور . فظهر عجز هذا المتصرف بكل وضوح ، وقامت المشكلات ضده ، فاضطر الى الانسحاب . فعينت السلطات البريطانية أحد أبناء الاقليم ، وأيدته بسلطاتها وقواتها . وبدأ أن بريطانيا قد سيطرت على شيعة العراق ، ولكن سرعان ما ظهر أن أطماع بريطانيا هي استعمارية واضحة ، اذ تقدمت القوات البريطانية في غرب فارس وعملت على الاستيلاء على السلطة في مناطق الشيعة خارج العراق كذلك . فحدث انقسام بين صفوف الشيعة ، ورغم بقاء عدد من علمائهم وشيوخهم مواليين لبريطانيا ، فقد أظهرت الأغلبية عداؤها لهذا الاستعمار ، ووقعت حوادث - اغتيال الضباط والجنود والموظفين البريطانيين في مناطق الشيعة في العراق .

اما مناطق الاكراد في شمال العراق فقد رحب بعض الرؤساء فيها بمجيء البريطانيين ، اذ انهم كانوا يحاولون الحصول على استقلالهم وانشاء دولة كردستان . وكانت حركتهم تستند الى بعض الدعاة في أوروبا ، وفي فرنسا بنوع خاص وجاء مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها مشجعاً لهم . وكانت حركة الأرمن وتأييد الغرب لها سابقة لهم في هذا الطريق . واعتقدوا ان بريطانيا ستقف الى جانبهم ما دامت هي دولة « الحرية والديموقراطية » . ولكن الموقف تطور مع الزمن . فاخذت القوات البريطانية المتوغلة في شمال غرب فارس في الاتصال بالآشوريين المسيحيين وفي تقديم المعونات لهم . فاغضب ذلك الاكراد . وكذلك قدم البريطانيون المساعدة للأرمن وعملوا على تجنيد بعض الكتائب من كل من الآشوريين والأرمن ، ودخلت هذه الكتائب في مناطق الاكراد من وقت الى آخر . وبدأت مظاهر عدم الرضا في الظهور

بين الاكراد ، وضد البريطانيين . وعملت الحكومة البريطانية على تحاشي انغضاب فرنسا في شأن ولاية الموصل ، فظل مستقبل هذه الولاية مطلقاً الى أن تتم تسويته مع الصلح مع تركيا . واحتفظت بريطانيا بإدارة الموصل منفصلة عن ادارة بغداد ، فاغضب ذلك العرب واغضب في نفس الوقت الاكراد الذين وجدوا انفسهم في ظل حكومة بريطانية مباشرة ، وهي حكومة مسيحية ، وفي علاقات ودية مع الأرمن والآشوريين . فنشأت القلاقل ثم الاضطرابات واضطرت السلطات البريطانية في بغداد الى ارسال قوات عسكرية الى الشمال . ولم يمنع ذلك من قتل الضباط والجنود والموظفين البريطانيين في المنطقة . ومرة أخرى نجد انه بالرغم من مساهمة بعض المشايخ والرؤساء الأكراد للحلفاء البريطانيين نجد عدم الرضاء ، بل والرغبة في المقاومة ، تأتي من الطبقات الشعبية التي لا تأبه لمهادنة أى طبقات أخرى للاستعمار الأجنبي .

وكذلك المناطق العربية الصميمة ، فقد دفعتها العوامل المختلفة الى التصادم مع البريطانيين . ذلك أنها كانت قد رحبت بمبادئ الرئيس ويلسون ، ولكنها وجدت أن الدول الاستعمارية تسعى الى التمويه على هذه المبادئ ، أو الافادة منها لتحقيق أطماعها الاستعمارية مما يتنافس مع مصلحة أبناء البلاد . حقيقة أن الحركة العربية بقوتها وقواتها كانت مركزة في ذلك الوقت في سوريا ، ولكن سوريا لم تكن بعيدة عن العراق . وحقيقة ثانية هي أن القوى الاستعمارية كانت قد بدأت في التكاثر على قوة العروبة في الشام ، وتعاون في هذه الحركة كل من بريطانيا وفرنسا والصهيونية . ولكن العروبة وقفت هناك رافعة الرأس ، ثابتة الاقدام ، وأنشأ العرب حكومتهم في دمشق ،

ورسموا من الشام أمر انشاء حكومة عربية ممثلة في بغداد ، وجاء هذا القرار في الوقت الذي ظهر فيه الاختلاف في الرأي بين كوكس وويلسون ، أي بين أنصار انشاء حكومة عراقية مستقلة إستقلالاً ذاتياً ، وبين اهلوان فكرة مواصلة اخضاع العراق للحكم البريطاني المباشر . فكان موقف الزعماء والقادة العراقيين في القوات العربية في الشام إذن يتضارب تمام التضارب مع موقف المعسكرين البريطانيين ، المعتدل والمتطرف - إذ كانا في حقيقةهما استعماريين .

وسرعان ما وقع الخلاف بشأن الحدود السورية العراقية . ذلك أن الضباط العراقيين في قيادة فيصل أصبحوا لا يطبقون صبرا على توغل الحكم البريطاني وامتداده على كل العراق . فانهزوا فرصة غيبة فيصل في أوروبا في سنة ١٩١٩ وأخذوا يحاولون تخليص بعض المناطق المجاورة لسوريا من حكم البريطانيين . ولكن البريطانيين استولوا على الادارة في منطقة دير الزور وطردوا منها المتصرف العربي الخاضع لواء حلب ، فازدادت الحماسة العربية وزاد تصميم العرب على تحرير بلادهم . وأخذ الجنرال يسن الهاشمي رئيس أركان حرب قوات الحكومة السورية يشرف بنفسه على حركة التحرير الوطني لانتفاذ العراق من تحكم البريطانيين . وشعرت بريطانيا بقرب هبوب العاصفة العربية ، وحاولت أن تقلل من إتهامات فرنسا لها بمنافستها في سوريا ، فقررت في آخر سنة ١٩١٩ سحب قواتها من سوريا لتدعيم حامياتها في مناطق أخرى من العالم العربي . ولكن هذه الحركة لم ترهب العرب بل إنهم قاموا بتعيين الحكام والمتصرفين على المناطق التي تخضع للاحتلال البريطاني . ودل هذا على قرب الهجوم العربي الشامل على البريطانيين في العراق .

وبشكل عام يمكننا أن نقول أن نزول البريطانيين في العراق وطبيعة وجودهم وتصرفاتهم كانت تدفع الاقليم دفعا إلى الثورة لتحرير البلاد ، وأن هذه الثورة قد استندت الى اسباب اقتصادية ومعنوية دينية وقومية وسياسية . وكان لا محالة من نشوبها واشتعالها .

فمن الناحية الاقتصادية نجد أن التجارة قد ازدادت مع الخارج ، ولكن إضطرابا عنيفا أصابها . ذلك أنها قد غيرت مجاريها وطرقها . فلقد وقفت التجارة تماما مع كل من تركيا وفارس والروسيا ، وأصبحت التجارة لا تأتي إلا عن طريق الامبراطورية البريطانية . وزاد إمتداد السكك الحديدية في العراق ولكنها كانت تحت تصرف الموظفين الهنود . وزاد الطين بلة أن العراق كان يحتاج إلى كل شيء ، حتى الى مخلفات الحرب للاستفادة منها محليا ، ولكن البريطانيين رفضوا بيع مخلفات الحرب ووسائل النقل النهري محليا في العراق ، وأرسلوها الى الهند ، وأعين العراقيين ترنوا اليها .

ومن الناحية المعنوية الدينية نجد أن كل عناصر العراق لاتوافق على وجود حكم أجنبي ، خاصة وأنه مسيحي . وخشى الشيعة من انشاء سلطات مدنية تقضى على سلطتهم وعلى نفوذهم . أما السنة فكانوا لا يزالون مرتبطين بالخلافة الاسلامية ، وجاء تأخير تسوية المشكلات الخاصة بالسلم مع تركيا مشجعا لهم على معاداة البريطانيين . وزاد الطين بلة تجنيد البريطانيين لبعض الكتائب من الأرمن والآشوريين واستخدامها في المحافظة على الأمن والنظام في الاقليم ، أى في كبت المسلمين وقاسى الاكراد في الشمال من هذا التصرف أكثر من غيرهم .

وأما من الناحية القومية فقد كان النظام الجديد نظاما أجنبيا ، ولم

يعتده الأهالي . واذا كان الوطنيون قد شعروا بشخصيتهم متميزة عن شخصية الأتراك نتيجة لعدم تحدث الأتراك العربية ، ولا يمكن للبريطانيين أن يدعوا إجادتهم للغة الضاد . وكانت إدارتهم تبشر على الإدارات العراقية بأبناء الأمبراطورية ، وخاصة الهنود .

ومع نهاية الحرب تخلى البريطانيون عن عدد كبير من المشروعات الانشائية مثل الطرق وغيرها ، وإهتموا بضغط المصروفات ، ووجد الأهالي أن الخبراء البريطانيين لم يصلوا إلى تحويل جذري في الزراعة ، أو إلى ثورة إقتصادية وتحويل المجتمع إلى مجتمع صناعي مثلاً ، فظهرت ضحالة المجهودات البريطانية التي اقتصرت على التشجيع والتوجيه ، وظل دور الانتاج منوطاً بالوطني . بل وأكثر من ذلك ، لقد إزدادت الضرائب والالتزامات المالية عنها في العهد العثماني . وكانت الإدارة لا تستخدم إلا من يجيد الانجليزية ، وهم قليلون في العالم العربي في ذلك الوقت . فانتشرت البطالة وأصبح عدد كبير من الموظفين السابقين مادة صالحة لعدم الرضاء وإعلان التذمر . وجاءت هذه العوامل لكي تدعم قوة العوامل الاقتصادية وتساعد على تأجيج الروح الوطنية الشاملة وفي طريق معاد للبقاء البريطاني في البلاد .

وهكذا نصل أخيراً إلى العوامل السياسية ، التي إستندت إلى الموقف الاقتصادي وإلى التطورات الخاصة بمستقبل الاقليم للوصول بالشعور العربي إلى منتهاه .

فرغم أن بريطانيا كانت قد نزلت إلى جنوب العراق قبل أن تبدأ مراسلاتها مع الشريف حسين ، نجد أنها توافقت على إقامة دولة عربية موحدة في منطقة الشرق الأدنى . ورغم أن بريطانيا قد حاولت إستثناء مناطق البصرة وبغداد

من هذه الدولة ، وذلك في مراسلات السير هنرى مكماهون مع الشريف حسين ، وحاولت الوصول إلى اتفاقية خاصة بإدارة هاتين الولايتين ، إلا أن المتحدث باسم العرب رفض ذلك ، إلا على أساس أن تكون هذه الإدارة لفترة مؤقتة يتفق عليها الطرفان . ولقد فكرت وزارة الحرب البريطانية في عام ١٩١٧ في إقامة إمارة عربية على كل من البصرة وبغداد ، كما فكر كثير من رجال العرب ، بل والبريطانيين أيضا في إقامة مجموعة من الدول العربية ، وجاء إنشاء حكومة فيصل في سوريا قبل نهاية سنة ١٩١٨ مدعما لهذا الاتجاه ومؤيدا له . وكانت مبادئ الرئيس ويلسون ، مع التصريح الانجليزي الفرنسي الصادر في ٧ نوفمبر سنة ١٩١٨ تعمل على إحياء الأمل في صدور الوطنيين العرب ، وفي صدور أبناء العراق ، خاصة وأن التصريح الأخير قد نص على أن هدف كل من فرنسا وبريطانيا العظمى في منطقة الشرق العربي هو تحرير الشعوب التي كانت ترسخ تحت نير الأتراك تحريرا كاملا ونهائيا ، وإقامة حكومات وإدارات وطنية ، تستمد سلطتها من الشعوب .

ومن ناحية أخرى تكفي نظرة واحدة إلى اتفاقية سايكس بيكو المعقودة في مايو سنة ١٩١٦ ، والتي نشرها الروس في أكتوبر سنة ١٩١٧ ، لإثبات أنها تتعارض مع حق الوطنيين في تقرير مصيرهم . ذلك أنها سمحت لفرنسا بالاحتفاظ بجزء من الموصل بما فيه عاصمة الولاية ، كمنطقة لاستغلالها ، وسمحت لبريطانيا بالاحتفاظ بسيطرتها على الأجزاء الغربية من العراق ، وبإدارتها المباشرة على جنوبه . وكانت هذه الشروط تتعارض مع التعهدات التي أخذتها بريطانيا على نفسها تجاه العرب . ولقد تشبثت فرنسا بهذه الاتفاقية ، وحاولت بريطانيا عدم اغضاب حليفتها ، وخاصة في فترة ما بعد الحرب .

حقيقة أن معظم قادة العراق كانوا في المنفى أو في أركان حرب قوات الملك فيصل في سوريا ، ولكن نهاية الحرب سمحت لعدد منهم بالعودة إلى إقليمهم ، فأخذوا يتحدثون عن الاستقلال التام وضرورة الوصول إليه وتكانفت هذه مع مراکز عدم الرضاء المنتشرة بين العرب ، السنة والشيعة ، وفي مناطق الأكراد ، لكي تتحد جميعها وتأخذ لونا واحدا معاديا لبريطانيا .

وكان وجود الكولونيل ويلسون على رأس الإدارة في العراق يدفع بالعراقيين دفعا إلى الثورة . ذلك أنه قد عارض في نص التصريح الانجليزي الفرنسي ، وعارض كذلك فكرة منافسة ، الكولونيل لورنس التي سعت إلى إنشاء دويلات عربية في سوريا والعراق برئاسة أمراء هاشميين . فطلت لندن مشرفة على أمور الشرق الأدنى ، وشكلت لذلك لجنة وزارية برئاسة اللورد كيرزن لتصريفها . ولكن وجهات نظر لندن كانت تتعارض في كثير من الأحيان مع وجهات نظر السلطات البريطانية في الهند ، والتي كان الكولونيل ويلسون يخضع لها . وظهر التضارب بين قرارات اللجنة الوزارية وبعضها ، وخاصة حينما أكدت عزميتها على تنفيذ التصريح الانجليزي الفرنسي . ثم أظهرت أنها ترغب في الاحتفاظ بالعراق تحت نظام الإدارة البريطانية المباشرة . وبعد استشارتها لبعض العراقيين . قررت إنشاء دولة أو دولا عربية (طبقا لرغبة الأهالي . وعلى أن تكون خاضعة للإشراف البريطاني التام) . فكأنها قد رغبت في الاحتفاظ بالشكل الخارجي لما نص عليه التصريح المذكور ، لكي تخلق مجالا لمشاركة العرب ، وبشكل مطاط حسب ظروف التطور . أي الحرية الاسمية . مع الإدارة البريطانية الفعلية ، وضرورة اعتراف الوطنيين بها . وتناسبت بذلك صيحات العروبة والوطنية على صفاف الرافدين والآية من الشام .

ولقد زار الكولونيل ويلسون لندن في أوائل عام ١٩١٩ وحاول إنشاء دولة عراقية تخضع خضوعاً تاماً لبريطانيا ، وتمتد حتى تشتمل على كل ولاية الموصل التي كان كليمنصو قد وافق على تركها جانبا ، في نظير تأييد بريطانيا له في كل من سوريا ولبنان . ولكن اللورد كيرزن عارض في ضم الموصل للعراق وفضل أن يضيفها إلى كردستان التي حاولوا إنشاؤها في ذلك الوقت . وسرعان ما ظهرت عصبة الأمم وفكرة الانتداب التي شارك في صياغتها الجنرال سمطس ، ونصت المادة الثانية والعشرين من قانون العصبة على وضع الأقاليم العثمانية السابقة تحت الانتداب ، بعد أن كانت الدول العظمى قد طالبت بذلك في معاهدة فرساي . فتكاثفت كل هذه العوامل لكي تصل بالعراقيين إلى مرحلة من الوعي أمام الأطماع الاستعمارية البريطانية في منطقتهم . وزاد الاتصال بين الوطنيين العراقيين في سوريا وبين أهلهم في العراق ، في الوقت الذي أخذت فيه بريطانيا في سحب جزء من حامياتها العسكرية من هذا الاقليم . واصطبحت هذا الانسحاب والتسريح العسكري وصول العائلات البريطانية إلى العراق ، ودل على أن بريطانيا قد قررت بقاء إدارتها المباشرة وجاءت بموظفيها لكي يستقروا ، ولدة طويلة ، في العراق .

وحاولت بريطانيا أن تلي بقبعة التمهيد للثورة العراقية على كاهل الأمير فيصل ، وعلى كاهل تركيا ، بل وحتى على كاهل روسيا والشيوعية . ولكنها نسيت أو تناست حيوية الشعب العراقي ، التي لولاها لما قامت الثورة ، ولما استمرت ، ولما سجلت إسمها خالداً لها في التاريخ .

٥ - الثورة وتغديرها :-

شعرت السلطات البريطانية في العراق بقوة الإثاء الوطني منذ سنة ١٩١٩ .

وكان هذا الاتجاه الوطنى عربيا ومتحددا ، مع بقية الأقاليم المجاورة . ففى شهر ديسمبر من ذلك العام دخل مدير منطقة الفرات ، الخاضع لولاية حلب السورية الى دير الزور على رأس رجاله الوطنيين ، وقبض على الضباط الادارى البريطانى وألقى به فى السجن وكانت هذه لطمة قوية للبريطانيين من « حلفائهم » العرب ومع عيد الميلاد ، ولم يخلص الضباط البريطانى من السجن إلا تعهد البريطانيين أمام جعفر باشا العسكرى ، والى حلب ، بترك دير الزور للعرب . وأصبحت هذه المدينة بعد ذلك مركزا من مراكز الدعاية الوطنية القومية العربية ، لشحذ همم الأهالى وللقيام ضد الحكم الاستعمارى وإعلان إنحدامهم مع اخوانهم العرب السوريين . كما أصبحت مركزا للإدارة العربية التى أخذت فى الاتساع حولها . ورضى الناس فى مناطق كثيرة بدفع الضرائب لها . ولم يكن فى استطاعة البريطانيين إرسال الحملات الى هذه المنطقة فكتفوا بالتهديد بضربها بالطائرات ، وبالقاء القنابل المدمرة عليها . ولكن ، سرعان ما عاد فيصل من أوروبا فى شهر مارس سنة ١٩٢٠ فصدر الأمر الى قواته ورجال حكومته السورية بعدم التماس فى فتح الجهات ، وعدم الاصطدام بالحلفاء ، وخاصة البريطانيين ، وتم الأمر بسحب القوات العربية من دير الزور . فظهر الاختلاف بين اتجاه فيصل بن الحسين وبين الضباط العراقيين فى القوات العربية . وأخذت بريطانيا فى سحب جزء من قواتها الموجودة فى العراق ، واصطحب ذلك ازدياد قوة دعاية جمعية العهد الوطنية ، فاصبح السفر على الطريق بين بغداد والموصل أمرا محفوقا بالمخاطر وأخذ المندوب المدنى البريطانى فى بغداد يشكو من أن الدعاية الموجهة ضد بلاده يقوم بها ضباط حكومة فيصل ، وهى الحكومة التى كانت بريطانيا تنفق عليها ومنذ بضعة سنوات . ولكن الحكومة البريطانية وجدت أن موقف

فيعزل الشخصى لا غبار عليه . وأخذت في نفس الوقت تنتظر صراعا بين القوات العربية في سوريا وبين الفرنسيين ، واستعدت من ناحية أخرى لمنع المعونة المادية والعسكرية عن الهاشميين ، إضعافا لهم في جبهة العراق ، وإضعافا لهم في الحجاز أمام قوات آل سعود .

وأختار رجال العراق الموجودين في سوريا الأمير عبد الله لعرش بلادهم ، في الوقت الذي انتخب فيه السوريون فيصلًا لعرش دمشق . ولكن سرعان ما صدر قرار مندوبي الحلفاء في سان ريمو في ٢٤ أبريل بوضع العراق تحت الانتداب البريطاني . فجاء ضربة قاضية على آمال الوطنيين العراقيين للوصول الى الاستقلال التام . وحاول ويلسون أن يضع دستوراً يعمل على اشراك بعض العراقيين في الحكم ، ولكن ظهر أن العناصر « المعتدلة » أو « الفاترة » نفسها لم ترضى بالتعاون على هذه الصورة مع السلطات البريطانية . وتدخلت سلطات لندن من جديد ، وكلفت ويلسون بأن يعلن في ١٧ يونيو قرب انتخاب مجلس تمثيلي ، واتخاذ الخطوات لإعلان دستور دولة عربية تتمتع بالحكم الذاتي . ولكن أحرار العراق صمموا على الحصول على حقوقهم كاملة ، واختاروا الثورة سيلا ، ودل هذا على فهمهم لمعنى الحرية التي تنزع ولا تمنح :

وانتشرت الثورة في كل أنحاء العراق ، وفي خلال أيام معدودة . وجاءت الأخبار من سوريا تحمل أبناء معركة ميسلون وهجوم الاستعماريين الفرنسيين على الأحرار ومرورهم فوق أجسادهم لكي يدخلوا دمشق . فتلور الموقف وظهر « الحلفاء » على حقيقتهم . وهاجت النفوس وثارَت النخوة العربية ونادت بالثأر بل بالموت ، وكانت تطلب الحياة .

لقد انصهر المعسكر الوطني في إقليم العراق داخل مبادي العروبة ، وجاءت الثورة عريية أصيلة ، نسي فيها الوطنيون الفوارق الاجتماعية ، ونسوا الحزبية والطائفية ، فكانت الثورة في البادية وفي المدن ، وارتفع الهياج في كربلاء والنجف ، وردد صدها رجال السنة في السهول والجبال . وأقفل التجار حوانيتهم وأضرب الموظفون عن العمل وقام العمال والزراعيون ورجال البادية بتخريب السكك الحديدية وخطوط مواصلات البريطانيين ومهاجمة المخازن العسكرية والمعسكرات . ورغم أن الفنين في عمليات التصف والتكثيف كانوا قلة بين العرب . ، إلا أن إرتفاع درجة الحماسة والرغبة في البذل والتضحية من أجل العروبة عوضتها . وجاءت الأخبار ذاكرة إغراق سفن النقل البريطانية في شط العرب ، وعلى الدجلة والفرات . ووجد البريطانيون أنفسهم محاصرين ، بل معرضين لهجمات قوية وهم في معسكراتهم ، ورغم تحصينهم وراء الاسلاك الشائكة وإعتمادهم على المدافع الرشاشة وسلاح الطيران ولم يتمكن البريطانيون إلا من الاحتفاظ بالعواصم الثلاث ، البصرة وبغداد والموصل . أما بقية الإقليم فقد أنقذته « حرب التحرير الوطنية » من سيطرتهم . وظلت القوي الوطنية مسيطرة على العراق من شهر يوليو حتى شهر أكتوبر وكبدت البريطانيين خسائر فادحة في الأرواح والأموال . حقيقة ان ضحايا العرب بلغت ثلاثة أضعاف الخسائر البريطانيين ، ولكن السلطات الاستعمارية فقدت في هذه الثورة ما زادت قيمته على أربعين مليون جنيه إسترليني من المهمات ، أي أكثر من ثلاثة أضعاف ما قدمته بريطانيا لحلفائها العرب منذ سنة ١٩١٦ حتى سنة ١٩٢٠ .

ولكننا نجد أن ثورة العراق قد بدأت في الهدوء مع شهر أكتوبر . فما الذي وقع ؟ لا يمكننا الادعاء بأن القوة الوطنية قد فترت أو وهنت ، خاصة وأن

السلطات البريطانية جمعت في فترة الستة أشهر التالية ما يقرب من ٧٠ ألف
بندقية منها ٣٠ ألف من طراز حديث ، وكانت تصحيتها كميات كبيرة من
الذخائر .

لقد حضر السير برسي كوكس الى جنوب العراق ، ومعه مشروع
« دستوري » للبلاد ، وتقام بشأنه مع « الأعيان » قبل أن يواصل سفره
ويدخل بغداد يوم ١٧ أكتوبر . ولا شك أنه قد ضمن في البصرة ولاء
الأعيان أو قبولهم التعاون في ظل هذا النظام ، وإلا لما خاطر بالسفر شمالا .
ولما تبجح متسائلا عن السبب الذي يواصل الثوار من أجله ثورتهم .

إذن يمكننا أن نقول بأن « الأعيان » قد انفصلوا عن العمليات الثورية
وعن تأييد الثورة ، نتيجة لمجيء المندوب البريطاني حاملا مشروعه الدستوري .
وكان عدد من الأعيان قد خشي على نفسه وعلى ممتلكاته ، وفي داخل المدن ،
من اضطراب الأمن ، ومن سيطرة الثوار وخروج الإدارة ، وهي بريطانية .
واستند آخرون إلى أن تركيا قد وقعت على معاهدة سيفر في ١٠ أغسطس
وتفوضت أيديها من كل البلاد العربية ، وسلمتهم ، بطريق غير مباشر « للحلفاء »
البريطانيين . وأكد كوكس وأتباعه لأعيان العراق أنهم مخلصون في نياتهم
تجاه الإقليم ومستقبله ، وأصرروا على ضرورة تعاون العراقيين معهم حتى
تعود الحياة إلى مجاريها ، والتجارة إلى أسواقها . وظهر أن كثيرا من الأعيان
كانوا من أتباع فكرة التطور البطيء ، ويخشون من الطفرة ، فما بالك
بالثورة ؟ لقد كانوا مستعدين للتعاون مع النظام الجديد لفترة من الزمن ،
ورغم علمهم بنقصه وضعف حالته فقد اعتقدوا أن شيئا خيرا من لا شيء . وارتفعت
بعض أصوات الجبناء قائلا « خذ... وطالب » ، وكانوا يحتمون في البريطانيين ،
وكان البريطانيون يحمونهم لأنهم من أعوانهم .

كانت العملية البريطانية إذن هي عملية تخدير لجسد العراق ، ويزيد تأثيرها على الأعضاء الضعيفة من جسد الأمة بأقوي وأسرع من تأثيرها على الأعضاء القوية النشطة . فيظهر الاختلال بين حركات أعضاء نفس الجسد ، وتسود الفوضى التي تدل على الانقسام ، وهذا ما هدف إليه الاستعمار .

وسرعان ما أعلن كو كس رغبته في تكوين « حكومة عراقية مؤقتة » ، تشتمل على مجلس من الوزراء العراقيين ، يعاونهم مستشارين بريطانيين ، وفي إنشاء إدارة مدنية عراقية . واشتملت هذه الحكومة على السيد طالب باشا وجعفر العسكري وماسون حزقايل^(١) وعلى غيرهم من « الأعيان » حسب إختيار كو كس . وكان من الطبيعي أن يعترف مجلس وزراء الدولة هذا بسلطة المندوب السامي البريطاني الذي قام باختيار أعضائه ، وبحقه في التصديق على كل المراسيم ، وعلى التعيين في الوظائف الكبيرة . وأصبح مجلس وزراء الدولة مسئولاً ، وتحت إشراف المندوب السامي البريطاني ، عن تسيير أجهزة الحكومة ، فيما عدا الشؤون الخارجية ، والعمليات الحربية وكل المسائل العسكرية ، وذلك إلى أن يتم وضع دستور أو قانون أساسي للعراق . أي أن بريطانيا قد استخدمت العراقيين في كبت العراقيين . وأن هؤلاء العراقيين قد وافقوا على كبت العراقيين وسهلوا بذلك على بريطانيا عملياتها الاستعمارية ، وعلى حساب الوطنيين .

وسرعان ما أظهر وزراء الدولة همة ونشاطا وانكبابا وتفرغا ، فانقلبوا

(١) يهودي عراقي - شارك في مجلس المبعوثان في القسطنطينية - ثم تعاون مع الإدارة البريطانية في بغداد وكان له نفوذ عالٍ ضخم في العراق ، وعلى الحكومة العراقية .

من عناصر وطنية سياسية إلى عناصر ادارية . ولقد جاهد جعفر العسكري ، مثلاً ، لكي يعيد الضباط العراقيين الذين عملوا مع فيصل في سوريا الى اقليمهم ، وكانوا في غالبيتهم من العناصر الوطنية التي اشتركت في جمعية العهد ، ولكن رجوعهم الى العراق أدخلهم ضمن نطاق هذه الأداة الحكومية ، التي بدأت في العمل ، وحرمتهم من العمل في السياسة . فالنتيجة هي تقليل المعارضة الوطنية الموجودة بالخارج ضد البقاء البريطاني في العراق . وأظهرت السلطات البريطانية من ناحية أخرى أنها لا تعمل ضد الأمانى الوطنية للعراقيين ، فأطلقت سراح المعتقلين السياسيين في جزر الخليج العربي . ولكنهم لم يتمكنوا من القيام بحركة ذات قيمة . وتفرغ العمل أمام وزراء الدولة من القضية العربية الى المشكلات العراقية ، ومنها الى الشؤون المحلية في زوايا الاقليم وأركانها . واضطروا إلى احترام وجهات النظر البريطانية حتى لا يقضوا على هذا الجهاز الذى بدأ في العمل . فحينما أصر البريطانيون على ضرورة تمثيل العشائر في البرلمان الجديد على أساس قبلى وبمقاعد محجوزة لشيوخهم . منعا لسيطرة المتعلمين على المجلس ، قام الوزراء بالمعارضة ، ولكنهم انتهوا بالموافقة والتراجع . وكذلك الأمر في مسألة تمثيل الاكراد . فصرفت الجهود في الدقائق والتفاصيل ، ونسيت الكليات . ولكن من الواجب علينا أن نشير إلى أن الجهاز الحكومى قد بدا ظاهراً واضحاً أمام الجميع ، وسارت الأمور في هدوء باشراف العراقيين ، وبمشورة البريطانيين الاجبارية ، حتى في أصغر الأمور ، وأتفها شأنها . ونظمت الادارة على أسس مشابهة لما كان في العهد العثمانى . ثم بدأوا في مشروع انشاء جيش عراقي يحل محل القوات البريطانية عند انسحابها من الاقليم . وكان هذا الانسحاب يهدف إلى الظهور بمظهر المتحرر ، غير المستعمر ، أمام العراقيين ، كما كان يوفر للخزانة البريطانية

مصرفات لا داعى لها ما دام فى قدرة العراقيين أنفسهم المحافظة على الأمن والنظام فى اقليمهم ، وما دام سلاح الطيوان الملكى مستعدا للتدخل فى أقرب وقت . ووضعت القوات العراقية تحت اشراف وزير الداخلية إلى أن يتمكن وزير الحربية من تنظيم وزارته بعد سنة . وأصبح نوري السعيد ، صهر جعفر باشا العسكرى . رئيسا لأركان حرب هذه القوات . وأنشأت مدرسة حربية فى يوليو سنة ١٩٢١ لمدادها بالضباط . ثم عمدت بريطانيا إلى اتمام عملية التخذير حتى يتسنى لها وضع العراق على المشرحة فى حجرة العمليات وتقوم بتجربتها حتى النهاية . فنقلت شئون العراق إلى ادارة الشرق الأوسط التى أنشأتها فى وزارة المستعمرات سنة ١٩٢١ . وما أن استلم ونستون تشرشر ، وزير الحربية السابق منصب وزير المستعمرات ، حتى دعى إلى عقد مؤتمر فى القاهرة لدراسة شئون الشرق الأوسط عامة ، واتخاذ القرارات اللازمة للمستقبل . واجتمع هذا المؤتمر فى ١٢ مارس وشاركت فيه شخصيات قائد القوات العسكرية فى العراق وجعفر العسكرى وساسون خزقايسل . ودرست فيه مسائل اختيار حاكم للعراق ، ومعاملة الاكراد ومستقبلهم ، وضغط المصروفات البريطانية ، وإنشاء قوات دفاع عراقية تحمل مغل القوات الامبراطورية .

أما عن مسألة الحاكم ، فلقد فضل البريطانيون الابتعاد عن الشخصيات العراقية نفسها ، مستندين الى أن نقيب بغداد كان متقدما فى السن والى أن السيد طالب النقيب من البصرة كان يمتاز بالطموح ، واهمـؤة فى نفس الوقت باستغلال منصبه الوزارى الذى احتله منذ أشهر مع دودة وبعدم التقيد باللوائح والنظم المالية . وكذلك رفضوا فكرة تعيين الأمير برهان الدين العثمانى الذى أمتاز بميل الاكراد والسنة الية ؛ ورفضوا

أغا خان الذي كان يسيطر على عدد كبير من الشيعة حتى لا يثيروا مشكلات دينية طائفية ، ورفضوا أمير عربستان ، وفكرة تعيين عبدالعزيز آل سعود الذي كانت شخصيته مستقلة لا غبار عليها ، ولا يسهل على بريطانيا توجيهها . ولكن أعضاء المؤتمر وجدوا أن الأمير فيصل بن الحسين هو أصح من يملأ هذا المنصب بعد أن فقد عرش سوريا . وكانت معرفة البريطانيين به منذ الحرب . وسيطرته على الضباط العراقيين في القوات العربية مما يزيد في قيمة أسهمه . وكان ويلسون قد اقترحه بالاسم منذ اعلان ثورة العراق في يوليو سنة ١٩٢٠ فوافق عليه أعضاء المؤتمر ، وأمر اللورد كيرزن الكولونيل كورنواليس ، الذي خدم في السودان ، وصديق فيصل في الحرب ، أن يعرض عليه عرش العراق . ولقد رفض فيصل في أول الأمر هذا العرش ، مستندا إلى ان الوطنيين العراقيين قد منحوه لأخيه الأكبر ، الأمير عبد الله . ولكن البريطانيين أصرروا على عرضهم وشرحوا له أن الأمر سيستند إلى الانتخاب . وشجعوه على زيارة العراق ، واقترحوا عليه أن يعرض نفسه على العراقيين كملك ، وأبلغوه أنهم لن يعارضوا في انتخابه بعد ذلك ، وشرحوا له أن الانتخاب في مثل هذه الظروف لا يحمل الا عوامل النجاح . وكانت هذه المسألة ، مسألة الملكية ، هي البطاقة الرئيسية التي اعتمد عليها البريطانيون لاتمام تخدير الموقف في العراق ، ولاتمام تجربتهم في هذه المنطقة العربية ، التي أرادوا اعطاءها شخصية متميزة منفصلة عن شخصية غيرها من الأقاليم ، وشغلها بمشكلاتها الخاصة ، فتنسى مبادئ الوحدة العربية .

وأما مسألة الإكراه فقد صعب على أعضاء المؤتمر الوصول الى حل

لها، إذ أن العرب قد أصروا على ضرورة ضم مناطق الأكراد للعراق وظهر أمام البريطانيين أنه لا يمكن إقامة دولة كردية في الشمال، خاصة وأن مصطفى كمال أتاتورك كان قد رفض السماح للأكراد بالانضمام بالشاركة في مثل هذه الدولة، وفرض عليهم البقاء داخل الحدود الوطنية لتركيا الحديثة. فعملت بريطانيا على إمساك العصي من النصف، وقررت ضم مناطق الأكراد للعراق، على أن تقام في مناطقهم إدارة خاصة بهم. وكان هذا الوضع المعتدل، أو المائع، يسمح بوقوع مشكلات جديدة بين العرب والأكراد، ويسمح لبريطانيا بالتدخل كحكم بينهما. كما كان يسمح لها باستمرار الحصول على مواد البترول في شمال العراق، مخبئة وراء الدولة العراقية في بغداد.

ولقد اتخذ المؤتمر قرارات هامة بشأن مسائل الدفاع، فقرر ضرورة تخفيض عدد الحاميات البريطانية في العراق وكلف سلاح الطيران الملكي البريطاني بأن يحل محلها. وزاد من عدد القوات العراقية بإدخال عناصر كردية وآشورية فيها، ووضعها تحت تعرف المندوب السامي البريطاني، ثم سلمها إلى القائد العام البريطاني ليشرف عليها. فأصبح لبريطانيا في العراق قوات عسكرية من «الأقليات» المحلية يمكنها أن تقف يوما في وجه القوات العربية التي ستقوم حكومة بغداد بتجنيدھا.

وانتهى مؤتمر القاهرة في يوم ٢٥ مارس وعاد السيد برسي كوكس الى بغداد في أواسط أبريل، وكانت مسألة اختيار حاكم جديد للعراق هي ما تشغل الرأي العام. ولم يصبر نقيب بغداد كثيراً على معارضته لفصيل. ولكن السيد طالب (من البصرة) حاول أن يثبت وجوده ويصر على أحقيته

بهذا المنصب . وكان قد أعلن أنه سيثير القبائل ويعيها الآلاف لمنع البريطانيين من فرض مرشح بعينه . فاضطر السير برسي كوكس إلى القاء القبض عليه ونفاه إلى سيلان ، إخلاء للجو أمام مرشح البريطانيين . وأعلنت السلطات البريطانية العفو العام عن كل من شارك في الثورة ، واستعدت العراق لاقامة الأفراح والترحيب بقدوم فيصل ، ملك العراق .

واتفق البريطانيون مع فيصل على تفاصيل الاستقبال والاحتفال . فترك جدة في يوم ١٢ يونيو مصحوباً بالكولونيل كورنواليس وبعض رجال حاشيته . ورأي سان جون فيلي هذا الترتيب ، وكان من أنصار ترك الحرية كاملة أمام العراقيين لانتخاب ملكهم ، بل كان من أنصار النظام الجمهوري ومن المعجبين بابن سعود ، فاستقال من منصبه كمستشار للشئون الداخلية في العراق . وما أن وصل فيصل إلى البصرة حتى أقيمت حفلة كبيرة لاستقباله . وأعلنت بريطانيا أنها لا تضع أي عقبات في سبيل وصوله إلى عرش العراق . وأتمت شخصية فيصل ما بقي من التمثيلية فالتف حولها حتى من عارضها في أول الأمر ، ورؤوا فيها الحصول على شيء ، بدلاً من العدم ، ورمزاً لبناء جديد ، بدلاً من العيش في فراغ تام .

ولم تنتظر حكومة لندن الوصول إلى صلح نهائي مع تركيا ، ولم تحاول إقرار الأمر والاتفاق عليه مع الفرنسيين في سوريا ، ولا مع سلطات الهند البريطانية ، كما أنها صرفت النظر عن اتجاه عصبة الأمم ، وعن موقف الممثل الأمريكي فيها ، وهو الذي طالب بضرورة تقرير مستقبل العراق دولياً قبل أن تتصرف فيه بريطانيا بمفردها . وكانت كل هذه الاعتراضات مما يرهب فيصل ، خاصة وأنه شعر بأن كل من سلطات الهند ، وفرنسا ،

وأمریکا كانت تحاول التدخل ، فزاد ميله بل واستسلامه للبريطانيين . وكانت خطة السير برسي كوكس الأساسية تتلخص في إنتخاب مجلس تأسيسی يقوم بدورة بانتخاب الملك . ولكن هذه الخطة كانت تطلبت وقتا ، وخشيت بريطانيا من وقوع مفاجآت أو انقلاب جديد في الموقف . فقرر مجلس وزراء الدولة في ١١ يونيو إنتخاب فيصل ملكا على العراق وعلى شرط أن تكون حكومته دستورية انتخابية وحررة في حدود القانون . ووافق كوكس على ذلك ودعمه بإجراء إستفتاء شعبي .

ووقع الإستفتاء في نهاية شهر يوليو سنة ١٩٢١ . وحاول بعض العراقيين إدخال تعديل على صيغته أو الاضافة عليها . فطالبوا بالاستقلال التام ، أو بتكوين مجلس دستوري في ظرف ثلاثة أشهر مثلا ، أو باقامة إدارة لامركزية . وأمتنع البعض عن التصويت ، ورفض آخرون فيصلا كملك . وأعلنت النتيجة بفوزه بـ ٩٦٪ من الأصوات . ورغم إصدار بعض المعارضين على أن بريطانيا هي التي أشرفت على الانتخابات وان هذه النسبة المؤية غير معقولة ، إلا انها هي النسبة التي اعلنت بالفعل .

واستلم فيصل عرش العراق رسميا في ٢٢ أغسطس كأول ملك للبلاد . وكان وجوده يفرض الطاعة على الضباط الوطنيين والشعب ويحمل معنى النظام والاحترام . فسارت هذه الآلة الجديد وأخذت في العمل ، وداخل النطاق الذي رسمها لها رجال الامبراطورية البريطانية . وانشغلت المملكة العراقية بمشكلاتها المحلية ، وظهرت بشكلها المستقل أو المتميز عن غيرها من الوحدات العربية الأخرى . وصرفت جزءا كبيرا من مجهودها نفسها ، وفي علاقاتها مع جيرانها ، ومع السادة البريطانيين . ودخلت العراق في هذا الدور الجديد من حياته ، طور المملكة .

الفصل السادس

المملكة العراقية

أعلنت المملكة في العراق دون أن توضع لها الأسس اللازمة ، فلم تكن السيادة قد انفصلت عن تركيا ، ولم يكن نظام الانتداب قد حظى بموافقة عصبة الأمم بعد . ورغم أن بريطانيا كانت تسعى للحصول على الانتداب على العراق ، فإن العراقيين كانوا لا يرحبون بمثل هذا النظام . وأعلنت الملكية على أنها دستورية ، ولم يكن الدستور قد وضع بعد . وكان من الضروري على هذه المملكة العربية أن ترتبط ببريطانيا بمعاهدة خاصة ، ولم تكن بريطانيا نفسها قد وضعت بنود مثل هذه المعاهدة بعد . ورغم ذلك فقد أخذت الادارة الحكومية في العمل والتمرن على تصريف امور البلاد . كانت المهمة شاقة على مثل هذه الحكومة وبخاصة أمام ضعف الميزانية ، وقلة الإمكانيات المالية ، في وقت فكرت فيه حكومة بغداد في البدء في إنشاء جيش وطني ، وأضطرت الى الاتفاق على بلاط ملكي . وكان الرأي العام البريطاني يطالب بخفض المصروفات في الامبراطورية . فوضح أمام حكومة بغداد ضرورة اعتمادها على نفسها وعلى الله وأصبح عليها أن تسير أمورها وفقا لمواردها المحلية .

وكانت الحالة السياسية تجبر الحكومة العراقية على الاحتفاظ بتأييد بريطانيا . إذ كانت تركيا تصر على الاحتفاظ بولاية الموصل ، وحاولت أن تؤيد حركة السيد احمد الشريف السنوسي لطرد حكومة بغداد ولتطهير العراق من المحتلين الاجانب . وحضر هذا المجاهد العربي الى ديار بكر ، وأخذ

فى جمع الأعوان ، وحاول أن يخلق المشكلات أمام الحكومة العراقية ومن ناحية أخرى كان تفوذ عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ينتشر ، وأخذ فيصل الدويش قائد الإخوان فى التوغل فى الأراضى العراقية من وقت لآخر . كما نجح السعوديون فى ضم منطقة الرشيد (شمر) الى إقليم نجد . فإى مجهود قام به أبناء العراق للكفاح ضد الاستعمار ؟ وفى هذا الجو المحيط بهم ؟ ومع هذه العوامل الداخلية والخارجية التى أثرت فىهم ؟

١ - المعاهدة مع بريطانيا :

كان فيصل قد وافق قبل مجيئه الى العراق على الاقتراح البريطانى الخاص بتنظيم العلاقات بين إنجلترا والعراق عن طريق معاهدة . وفضل هذا الوضع على إنشاء حكومة تحت الانتداب السافر الواضح . وكذلك وافقت حاشيته على هذا الاقتراح ، الذى بدأ وكأنه يقلل من قبج الحجر الدولى ومهائنه ويوهم الناظر من الخارج بأن للعراق مكانة الدولة المستقلة المرتبطة بتعهدات دولية . وكانت هذه هى الطريقة الوحيدة أمام بريطانيا ، تضمن مصالحها وتحافظ على أطباعها وتفوذها وعلى حساب الغير . ولكن الموقف لم يفضل العناصر الوطنية العراقية ، إذ أنها وجدته مختلفا عن الاستقلال التام الذى جاهدت وكافحت من أجله .

ولقد أظهر فيصل عداؤه لنظام الانتداب ، وتحفظه تجاه أى معاهدة تحاول إخفاءه فى الشكل الخارجى ، وبقائه فى الأساس . وأعلن ذلك صراحة للمستتر تشرشل . ولكن بريطانيا كانت قد أحضرت فيصل الى العراق ولكى تواصل سياستها الاستعمارية فى المنطقة ، وبالشكل الذى رسمته هى ، ولم تكن قد استعانت به لكى يوجه سياستها أو يتحكم فى مصالحها .

وقررت عصبة الأمم في ربيع سنة ١٩٢٢ وضع العراق تحت الانتداب البريطاني . وجعل هذا القرار من بريطانيا دولة متحكمة في العراق وفي الشؤون الادارية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والتشريعية . فواصل البريطانيون ممارسة أعمالهم ، وأدعوا أنهم متحررين حيث دعوا الحكومة العراقية الى عقد معاهدة تنظم العلاقات بين البلدين .

وبتلور الجو السياسي بظهور العناصر الوطنية التي كان من بينها كثير من رجال الشيعة وعلمائهم ، ومن رجال فيصل وحاشيته . ورفعت هذه العناصر المخلصة أصواتها ضد « إستعباد » الانتداب ، وطالبت بالجلاء البريطاني التام عن العراق . فعملت السلطات البريطانية على موازنة هذه القوة الاصلية بقوة صناعية ، أمدتها بالأموال والامكانيات ، وأخذت تعبر عن وجهة نظرها في ضرورة بقاء الحكم البريطاني الى أن تصل البلاد الى المرحلة التي تتمكن فيها من إدارة شئونها بنفسها . وبين هذين الاتجاهين ، الأصلي والصناعي ، نجد الوطنيين « المعتدلين » ومعهم فيصل ، يمارضون نظام الانتداب ويطالبون بعقد معاهدة وباستمرار تعضيد حكومة لندن للعراق ووقوفها الى جانبه ، أي أنهم يطالبون بما ترغب وزارة المستعمرات البريطانية في أن تمنحه للعراق حتى تحتفظ بالجواهر وتظهر بمظهر المتحرر وتستخدم العراقيين في كبت العراقيين ، لمصلحة القوى الاستعمارية .

وأخذت العناصر الوطنية في المطالبة بالاستقلال التام ، وسارت المظاهرات في شوارع بغداد وتقدم المظاهرون بمطالبهم الى فيصل ونشأت المشكلات في الإقليم حيث رفض بعض المديرين الاستماع الى نصائح المستشارين البريطانيين الاجبارية وتوجيهاتهم ، ثم استقال خمسة من الوزراء إستقالة

جمعية في مارس سنة ١٩٢٢ ، فاضطرت الوزارة أمام ذلك الموقف إلى قبول المعاهدة في أواخر شهر يونيو ، واشترطت - رغم احتجاجات السير برسي كوكس - أن تصدق عليها الجمعية التأسيسية في نفس الوقت الذي ستوافق فيه على القانون الأساسي وقانون الانتخابات .

وكان قانون الانتخابات قد نشر منذ شهر مايو ؛ فأخذ العراق يستعد للحملة الانتخابية ، وكان هذا مجالا خصبا لفضح مساوي المعاهدة والنيات الاستعمارية البريطانية . ورغم أن موقف « الحزب الحر » كان معتدلا ، إلا أن كل من الحزب الوطني وحزب النهضة أصرا على ضرورة رفض هذه المعاهدة . وارتفعت الصيحات محذرة من الاشتراك في الانتخابات ، وهددت غيرها بالويل والثبور لكل من يهادن في إستقلال العراق . وشعرت الوزارة بأنها في مهب الريح ، وبأن الملك لا يؤيدها ، فاستقالت في ١٤ أغسطس . وبدا أن فيصل يؤيد هذا الاتجاه الوطني ، فأخذت العلاقات تسوء بين القصر وبين المندوب السامي البريطاني . وأهان أحد الوفود الوطنية ومعهما أحد رجال البلاط السير برسي كوكس على سلام القصر الملكي . ورغم أن الحكومة العراقية قد اعتذرت رسميا عن ذلك إلا أن فيصل رفض معاقبة الوطنيين المشتركين فيه . ولكن فيصل تعرض في ذلك الوقت لازمة في الزائدة الدودية واضطر إلى إجراء عملية جراحية " ، وقام السير برسي كوكس باستخدام القوة ضد العناصر الوطنية . فشرح للعراقيين سياسة

(١) صرح الأطباء الذين أرسلهم والده الملك حسين بن علي من الحجاز بأن العملية كانت ناجحة .

الحكومة البريطانية ومسئولياتها وهدد الوطنيين والمتطرفين ، وأصدر الأمر بحل الحزبين الوطنيين (الوطني والنهضة) وبإغلاق صحفها وبالقضاء القبض على بعض الزعماء وبنفيهم من البلاد كما قامت طائرات سلاح الطيران بالقضاء القنابل على المناطق التي أعلنت فيها الثورة . فساد العراق جوا من الوجوم ، خاصة وأن العراقيين لم يتأكدوا مما أصاب الملك ، أو ما قد يصيبه . وأعلن فيصل رسميا في يوم ١٠ سبتمبر شكره للسير برسي كوكس على الاجراءات التي اتخذها . وكانت هذه الاجراءات قد حافظت على « النظام الجديد » من الثورة واحتفظت لفیصل بعرشه بدلا من تفكيره في إمكانية العزل أو النفسى من جديد . وأعلنت حكومة بغداد أن التوصية بقبول العراق في عصبة الأمم تضع حدا لنظام الانتداب . وبررت بذلك عملها ومهدت للتوقيع على المعاهدة في يوم ١٠ أكتوبر سنة ١٩٢٢ .

وكانت بنود هذه المعاهدة متفقة مع فقرات قرار الانتداب مما يسمح لبريطانيا باستمرار السيطرة على العراق . وتعهد فيها ملك العراق باستشارة الحكومة البريطانية في كل الشؤون الهامة ، وخاصة في المسائل الدولية والمالية . وكذلك تعهد باستشارة المندوب السامي البريطاني في كل ما يتصل بسياسة العراق المالية والنقدية ، وبعدم تعيين موظفين أجانب من غير البريطانيين ، وبعدم قبول أوراق اعتماد ممثلى الدول الأجنبية دون موافقة البريطانيين ، وبعدم التنازل عن الأراضى أو تأجيرها أو تسليمها لدولة أو هيئة أجنبية ، وبتنفيذ النصائح البريطانية في شئون العدل . وكذلك تعهد بالألا يشتمل الدستور على ما قد يتعارض مع هذه المعاهدة ، وذلك بالمادة الثالثة التي جعلت من القانون الأساسى فرعا

للمعاهدة وملحقا بها والتي نصها : « يوافق جلالة ملك العراق على أن ينظم قانونا أساسيا يعرض على المجلس التأسيسي العراق ويكفل تنظيم هذا القانون ، الذي يجب ألا يحتوي على ما يخالف نصوص هذه المعاهدة » . ونجد أن ملك بريطانيا قد تعهد في المادة السادسة بالتوصية بدخول العراق في عصبة الأمم في أقرب وقت ممكن ، ولم يدخل العراق في العصبة إلا في سنة ١٩٢٢ أي بعد إحدى عشر سنة من التوقيع على المعاهدة .

وقد ألحق بالمعاهدة أربعة ملاحق لتفصيل الشؤون التي تهم بريطانيا بنوع خاص وهي الشؤون العسكرية ، والشؤون المالية ، وشؤون الموظفين والخبراء الأجانب ، وشؤون العدل .

أما الملحق العسكري فقد نص على إمكانية وصول العراق في بحر أربع سنوات الى مرتبة الدول التي يمكنها أن تدافع عن نفسها ، ولذلك فقد فرض على حكومة بغداد أن ترصد مالا يقل عن ربع ميزانيتها لشؤون الدفاع . واحتفظت الحكومة البريطانية بحق إقامة حاميات لها في العراق ، بل وبحق تجنيد العراقيين في القوات البريطانية . واحتفظت للقائد العام البريطاني بحق التفتيش على الجيش العراقي والقوات العراقية الخاضعة لحكومة بغداد . وتعهدت الحكومة العراقية بالاستماع الى نصائح المندوب السامي البريطاني في كل ما يتعلق بحركات الجيش وتوزيعه ووسائل تدريبه . واحتوى الملحق على نصوص لاعطاء إمتيازات وإعفاءات قضائية ومالية وخاصة بالمواصلات والبريد والبرق - للقوات البريطانية في أراضيها . ولقد تعهدت الحكومة البريطانية بمساعدة العراق

عسكريا لصد كل عدوان خارجي أو اضطراب محلي أو ثورة مسلحة
إلا إذا ما قرر المندوب السامي البريطاني أن هذا الخطر الداخلي أو
الخارجي كان نتيجة لقيام حكومة العراق بعمل يخالف لمشورته أو
بإجراءات لا تتفق ورغبات الحكومة البريطانية . أي أن هذا الملحق قد
وضع العراق وامكانياته تحت تصرف السلطات العسكرية البريطانية وبشكل
يسمح لها حتى بعدم الدفاع عن حكومة بغداد ، إذا ما وجدت أن مصالحها
تملي عليها ذلك .

وأما الملحق الخاص بالشئون المالية فقد نص على ضرورة تحمل
الحكومة العراقية نفقات الإدارة والدفاع الخارجي والأمن الداخلي ، وعلى
نقل مرافق الري والجسور والبرق وميناء البصرة إلى ملكية العراق ،
مقابل ثمن يبلغ ستة عشر مليون روية ، تعتبر دينا واجب الأداء ، وعلى
بقاء السكك الحديدية ملكا لبريطانيا مع نقل إدارتها لحكومة العراق ،
إلى أن يتفق الطرفان على بيعها وشرائها ، وعلى بقاء جميع الأراضي
والأبنية التي يحتلها البريطانيون لشئون عسكرية أو مدنية في حياتهم
وتحت تصرفهم ، وعلى تعهد الحكومة العراقية بنقل ملكية كل ما قد
يحتاج إليه البريطانيون من أبنية وأراض إذا كانت من ممتلكاتها
وبنزاع ملكيتها من الأهالي إذا كانت من الأملاك الخاصة ، وإصدار كل
المراسيم والقوانين اللازمة لذلك ، وإلى أن تنتهي حاجة البريطانيين لهذه
الأملاك . وتعهدت حكومة بغداد بعدم التدخل ضد شراء الرعايا
البريطانيين للأراضي والأملاك الخاصة من أصحابها .

وأما الملحق الخاص بشئون الموظفين والخبراء الأجانب فقد نص

على عدد ووظائف الموظفين البريطانيين . وألحقت به جداول عديدة بأسماء الوظائف ، وفي كل إدارة ، والتي يجب الاحتفاظ بها للبريطانيين من درجة مستشاري الوزارات ، والمديرين ، والمفتشين المساعدين ، ورؤساء الدوائر والادارات الفنية . وكانت رواتبهم تزيد على ضعف مرتبات العراقيين ، علاوة على منح السفر ، والمساكن الحكومية .

وأما الملحق الخاص بشئون العدل فقد تعهد فيه ملك العراق باستخدام حقوقيين بريطانيين وبمنحهم سلطات قضائية لمحاكمة الرعايا الأجانب الذين يرفضون الخضوع للقضاء الوطني . وكذلك تعهد بعرض كل اللوائح القانونية ، المتعلقة باختصاص المحاكم وتشكيلها وأصول المرافعة وتعيين الحكام وعزلهم ، على المندوب السامي ، وقبل عرضها على السلطة التشريعية ، وذلك لابتداء رأيه في كل ما يمس مصالح الأجانب . وظلت موافقة المندوب السامي ضرورية لكل ما يمس تعيين رؤساء وأعضاء محاكم الاستئناف والتمييز أو انتهاء خدمتهم .

ولكن التوقيع على المعاهدة لم يقض على الحركة الوطنية المعارضة لها . وأخذ كل من العلماء ورجال الاحزاب يدعون الى مقاطعة انتخاب المجلس التأسيسي الذي سيصدق عليها . وظهرت السياسة البريطانية مهددة في العراق ، خاصة وأن تركيا كانت متصلة في مسألة الموصل ورفضت اعتبار هذه المنطقة خارجة عن السيادة والتركية . فاستقالت وزارة النقيب ولكن سرعان ما تألفت بدلا وزارة عبد المحسن بك السعدون التي تضمنت عدداً من ممثلي الشيعة ، مع ساسون حزقايل ، وكل من ناجي السويدي وباسين الهاشمي ونوري السعيد . ولقد وافقت هذه

الوزارة الجديدة على مبدأ المعاهدة ، وتعهدت بالعمل على انتخاب المجلس التأسيسي ، ووجهت انظار الجميع الى ما وراء الحدود والى الخطر الخارجى التركى على وحدة العراق فى ولاية الموصل . وأفادت بريطانيا من هذا التغيير فى اتجاه رأى العام لكى تدخل بعض التعديل على علاقتها بالعراق وفى مسألة المعاهدة . وكان ذلك من المرونه ، وانتظارا لتطور الأحداث داخل العراق ، وحول العراق .

وكانت الحكومات البريطانية قد خشيت من تفاقم الحالة وهياج رأى العام العراقى ومن قيام ثورة جديدة تكلفها الأموال والرجال ووجدت أنه من السهل الحاق بروتوكولا بالمعاهدة ينص على تخفيض مدتها من عشرين سنة الى أربع سنوات . فيظهر أمام العراقيين الأمل فى قرب الوصول الى الاستقلال وتختفى عوامل الشقاق بينهم وبين البريطانيين وحمل السير برسى كوكس هذا البروتوكول بنفسه عند عودته من لندن فى مارس سنة ١٩٢٢ ووقع عليه عبد المحسن بك فى أواخر شهر أبريل وقبل أن يترك كوكس منصبه للسير هنرى دوبس dobbs كمنسوب سام لبريطانيا فى العراق تأكد من أن جزء كبيرا من عداة العراقيين لبريطانيا قد اختفى . وكان ذلك نتيجة لتقوية العناصر المعتدلة والتمويه على القوى الوطنية بقرب الحصول على الاستقلال . أما العناصر التى فشلت بريطانيا فى التمويه عليها ، وعجزت أمام عمق فهمها السياسى وإخلاصها القومى ، فقد أصبح من السهل على السلطات المحلية العراقية أن توقف نشاطها وتقضى على معارضتها أو تنفيها من البلاد . ووافق فيصل على هذه الخطة وتفسدها حيث قام بزياراته « السعيدة » لوسط العراق وجنوبه . ويذكر التاريخ فى هذا الموقف أسماء الشيخ مهدي الخالص وابنه ،

الذين حددت اقامتها في البصرة ثم أخرجوا من العراق وحينما ارتفعت صيحات الشيعة بالاحتجاج وقام عدد منهم بالهجرة إلى فارس واجبروا حكومة طهران على التدخل من أجل رؤسائهم الوطنيين ، أصمت حكومة بغداد آذانها عن نصائح جارتها وعن كل صيحات . وبدا الموقف وكان قادة السنة وعلى رأسهم فيصل ، يحاولون كبت الشيعة المعارضين الانجليز . ولم تدخل السلطات البريطانية في هذا الموقف الذي سمح لها بالقضاء على المقاومة المعارضة لها . بل أن حكومة بغداد قد طلبت من السلطات البريطانية الاهتمام بأمر ولاية الموصل ومحاولة جذب العناصر التركمانية والكردية فيه صوب بقية العراق . وجاء التدخل البريطاني على حساب المقاعد في المجلس التأسيسي ، إذ أن المندوب السامي البريطاني وعد الأكراد بالاشتراك في الانتخابات المقاعد العامة علاوة على المقاعد العشرين المخصصة لمنطقتهم .

و حينما استقالت وزارة عبد المحسن بك في نوفمبر سنة ١٩٢٢ نتيجة للخلافات مع الشيعة ولسوء التفاهم مع فيصل ، شكل جعفر باشا العسكري الوزارة الجديدة . وكانت أول وزاره عراقية لا يشترك فيها ساسون حزقايل اليهودي وزادت أسهم فيصل في أعين العراقيين حين أعلن والده الحسين نفسه خليفة على المسلمين في شهر مارس سنة ١٩٢٤ . وفي هذا الجو اجتمع المجلس التأسيسي وكان التصديق على المعاهدة مع بريطانيا في قائمة جدول الأعمال .

وسرعان ما أخذ أعضاء المجلس التأسيسي في مناقشة المعاهدة وملاحقها . وظهرت فداحة الشروط المفروضة على بلادهم ، وخاصة في المجلس الخاص بالشؤون المالية ، فتبلورت المعارضة من جديد ، وفي مجلس الدستور . وكانت فرصه للتنفيس عما يجيش بالصدور وللتعبير عما يأملون من حرية واستقلال

فعلين . وسارت المعارضة الى المهاجمة، وارتفعت الأصوات لفصح نيات بريطانيا الاستعمارية ، ولشرح موقف الفتور والتخاذل ، وللمطالبة بالتضحية . وكان أقل الوطنيين جرأه يطالب باتخاذ موقف سلبي على الأقل وبعدم التصديق على المعاهدة وعدم تحمل هذا الوزر أمام الوطنيين وأمام التاريخ . ولقد حاول بعض الفاترين أن يدافعوا عن مبدأ خذ وطالب فكادوا أن يقتلوا في داخل المجلس ، وعجزت الشرطة عن المحافظة على الأمن خارج المجلس ، واضطر الجيش الى النزول إلى الشارع .

ولقد أخذ ممثلوا الشعب أو المسئولين عن مستقبل الشعب مهمتهم جدياً . وكان في استطاعة كل الوطنيين أن ينضموا إليهم ، وبما فيهم فيصل، فيعلنوا كمجلس تأسيسى إستقلال بلادهم وحريةها وعروبته . ولم يكن من السهل على بريطانيا أن تقضى على حركتهم ، وهم المكلفون من الأمة بوضع الدستور ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . ولم يخرج فيصل من قصره . وقام المنسوب السامى البريطانى بالباقي . فشرح أن بريطانيا قد قبلت المهمة التى ألقته على كواهلها عصبة الأمم وفي صالح العراق ، وأن بريطانيا تعد بتعديل المعاهدة بتعديل المعاهدة فى المستقبل . وادعى أنه لا يمكن رفض المعاهدة ، أو تعديلها قبل الموافقة عليها . وأمر بضرورة التصديق على المعاهدة قبل يوم ١٠ يونيو . وهدد بأن تبلغ حكومته الأمر لعصبة الأمم اذا لم يتم التصديق على المعاهدة فى هذا التاريخ ، وبأن حكومته ستبحث عن وسائل مختلفة لاتعتمد على الصداقه ولا على المعاهدات الكريمة ، لكى توفى بتعهداتها تجاه المنظمة الدولية .

وواصل أعضاء المجلس رفضهم حتى النهاية . ولكنهم كانوا بغير قيادة أو

امتنعت رأسهم المتوجة عن قيادتهم في هذه المعركة ، رغم إدعائها بأنها ملكية دستورية . ورفض المندوب السامي البريطاني أن يطيل في أجل المهلة حتى لمدة أربعة وعشرين ساعة . وأخيرا نجح جعفر باشا رئيس الوزراء في جمع ٦٩ عضوا من الأعضاء المائة في المجلس التأسيسي ، وحصل على ٣٧ صوتا الى جانب المعاهدة أمام ٢٤ صوتا في المعارضة وامتناع ثمانية عن التصويت وحتى مع هذه النسبة الضئيلة نجد أن أعضاء المجلس قد أضافوا على التصديق ، واشترطوه بضرورة البدء في مفاوضات جديدة لتغيير الملحق الخاص بالشئون المالية في أقرب وقت وفي صالح بلادهم ؛ كما إشتطوا عدم نفاذ المعاهدة بأكملها في حاله فشل بريطانيا في الدفاع عن مصالح العراق في كل ولاية الموصل فكان العراق قد وافق مؤقتا على المعاهدة وملاحقها وشروطها في مقابل مايتظره من أمر الموصل .

ثم انشغل المجلس التأسيسي بوضع الدستور ، وبوضع قانون الانتخاب وتكونت وزارة جديدة برئاسة ياسين الهاشمي . فزاد الانشغال بتفاصيل الشئون الداخلية ، واتجهت الانظار إلى الموصل الذي تعرض للخطر التركي وإلى بريطانيا لكي تساعد في الوصول الى الوحدة الاقليمية للعراق . فخفضت الأصوات المعارضة للاستعمار البريطاني ، وتناسى القادة ، داخل حدود العراق ، بقية بلاد العروبة ، وهم من العرب .

٢ — مشكلة الموصل والبتروول :

كانت ولاية الموصل تشتمل على سكان من العرب والاكراد مع بعض العناصر التركية . وساعدت فترة الحرب العالمية الأولى على امتدادا لحركات القومية إلى هذه المنطقة واستناد هذه القوميات الى مبادئ حرية تقرير المصير

الذي موه بها الغرب على الزعماء الوطنيين . وكانت المنطقة في غاية الاهمية من الناحية الاستراتيجية ، إذ أنها منترق الطرق بين العراق-وسوريا وتركيا وايران وجنوب روسيا . وزاد من أهميتها أن وجد بها البترول ، عصب الصناعة والحرب ، وميدان استغلال واستثمار رؤوس الأموال .

وقامت المشكلة في الأصل بين الجانبين الوطنيين ؟ العرب والأتراك ، أو بمعنى أصح مملكة العراق والجمهورية التركية . ولكن نظام الانتداب لم يترك للعراق حرية الدفاع عن نفسه ، وعهد بهذه المهمة الى بريطانيا ، التي كانت لها مصالح استراتيجية واقتصادية واضحة في المنطقة . فأدى الأمر الى نشوء جبهتين ، جبهة تركية ، وجبهة عراقية - بريطانية تنافستا للسيطرة على الموصل .

واستند الأتراك إلى الجنس فادعوا أن الأكراد يقربون من الأتراك ، وأن عددهم يزيد على عدد العرب في الولاية . كما استندوا الى العامل الاقتصادي وأدعوا بأن مصالح المنطقة وتجارها مرتبطة باسيا الصغرى . كما استندوا الى القانون وذكروا أن البريطانيين قد احتلوا المنطقة بعد الهدنة في نوفمبر سنة ١٩١٨ . ثم استندوا الى مبدأ تقرير المصير ، وأشاروا الى حركات المقاومة الوطنية التي رفضت سيطرة البريطانيين مع الأرمن والأشوريين على الولاية كظهر من مظاهر رغبة الأكراد في الاتحاد مع تركيا المستقلة ، مفضلين ذلك على الاتحاد مع العراق المحتل .

ولم يكن من حق حكومة العراق في هذا الوقت أن تتحدث ، كما لم يكن لها من القوة ما يسمح لها بالتدخل . فزاد ركونها إلى بريطانيا ، وأثر ذلك على العلاقات العراقية - البريطانية ، وعلى موقف القوى الوطنية في

العراق من المحتلين المستعمرين . أما بريطانيا فانها قد أخذت موقف المدافع عن مصالح العراق ، وكانت في حقيقة الأمر تدافع عن مصالحها الاقتصادية في البترول ، والمصالح الاستراتيجية اللازمة لسلامة طرق المواصلات الامبراطورية . ولا جدال في أن بريطانيا كانت تفضل بقاء هذه المنطقة الحيوية بيد دولة موالية ضعيفة الحول كالعراق ، على بقائها في قبضة تركيا الناهضة المتحررة . وأثر هذا الموقف على كفاح العرب ضد الاستعمار في منطقة الرافدين .

وتبلور الاتجاه المعادي لبريطانيا في ولاية الموصل وخاصة في متصرفية السليمانية بشكل واضح منذ أوائل سنة ١٩٢٢ . وفضل الأكراد الانفصال عن حكومة العراق الخاضعة للبريطانيين ، وفكروا في إقامة دولة خاصة بهم أو في الانضمام إلى الدولة التركية الحديثة ، التي وقف بها مصطفى كمال رافعة الرأس أمام القوى الاستعمارية المسيحية . وساعدت تركيا هذه الحركة وتدخلت بعض قواتها في أراضي الموصل . وحاولت بريطانيا أن تكسب من الموقف ، معتمدة على قوات سلاح الطيران ، والمجندين العراقيين . ولكنها اضطرت إلى سحب الموظفين البريطانيين . وإلى إصدار الأمر إلى المجندين بالتقهقر ، وإلى إخلاء السليمانية أمام موقف الشعب العدائي . ثم أشارت على الملك فيصل بتعيين الشيخ محمود متصرفا على المنطقة ، وكان من الأكراد . وظهر أنها ترغب في أن تدفع بقسم من الأكراد إلى مهاجمة البقية ، باسم العراق في الظاهر ، ولخدمة مصالح الامبراطورية قبل كل شيء . ولقد وافق فيصل على هذا التعيين ، وزود الشيخ محمود بقوة من المجندين وبقيادة عدد من الضباط الأكراد . ولكن سرعان ما أخذت الشيخ محمود في معرفة حقيقة الموقف بعد انصهاره بعناصر السنة الكردية في الشمال ، وبالعناصر

المعارضة لبقاء البريطانى ، والمؤيدة للاستقلال أو للاتحاد مع تركيا المستقلة فاعلن نفسه فى نوفمبر حاكماً ثم ملكاً على كردستان . وانقلبت الخطة البريطانية رأساً على عقب ، واتجهت أسلحة مجنديها إلى صدر الاستعمار البريطانى فى بغداد . وساعد هذا الموقف على تدعيم المصالح المتبادلة بين الحكومة العراقية وبين البريطانيين . فأمر فيصل أخاه زيد بالذهاب والاقامة فى الموصل ، ثم ذهب شخصياً فى زيارة ملكية للمنطقة فى الوقت الذى والى فيه سلاح الطيران البريطانى عملية الارهاب المنظم . ولكن هذه العوامل لم تعدل من الموقف ، خاصة وأن الأساس الدولى للمشكلة كان لا يزال قائماً .

وجاءت هدنة مودينا بعد انتصار الأتراك على اليونانيين فى أزمير وكانت نقطة حاسمة فى تاريخ العلاقات التركية - البريطانية ، ومهدت من ناحية أخرى لمؤتمر لوزان الذى شارك فيه كل من اللورد كيرزن وعصمت إينونو وتحدت المندوب التركى كضابط يعود من جبهة القتال ، فخوراً بجنوده وبوطنه ، ومحتقراً لقوات الاستعمار . وطالب بضرورة ابتعاد بريطانيا عن الموصل ، وبضم الولاية للجمهورية التركية . ورد عليه كيرزن بأن الأكراد ليسوا من الأتراك ، وذكر له أن تجارة الولاية تقوم مع العراق ومع سوريا وترك مسألة تقرير المصير جانباً ، وطالب بضم المنطقة لمملكة العراق مستنداً إلى أن قرار الانتداب قد رسم ذلك . فرفض الأتراك وجهة النظر البريطانية وانتهى المؤتمر الأول فى ٢ فبراير سنة ١٩٢٣ دون الوصول الى أي حل .

وحاولت تركيا أن تدخل «المصالح» الامريكىة ضد المصالح البريطانية فى الموصل ، بأن اعطت إمتيازاً للاميرال شستر لاستغلال بعض الميادين ولمد بعض السكك الحديدية فى المنطقة ، ولكن امريكا كانت قد نفضت أيديها من مشكلات العالم القديم . فوافق عصمت اينونو على العودة الى عصبة الأمم

إذا لم تصل بريطانيا إلى اتفاق مع تركيا حول الموضوع في خلال سنة . وفي خلال ذلك الوقت ظلت الأحوال مضطربة في الموصل ، ودفعت بريطانيا بمجندي العراق الى التوغل صوب الشمال ، وجاءت بعدد من الآشوريين لتوطينهم في المنطقة ، ف وقعت الاضطرابات والاشتباكات بينهم وبين الاكراد السنيين . وسرعان ما انتشرت الدعاية ، منادية بأن فرنسا هي التي كانت تشجع الآشوريين على انشاء دولة خاصة بهم ، وأنها هي الدولة التي تعاونهم . وأختبأت بريطانيا وراء ذلك لكي تظهر بمظهر الحليفة للهاشميين ، والصديقة للسنيين أمام «المؤامرات» الفرنسية . فانهض بعض الأعداء من حول الشيخ محمود ، وتمكن الجيش العراقي من دخول اسليمانية في شهر يوليو سنة ١٩٢٤ . ودفعت بريطانيا بالآشوريين من ناحية أخرى الى مهاجمة الحدود التركية ، وحينما تعقبت القوات التركية أعوان البريطانيين ، قامت ضجة كبيرة حول الاطماع التركية ، وحول اتجاه الأتراك الاسلامي ، وحول عدائهم للمسيحيين ، سواء أكانوا من الآشوريين أو من الأرمن ، رغم ادعائهم التحرر فوافقت تركيا على ارسال لجنة تحقيق لولاية الموصل ، ووافقت في أواخر أكتوبر على خط للحدود عرف بخط بروكسل ، لفصل المناطق «البريطانية» عن الأراضي التركية .

ولقد وصلت لجنة التحقيق الدولية الى بغداد في يناير سنة ١٩٢٥ بعد زيارتها لكل من لندن وستانبول . ثم امضت شهرين في الموصل حيث استمعت الى وجهات النظر المتباينة . وكتبت تقريرها الى عصبة الأمم في شهر يوليو ، ونوقش في أوائل سبتمبر .

ورفض التقرير فكرة تقسيم ولاية الموصل ، واعتمد الى حد بعيد على

الاحصاءات التي قدمتها بريطانيا . وذكر أن العوامل الاقتصادية تربط الموصل بالعراق ، وشرح أن خط بروكسل يصلح من الناحية الاستراتيجية خطأ للحدود ، وأشار الى أن احوال العراق غير مستقرة رغم التقدم الذي اصابه في ظل الانتداب ، ورفض أى مطالب تستند الى حق الفتح أو الى القانون الدولي ، وذكر أن غالبية أهالي الموصل يفضلون انضمام منطقتهم الى العراق واستمرار الادارة القائمة ، على الانضمام لتركيا . وجاءت توصية اللجنة باستمرار اتحاد منطقة الموصل الواقعة الى الجنوب من خط بروكسل الى العراق ، وذلك بشرطين : الأول هو بقاء العراق تحت الانتداب لمدة خمسة وعشرين عاما ، والثاني هو الاعتراف رسميا بالشخصية المحلية للأكراد ، وذلك باستخدام لغتهم ، وبتعيينهم في المناصب الادارية والقضائية وفي التعليم في المناطق الكردية .

وجاءت هذه التوصيات أبعد مما تسعى اليه بريطانيا ، اذ أنها - علاوة على ضمان المصالح الاقتصادية والاستراتيجية البريطانية في الولاية - عملت على مد اجل الانتداب البريطاني على كل العراق ، ولمدة ٢٥ سنة ، ورغم أنف « المعاهدة » العراقية البريطانية .

ولم تأت المعارضة هنا من العراق ، نظراً لوضعها السياسى من ناحية ، ونظراً لانتصارها في مسألة ضم الموصل من ناحية أخرى ؛ بل جاءت من تركيا التي رفضت التقرير بأكمله وناقشت سلطة اللجنة في اصدار القرارات ، ودرجة الالتزام في تنفيذ توصياتها . ولكن بريطانيا نجحت في الحصول على قرار من محكمة العدل الدولية بلاهاى ينص على أن قرار العصبة في الأمر هو قرار ملزم مادام يؤخذ باجماع الأصوات (عدا صوتى تركيا وبريطانيا) .

وفي غياب المندوب التركي ، قررت اللجنة الفرعية المشكلة من عصبة الأمم في ١٦ ديسمبر الموافقة على أن تسير الحدود مع خط بروكسل ، وعلى تكليف بريطانيا بأن تقدم في خلال ستة أشهر معاهدة عراقية - بريطانية جديدة ، صالحة لمدة خمسة وعشرين عاما (ما لم تدخل العراق في عصبة الأمم قبل هذا التاريخ) ، واقتراحات لتنفيذ توصيات اللجنة المتعلقة بإقامة إدارة خاصة للأكراد . وكان هذا القرار بالاجماع ، وأنتهت مهمة عصبة الأمم أو دورها في تدعيم الانتداب .

وأصدرت حكومة بغداد أوامرها السريعة لتحديد المناطق الكردية ولتعيين الأكراد في الوظائف الخاصة بهم . ووافق البرلمان في ١٩ يناير سنة ١٩٢٦ على المعاهدة الجديدة مع بريطانيا رغم معارضة ياسين باشا وحزب الشعب الذي يؤيده . ولكن البرلمان اشترط إعادة النظر في المعاهدة سنة ١٩٢٨ ثم في فترات متتالية مدة كل منها أربع سنوات ، الى أن يدخل العراق في عصبة الأمم أو تنتهي فترة الـ ٢٥ سنة . وأوصى في نفس الوقت بإعادة النظر في الملاحق الخاصة بالمعاهدة . وكانت الحكومة العراقية قد وجدت نفسها أمام حلين لا ثالث لهما : فاما قبول المعاهدة ، أو التنازل عن ولاية الموصل . فاختارت الحل الاول . ووقفت الامة العراقية الى جانب فيصل ، مظهرة وحدة الصف حول عرشه ، في الوقت الذي تعرضت فيه الاسرة الهاشمية للغزو السعودي في الحجاز ، وازدادت الآمال حول فيصل ، والالتفات الى المشكلات المحلية والاقليمية ، وأمام الانراك ، وامام السعوديين ، زاد التقارب مع بريطانيا .

ونجحت بريطانيا في عقد معاهدة تركية - عراقية - انجليزية في ١٨

يوليو سنة ١٩٢٦ اعترفت فيها بخط بروكسل حدوداً مع العراق ، وتعهدت فيها حكومة بغداد بدفع ١٠ ٪ من حصة البترول من ولاية الموصل لتركيا ، ولمدة ٢٥ سنة .

وبقيت مسألة القضاء على قوة الشيخ محمود الذي رفض الخضوع للانتداب البريطاني . فعمل كل من سلاح الطيران وقوات الجيش والبوليس العراقيين على إنهاؤها ، وانضمت الموصل للوطن الأم العربي . ومهد ذلك لاستخراج البترول واستغلال الموارد الاقتصادية الاقليم . وكان هذا أحد موارد العرب ولكن النسبة الكبيرة منه ذهبت الى جيوب المستغلين المستعمرين الأجانب .

وكانت لجنة الحدود العثمانية الفارسية (١٩١٣ - ١٩١٤) قد تركت للدولة العثمانية . وبالتالي للعراق ، النصف النوبي من منطقة النفطخانة الواقعة على الحدود ، الى الجنوب من الخانقين . فوافقت الحكومة التركية ، ثم الحكومة العراقية على أن تعتبر أن هذه المنطقة داخلة في نطاق الامتياز الذي حصل عليه دارسى في سنة ١٩٠١ ، ثم بدأت المفاوضات على هذا الأساس بين الشركة الانجليزية - الفارسية ، وبين وزارة الأشغال العراقية ، وانتهت في عام ١٩٢٥ الى اتفاقية عدلت بأخرى في مايو سنة ١٩٢٦ . وبدأت الآبار في انتاج البترول وانشئ خط للأنايب طوله ٢٢ ميلا لنقل البترول الخام الى الخانقين . وكذلك أنشأت الشركة معملًا للتكرير والتصفية ، بتشجيع من الحكومة العراقية ، وكذلك في شهر يونيو من نفس السنة ، مما ضمن للعراق البترول اللازم للاستهلاك المحلي .

وقامت وزارة الخارجية البريطانية من ناحيتها بتأكيد صلاحية الوعد

الذي أعطته الوزارة العثمانية للشركة التركية للبترول في ٢٨ يونيو سنة ١٩١٣ . وبعد تردد الحكومة الفرنسية التي كانت تطالب بضم منطقة الموصل كلها الى منطقة انتدابها في سوريا ، اتفق برتيلو مع كادمان في سان ريمو على أن ترث فرنسا نسبة الـ ٢٥ ٪ التي يمتلكها البنك الألماني في هذه الشركة . أما الولايات المتحدة التي أخذت تطالب بتطبيق سياسة الباب المفتوح في الاستغلال الاقتصادي دون خضوع لاتفاقات دولية ، فإن الحكومة البريطانية قد نجحت في إرضائها ، وذلك بأن تركت نصف نصيب الشركة الأنجلو فارسية ، من أسهم الشركة التركية للبترول ، لمجموعة من الشركات الأمريكية ، وذلك باتفاقية مبدئية في عام ١٩٢٣ ، ثم صدق عليها في سنة ١٩٢٨ . وهكذا أصبحت الأنصبة داخل الشركة هي ٥ ٪ لجو لينكيان و ٩٥ ٪ توزع على أربعة بالتساوي بين مجموعة شل (باسم شركة البترول الانجلو سكسونية) والأنجلو فارسية (وهي شركة دارسي للتنقيب والاستغلال) والشركة الفرنسية للبترول الخاضعة لحكومة باريس والشركات الأمريكية التي تجمعت باسم اتحاد استغلال الشرق الأدنى . وظلت هذه النسبة قائمة الا فيما يخص النصيب الأمريكي ، الذي تحولت ملكيته من ست شركات الى شركتين فقط فيما بعد هما استاندارد أو بيل (نيوجرسي) وسو كوني .

وتقدمت الشركة التركية للبترول بمطابها في أوائل سنة ١٩٢٤ لحكومة بغداد لتنفيذ الوعد الذي أعطاه سعيد حليم سنة ١٩١٤ . وتمت الاتفاقية في في مارس سنة ١٩٢٥ واشتملت على كل مناطق ولايتي الموصل وبغداد السابقتين . ولما كان العراق بدون أي برلمان في ذلك الوقت فقد قام كل من مجلس الوزراء والملك بالتصديق على الاتفاقية . ونصت على ضرورة قيام الشركة باختيار المواقع اللازمة للاستغلال في ظرف مدة معينة ، حتى تتمكن

الحكومة من السماح لغيرها بالعمل في بقية المناطق . وحددت الاتفاقية نصيب الحكومة بأربعة شلقات (ذهب) عن كل طن ^(١) . وسرعان ما بدأت الأعمال الجيولوجية بكل همّة ونشاط قبل نهاية سنة ١٩٢٥ . ورغم أن الشركة قد حددت استغلالها في العيون المعروفة سابقاً ، إلا أنها توسعت في التنقيب في العام التالي . وصحب ذلك عملية إنشاء الطرق ومد أنابيب المياه والبتروول ، وبناء المساكن . وشارك في الأعمال خمسون بريطانيا مع ٢٥٠٠ عراقي ، وبدأ الانتاج بشكل هام منذ سنة ١٩٢٧ . وبطبيعة الحال لم تستمع حكومة بغداد لادعاءات أعضاء الأسرة المالكة العثمانية السابقة ، التي أدعت أن بتروول الامبراطورية كان ملكاً شخصياً لها . وتأكد العالم من أن العراق هي من بين أكبر المناطق التي تحتوى على البتروول في العالم ، وخاصة بعد أن عثر على البتروول بكميات ضخمة بجوار كركوك في أواخر اكتوبر .

وصرفت الشركة التركية للبتروول السنوات الأربعة التالية في إعداد آبار كركوك للاستغلال المنظم ، وفي إقامة المنشآت والخزانات والورش والمساكن ، كما انها إستغلت نفس الوقت في المفاوضة مع الحكومة لمدة فترة إختيار المواقع ، التي نصت عليها اتفاقية سنة ١٩٢٥ ، مستندة إلى أن معظم مناطق ولاية الموصل لم تكن في حالة أمن تسمح بعمل الأجانب ، واقامتهم فيها . وانهت هذه المفاوضات باتفاقية مارس سنة ١٩٣١ التي تنازلت فيها الشركة التي اتخذت لنفسها اسم الشركة العراقية للبتروول ، عن المناطق الواقعة

(١) الاسترليني الذهب = ٢٠٠ ر ٤ فرنك الآن

شلقات ذهب = ٤٠ ر ٨ فرنك وهي عن الف لتر

أي أن نصيب الحكومة عن كل لتر هو ٨٤ ر . من الفرنك فقط

الى الغرب من الدجلة ، والى الجنوب من خط عرض ٣٣ ، ولكنها احتفظت لنفسها بالمنطقة الباقية ، وهى كل شمال شرق العراق ، تقوم بالاستغلال فى أي موقع فيها وبدون أي تحديد ، أو منافسة من شركة أخرى . وتعهدت الشركة بمد خط أنابيب الى سواحل البحر المتوسط قبل سنة ١٩٣٥ وبأن تكون سعتها ثلاثة ملايين طن على الأقل ، وتسير من الفرات صوب حيفا وطرابلس ، وبدفع مبلغ ٤٠٠.٠٠٠ استرليني ذهب سنويا الى الحكومة الى أن يخرج الانتاج بشكل تجاري ، وتبدأ فى دفع نصيب الحكومة المقرر (أربعة شلنات عن كل طن) . ووافق البرلمان على هذه الاتفاقية الجديدة ، وبدأت الشركة فى إقامة خط أنابيب البترول مع محطة مضخات فى وسط الصحراء واستغرقت العملية ثلاث سنوات . ثم بدأ الانتاج التجاري منذ سنة ١٩٣٤ .

واتخذت الشركة كركوك مركزاً لإدارتها ، وحيفا مركزاً لإدارة أنابيب البترول . وقام بنك إنجلترا بتحويل نصيب العراق من الجنيحات الذهبية الى العملة الاسترلينية ، وقدمت العراق لتركيا ١٠٪ من حصيلة البترول طبقاً لمعاهدة سنة ١٩٢٦ الخاصة بحدود الموصل وتركيا .

أما منطقة شمال غرب العراق التى انسحبت من استغلالها الشركة العراقية للبترول سنة ١٩٣١ فان حكومة العراق قد منحتها فى العام التالى لشركة... وهى مجموعة من رجال الأعمال البريطانيين ، مع شركاء ايطاليين وألمان وأجانب . وكانت هذه الشركة قد بدلت المساعي للاشتراك مع الشركة التركية للبترول فى سنة ١٩٢٥ ثم اشتكت العراق لعصبة الأمم واتهمتها بأنها تحمى الطرق الاحتكارية رغم نص قرار الانتداب على ضرورة استخدام

سياسة الباب المفتوح . ولقد تعهدت هذه الشركة بأن تدفع للحكومة بغداد مبلغ ١٠٠.٠٠٠ ثم ٢٠٠.٠٠٠ جنيه استرليني عن كل سنة الى أن يبدأ الانتاج بكمية تجارية ، ثم تعهدت بتصدير كمية لا تقل عن مليون طن في السنة ولمدة سبعة سنوات ، وباعطاء الحكومة العراقية ، وبدون أي ثمن خمس انتاجها من البترول علاوة على نصيب الأربعة شلفات ذهب عن كل طن يستخرج . ولقد تحولت هذه الشركة فيما بعد الى شركة آبار نفط الموصل .

وأما شركة البترول الأنجلزية الفارسية فانها قد كونت شركة بترول الخانقين لاستخراج البترول اللازم للاستهلاك المحلي ، وأنشأت معامل تكرير افتتحها الملك فيصل في الخانقين في مايو سنة ١٩٢٧ . وقام فرع آخر لشركة البترول الأنجلزية الفارسية ، وهو الذي يسمى بشركة بترول الرافدين ، بعملية توزيع البترول داخل العراق ، وخاصة الشمال والوسط ، وأما جنوب العراق فقد اعتمد على عبدان ، المركز الرئيسي لشركة البترول الأنجلزية الفارسية .

وهكذا عملت بريطانيا على ضم ولاية الموصل للعراق ، ولكن هدفها الأول في ذلك كان هو الاستغلال . وأما العراقيون فقد استندوا الى السياسة البريطانية لضمان الوحدة الاقليمية ، واضطروا في سبيل ذلك الى عدم التشدد أمام المستغلين والى التساهل مع المستعمرين . ورغم ذلك فان العراق لم يكن قد حصل على ما ينشد وكان عليه أن يفاوض من جديد حتى يصل الى الاستقلال .

٢ - المفاوضات من جديد :

اعتمد العراق على تسوية مشكلة الموصل وسار في تجربته الدستورية ،

لاتمام بناء هذه الدولة العربية الجديدة ، والوصول بها إلى مرحلة الاستقلال التام وبدأ إهتمام البرلمان واضحا بتصرف الأمور والتشريع لها ، ولكن سرعان ما ظهرت العوامل الشخصية ووضحت الخلافات السياسية ، وأخذت هذه القوى الوطنية تسير على منهج الحزبية ، وعملت على معارضة ومهاجمة بعضها البعض ، مما أضعف من قوتها وسهل على المستعمر الأجنبي أمر السيطرة عليها وتعددت الوزارات وتوالت على الحكم ، ويمكننا أن نقول بشكل عام أن تأليف هذه الوزارات لم يكن إلا إعادة تصنيف بين أعضائها الذين ينحصرون في جماعة صغيرة من الساسة المحترفين ومن ثروة ملاك الأراضي والتجار^(١) . وقد ساء لهم على احتكار الحياة السياسية والمناصب الوزارية قلة عدد المتعلمين وتفشى الجهل والامية في الاقليم . ومن الغريب أن الحكومة لم تكن تخضع رغم الدستور ، لمجلس النواب ، بل كانت الحكومة هي التي تصنع هذا المجلس وتشكله حسب أهوائها ومصالحها ، أو حسب رغبات السادة البريطانيين . ورغم ذلك فقد كان على هذه الحكومة وعلى ذلك البرلمان أن يكافحوا ضد الاستعمار البريطاني ، ويكافحوا من أجل استخلاص الحقوق الوطنية أو على الأقل استخلاص ما يمكن استخلاصه من أيدي الحماة الغاصبين . ولقد سقطت وزارة عبد المحسن السعدون في شهر نوفمبر في ١٩٢٦ ، نتيجة لفشل رئيسها في ترأس مجلس النواب . فاستدعى الملك جعفر باشا العسكري من لندن ، حيث كان يشغل منصب الوزير العراقي المفوض هناك

(١) جورج كيرك ، موجز تاريخ الشرق الأوسط ، ترجمة عمر الاسكندري . القاهرة و مركز كتب الشرق الأوسط . ١٩٥٧ . ص ٢٧١ .



وكلفه بتأليف وزارة ائتلافية ، ونجح في هذه المهمة وجاءت هذه الوزارة
تتضمن على كل من ياسين باشا الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني ورؤوف
المجاذرجي ، والفريق نوري السعيد ، وأمين علي باشا أعيان ، ومحمد أمين
زكي وغيرهم . ورغم اشتراك هؤلاء الأعضاء المهمين في الوزارة فإنها كانت
ضعيفة ، نظرا لعدم انسجام الأعضاء في داخلها وارتباط كل وزير بمصالح
حزبه مثل ارتباطه بمصالحه وبمصالح الوزارة نفسها . وعلى أي حال فإن
هذه الوزارة قد استمرت في الحكم طوال سنة ١٩٢٧ وثار في عهدها
خلاف حاد بين السنة والشيعة ، هدد مستقبل العراق . وارتبط هذا الخلاف
الطائفي المذهبي من ناحية أخرى بقانون التجنيد الإجباري ، الذي وقفت
منه الحكومة البريطانية موقفا مشبها . فادى ذلك إلى تسوية الخلافات المذهبية
بين السنة والشيعة لمواجهة المستعمر الدخيل ، ولكن بعد أن ضعفت الوزارة
ذلك أن حكومة بغداد حاولت أن تتخذ من التجنيد الإجباري وسيلة
فعالة للوصول إلى مرحلة القدرة على الدفاع عن البلاد ، أي إلى التخلص من
بقاء الحاميات البريطانية على أرض الوطن . ولكن المندوب السامي البريطاني
أجاب بأنه يفضل عدم فرض مثل هذا القانون إلا إذا كان الأهالي يوافقون
عليه ، وأنه يجب عدم الإصرار عليه إذا كانت النية تتجه إلى طلب تأييد
القوات البريطانية للقوات العراقية الناشئة ، إذ أن قوات الأباطورية سترفض
القيام بمثل هذا الدور . فظهر أن بريطانيا تحاول الاحتفاظ بالعراق في وضع
التابع الضعيف ، وأخذت الصحف في فضح النيات الاستعمارية البريطانية .
فقضت هذه الحركة على الخلافات المذهبية واتجهت الأعين إلى الخطر الجائم
على قلب البلاد والمتحكم في مصائر أبنائها .

وشعرت الحكومة البريطانية أنها قد خسرت أكثر مما كسبت بمثل هذا الموقف وخشيت من أن يؤدي تطور الرأي العام وموقف الساسة العراقيين إلى المساس بأسس نظام الانتداب ودعائم تفوذها في المنطقة . فعمدت إلى تدعيم تفوذها مع العراق عن طريق استرضائه . وذلك بعقد معاهدة جديدة معه . وضمنت لها هذه المعاهدة الجديدة بقاء سيطرتها على العراق حتى سنة ١٩٣٢ . فأصابت هدفين بحجر واحد ، دون أن يفتن ساسة العراق للموقف

ذلك أن معاهدة يناير سنة ١٩٢٦ كانت قد نصت على إعادة النظر في أمر عضوية العصبة الأمم في عام ١٩٢٨ ، وبعد ذلك في فترات كل منها أربع سنوات فأبلغت الحكومة البريطانية العراق في يوليو سنة ١٩٢٧ أنها ستوصي عصبة الأمم بقبول العراق عضوا فيها في سنة ١٩٣٢ ، وليس في سنة ١٩٢٨ فأخذ العراقيون في الاستفسار والتساؤل ثم في محاولة التفاهم ، فبدأت المفاوضات وظهر فيها الانقسام بين « الوطنيين » وبين « المعتدلين » وعلى رأسهم فيصل . وشارك في هذه المفاوضات كل من المندوب السامي ووزارة المستعمرات البريطانية ، وأظهر البريطانيون فيها التشديد وعدم الرغبة في التساهل ، واتخذوا ذلك وسيلة للضغط على العناصر المعتدلة . وخشيت هذه العناصر من أن تلجأ بريطانيا إلى تعطيل دخول العراق في عصبة الأمم أربع سنوات أخرى أي البقاء حتى سنة ١٩٣٦ خارج « المجتمع الدولي » فاضطر جعفر باشا في ١٤ ديسمبر سنة ١٩٢٧ إلى التوقيع على هذه المعاهدة التي كفلت المصالح البريطانية في العراق ، دون أن تقدم للعراقيين مكاسب ذات قيمة .

حقيقة أن هذه المعاهدة قد أشارت إلى التقدم الذي أصابه العراق مما

يجعل كل من معاهدات سنة ١٩٢٢ و ١٩٢٦ غير ذات موضوع ، والى رغبة العراق فى الوصول الى مرتبة الدول المستقلة ذات السيادة ، والاشراف على كل شئونها الداخلية والخارجية ، ونصت فى ديباجتها على ضرورة تعديل الاتفاقيتين ، المالية والعسكرية ، كما انها نصت على أن بريطانيا ستؤيد العراق للدخول فى عصبة الأمم سنة ١٩٣٢ ولكنها اشترطت ذلك الدخول بأن يحافظ العراق على نفس السرعة التى يسير عليها فى تقدمه وفى طول مدة هذه الفترة الانتقالية . وكان هذا الشرط سيفاً مسلطاً على عنق الحكومة العراقية ، وسبباً فى أن يقف معظم ساسة العراق ضد هذه المعاهدة . فوجد أن كل من ياسين الهاشمى وزير المالية وزعيم حزب الشعب ، ورشيد على الكيلانى وزير الداخلية وزعيم حزب الوسط لم يوافقا جعفر باشا العسكرى رئيس الوزراء والموقع على المعاهدة ، على رأيه فيها جملة ، ولم يوافقا أيضاً على التعديل الذى أدخله على الاتفاقيتين المالية والعسكرية . وتصلب جعفر باشا فى موقفه ، فاستقالت الوزارة وألف عبد المحسن السعدون وزارة جديدة فى ١٤ يناير سنة ١٩٢٨ . ولكن الائتلاف السابق كان قد إنتهى . فاضطرت وزارة السعدون الى اجراء انتخابات جديدة لمجلس نواب جديد ، يمكنه أن يوافق على المعاهدة ويصدق على التعديل الذى أدخل على الاتفاقيتين المالية والعسكرية وكانت هذه الانتخابات وسيلة لشحن الروح الوطنية واظهار الأخطار السياسية ، وازدادت روح العداء لبريطانيا ولمثل هذه المعاهدة . وحاول الوزراء أن يصلوا مع المندوب السامى البريطانى إلى وضع اشتراطات وقيود على ملاحق المعاهدة ، ولكن الرفض كان مستمراً من جانب الممثل البريطانى ، وفى كل التفاصيل ، رفض مطالب العراقيين بالاشراف على شئون الدفاع العراقية ، ورفض اقتراحهم القاضى بالتخلي عن الشرط الذى يضع القوات الانجليزية

العراقية المشتركة تحت القيادة البريطانية. واقتراحهم الخاص بانتهاء الامتيازات التي تمنح للقوات البريطانية والتي تقضى بعدم دفع أى رسوم جمركية على مستورداتهم . وكان معنى هذا الرفض هو البقاء دون معاهدة تنظم العلاقات بين البلدين . ولكن هذا التصلب البريطانى ساعد ، من ناحية أخرى ، على تدعيم العلاقات بين العناصر الوطنية ، وعلى تناسى الخلافات المذهبية وترك المشاحنات التافهة .

وظهر أمام الجميع أن الوضع فى العراق هو « وضع شاذ » ، فكانت دولة مستقلة ولكنها تحت الانتداب ، وكانت الوزارة مسئولة ولكنها تخضع لرقابة المستشارين الأجانب ، وكانت البلاد تحاول الدفاع عن نفسها وتمنعها بريطانيا من سن قانون التجنيد ، وكانت الحكومة العراقية تدير شئون الميناء فى الجنوب والسكك الحديدية ، ولكن هذه المرافق كانت ملكاً للأجانب ، وكان الأجانب يتمتعون بامتيازات فى العراق فى الوقت الذى لا يمنح فيه أى امتياز للعراقيين أنفسهم فى الخارج . فاضطر السعدون الى تقديم استقالته فى يناير سنة ١٩٢٩ بعد أن استمر هذا الوضع الشاذ سنة كاملة وفشل فى القضاء عليه ، أو فى إقناع البريطانيين بالتقليل من تشددهم . وظل الرأي العام محتفظاً بعداؤه المعلن تجاه هذه المعاهدة ، وكان من الصعب إقناع أى زعيم عراقى بتشكيل وزارة فى مثل هذا الجو السياسى ؛ فظل السعدون يصرف الشئون الوزارية الى أن تألفت وزارة توفيق السويدي فى شهر أبريل .

وجاءت الأخبار من لندن معلنة تغيير المندوب السامى البريطانى فى العراق وتعيين السير جلبرت كلايتون بدلاً من السير هنرى دوبس فى بغداد . فشخصت أنظار الساسة العراقيين إلى لندن وكأنها تنتظر مجيء الغيث مع

المندوب السامي الجديد . وكانت السير جلبرت كلايتون سمعة طيبة في الأوساط السياسية العراقية منذ أن تحدث باسم العراق في المفاوضات التي دارت مع سلطان نجد ، وأصبح عدد من العراقيين ينظرون اليه وكأنه من أنصارهم المدافعين عنهم . ولكنه لم يفعل شيئاً أكثر من توصية الحكومة البريطانية « بالاعتدال » مع العراقيين . وتولى حزب الأحرار السلطة في بريطانيا . وأعلنت حكومة لندن أنها ستتتهج سياسة جديدة مع مصر ، فازداد الشعور بالأمل في بغداد . وتلت الحكومة البريطانية ذلك بتصريح أعلنت فيه للحكومة العراقية أنها ستخلصها من قيود معاهدة سنة ١٩٢٧ . وأنها قد قررت تأييد دخولها عضواً في عصبة الأمم في سنة ١٩٣٢ ، وأنها تأمل في تنظيم العلاقات البريطانية في المستقبل بمعاهدة جديدة .

وتبعاً للجو للمفاوضات بين العراقيين والبريطانيين ، وأعلن السعدون أن التصريح البريطاني يحقق جانباً هاماً من المطالب العراقية ، وإن كان العراقيون لا يرضون عن الاستقلال بديلاً . ولكن موت السير جلبرت كلايتون في بغداد في سبتمبر سنة ١٩٢٩ جاء معطلا لبدء المفاوضات . ومرت بضعة أشهر قبل أن يستلم السير فرانسيس هامفريز مكانه . وكانت وزارة توفيق السويدي قد سقطت وعاد عبد المحسن السعدون الى الحكم . وظهر أن المندوب السامي الجديد أقل حماسة من سابقة لتسوية العلاقات مع العراق وتنظيمها . فازداد ضغط الرأي العام العراقي على السعدون وطالب بالاستقلال التام غير المشروط أو المقيد . واكفهر الجو السياسي في بغداد ، وظهر عجز السعدون عن التوفيق بين الوطنيين والمستعمرين . وهاجم فريق من النواب الحكومة السعدونية أثناء مناقشة خطاب العرش ، وكانت حملتهم شديدة على

رئيس الوزراء ، وبلغ الأسى في نفس الرئيس مبلغاً كبيراً ، وتنازعت عواامل متعددة ، وكان يري أنه ليس في إمكانه أن يتراجع أو أن يتقدم ، وتقطعت في صدره أوصال العزم والايمان ، وأقلقه العجز ، واستولى عليه القنوط ، حتى وصل به اليأس حداً أثر معه الموت ، ^(١) فانتحر في نوفمبر سنة ١٩٢٩ ، « وفقد العراق فيه رجلاً أرسقراطياً ممتازاً » .

والف ناجى السويدي الوزارة هذه المرة ، وكانت هى نفس الوزارة السابقة باضافة وزير واحد عليها من الخارج . ولكن هذه الوزارة حظيت بتأييد الملك فيصل لها أكثر من سابقتها ، وكان يسعى بلا شك الى الحصول على أقصى ما يمكن الحصول عليه من البريطانيين . فنشطت الوزارة ، بتأييد من القصر ، وأصرّت على ضرورة تسليم معظم المراكز الرئيسية لأبناء البلاد ، استعداداً للاستقلال . وطالب كل من الملك ، والوزراء والصحافة بعدم تقييد المديرين والمسؤولين العراقيين بالنصائح والارشادات البريطانية الاجبارية فى أعمالهم . ولما نصح المندوب السامى بالتأني إشتعل الحماس من جديد وأخذت الصحافة تضرب على نغمة « الوضع الشاذ » من جديد . ثم قامت المظاهرات وارتفعت الهتافات وتبلورت الحركة فى شكل وطنى لا يؤمن بأنصاف الحلول ، ولا بمبدأ الأخذ ثم المطالبة ، فاستقالت وزارة ناجى السويدي بعد أربعة أشهر فى مقاعد الحكم .

(١) الريحانى ، أمين ، فيصل الأول . بيروت سنة ١٩٣٤ . ص ١٢٧ - من - أحمد طربين ، الوحدة العربية . القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية .

وألف الفريق نوري السعيد الوزارة الجديدة في مارس سنة ١٩٣٠ وامتازت برضاء كل من العراقيين ، والقصر والبريطانيين عنها ودارت المفاوضات من شهر أبريل الى شهر يوليو وانتهت بعقد المعاهدة في آخر يوم من هذا الشهر . وهي المعاهدة التي أوصلت العراق الى مرتبة الاستقلال .

٤ - الاستقلال :-

لقد صيغت معاهدة سنة ١٩٣٠ في شكل وثيقة تحالف وثيق بين دولتين صديقتين ، واشتملت على تعهدات متبادلة بالتعاون في حالات الحرب ، وكذلك بالتشاور بين الحليفين ، وفي كل الامور . وأصبح العراق مكلفا بالدفاع عن نفسه ولكنه اعترف في نفس الوقت بأهمية المواصلات البريطانية فوق أراضيه ، ووافق على احتلال البريطانيين ، وبقوات يتفق على وحداتها ، لقاعدتين جويتين : الأولى الى جوار البصرة والثانية غرب الفرات . وهما قاعدتي الشعبية والحبانية . وتعهدت العراق بحماية هاتين القاعدتين بقواتها ولكن على نفقة بريطانيا . ووافقت على أن يبدأ البريطانيون في استخدامها بعد خمس سنوات من تاريخ التوقيع على المعاهدة . وحتى ذلك الوقت سمحت العراق لبريطانيا بالاحتفاظ بمطار الهندي والموصل . أما نزول أي قوات بريطانية في هذه القواعد وبقائها فيها فقد نصت المعاهدة على أنه أمر لا ينقص أبداً من استقلال العراق ولا من مظاهر سيادته . وتعهدت بريطانيا بمساعدة القوات العراقية بالأسلحة والمعدات والمدربين ، وفي نظير ذلك تعهدت الحكومة العراقية بتقديم كل المعونات والمساعدات للقوات البريطانية في زمن الحرب . بالسماح لها بحرية التنقل برياً وبحرياً وجوياً . أما ممثل بريطانيا في العراق فقد حددت المعاهدة منصبه وهو السفارة . ولكنها فرضت أن يكون عميداً لرجال السلك السياسي في بغداد . وكانت المعاهدة

سارية المفعول لمدة خمس وعشرين سنة من يوم التصديق عليها ، واعترفت بحق الطرفين لإقتراح معاهدة جديدة بعد عشرين سنة ، على أن تتضمن هذه المعاهدة الجديدة حقوق الحكومة البريطانية الخاصة بالنقل والمواصلات .

وأضيف إلى المعاهدة ملحق خاص بالشئون العسكرية شرح تفاصيل وجود القوات البريطانية . ونص على الامتيازات والتسهيلات التي تمنح لها ، وعلى حق القوات الامبراطورية في المرور عبر أراضي العراق ، واستخدام طرقه وموانئه ومطاراته ، وكذلك حقها في إقامة القواعد والمخازن للأسلحة والمهمات الحربية فوق أرض العراق .

ولم يلحق البريطانيون بالمعاهدة أي اتفاق مالي ، ولكنهم تبادلوا مذكرة بهذا الشأن مع العراقيين ، نصت على ضرورة تسوية المسائل المالية المعلقة ، وهي الخاصة بالسكك الحديدية وبميناء البصرة ، وذلك في أقرب فرصة ممكنة ، وباعتبار هذا الاتفاق جزءاً متصلاً بالمعاهدة .

وكذلك تمحاشى البريطانيون إرفاق ملحق خاص بشئون الموظفين بالمعاهدة ولكنهم تبادلوا كذلك مذكرة بهذا الشأن مع العراقيين ، استندت إلى الصداقة والتحالف بين البلدين لكي تتعهد فيها الحكومة العراقية باستخدام الرعايا البريطانيين عند حاجتها إلى الموظفين الأجانب ، وعلى أن تقوم الحكومتان باختيارهم . وكان من حق حكومة بغداد أن تستخدم غير البريطانيين ولكن هذا الحق كان مقصوراً على حالة عدم تيسير البريطانيين . وانصت المذكرة على أنها لا تمس صحة العقود القائمة بين الحكومة العراقية والموظفين الموجودين في خدمتها .

وتبادلت الحكومة البريطانية مذكرات أخرى مع حكومة نوري السعيد ،

بشأن مسألة وضحت خطورة وضعها في الملاحق العسكري ، وهي السيطرة التامة على الجيش العراقي عن طريق « البعثة العسكرية البريطانية » وشرحت هذه المذاكرات نية الحكومة العراقية ورغبتها في تحسين كفاءة قواتها البرية والجوية واستندت بريطانيا إلى ذلك لكن تجبر الحكومة العراقية على طلب بعثة عسكرية بريطانية ، يتفق على عددها قبل البدء في تنفيذ المعاهدة وتكون شروط خدمتها ، وبالتالي سلطاتها وهيمنتها ماثلة لشروط البعثة العسكرية الموجودة قبل عقد المعاهدة . أى تظل بريطانيا مهيمنة على جيش العراق .

وهكذا نجد أن ما حارب أبناء العراق وكافحوا من أجل التخلص منه في المعاهدة السابقة قد انتقل من مواد المعاهدة وملاحقها إلى مذكرات متبادلة بين نوري السعيد والحكومة البريطانية . هذا من حيث الشكل . أما من حيث الجوهر والأساس فيمكننا أن نقول الكثير . ذلك أن المعاهدة السابقة كانت قد نصبت على أن مدتها عشرون عاما (المادة ١٨) وأنه يمكن دراسة الحالة عند نهايتها ، ويمكن للطرفين أن يتفقا على إنهاؤها . وجاءت هذه المعاهدة لمدة أطول (المادة ١١) وأوجبت عقد معاهدة جديدة بعد إنهاؤها أو بعد مرور عشرين عاما عليها ، وفرضت على المعاهدة المقبلة أن تشمل على نص يضمن حقوق الحكومة البريطانية الخاصة بالنقل والمواصلات . فالارتباط قد إمتد من عشرين سنة إلى خمس وأربعين ، أو إلى أربعين سنة على الأقل . حقيقة أن العراق قد حصل بهذه المعاهدة على بعض المكاسب السياسية والدولية ، بل يمكننا القول بأن هذه المعاهدة كانت الأساس الدولي لاستقلاله . ولكن ظل مرتبطا بعجلة التحالف والمواصلات البريطانية ، وإلى فترة طويلة ، هذا علاوة على إباحة أرضه لإقامة قوات وقواعد جوية دائمة ، وتمتع أفرادها

بالامتيازات ، وإستباحة نفس الأرض لمرور القوات الامبراطورية، وتخزين المؤن والذخائر والمهمات في وقت السلم والحرب ، ووضع الطرق والمطارات والموانئ والمرافق في خدمة الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، وتعريض البلاد وأبنائها لأخطار الحرب ودمارها . ولقد فرضت المعاهدة على العراق ضرورة التشاور مع بريطانيا في جميع الشئون السياسية ، ورغم أن أسلوب المذكرات المتبادلة كان أخف عبئاً من أسلوب الملاحق السابقة ، إلا أن هذه المذكرات قد احتفظت لبريطانيا بنفس « المصالح » ، ولا يغني الشكل كثيراً ، إذ أن لهذه المذكرات قوة المعاهدة نفسها ، وإن كانت لا تنشر على الشعب .

ولقد اتفق كثير من ساسة العراق على أن هذه المعاهدة لم تحقق الأمان القومي والوطنية للبلاد ، وأنها تتضمن الاحتلال الأبدي ، وأن ذبولها تكبد العراق أضراراً جسيمة ، ورؤوا أن بريطانيا قد احتفظت بسطرتها كما كانت من قبل على كل شئون العراق . وارتفعت الأصوات الحرة معلنة أن بريطانيا تهدف من وراء ترك الانتداب وتدعيم العلاقات عن طريق مثل هذه المعاهدة، الاستقلال في التسلط على مرافق العراق وشئونه دون مراقبة عصبة الأمم^(١) ولكن نوري السعيد دافع عن المعاهدة التي عقدها ، ودافعت عنها معه بعض الشخصيات السياسية العراقية ، فاعتبروها وثيقة إستقلال تام ، تدعم شرف العراق وتسمح له بإدارة شئونه . وأدعوا أنها تلغى الاتفاقات المالية والقضائية واتفاقية الموظفين التي كانت تحد من إستقلال العراق وتنقص من سيادته ، وأشاروا الى أنها تنقل المرافق التي كانت تحت يد إدارة البريطانيين وإشرافهم

(١) محمد جميل يهيم: الانتدابات على سوريا والعراق. صيدا ١٩٣١ . ص ٧٥ .

الى ادارة العراقيين وتمهد بالتالى لتملك السكك الحديدية وميناء البصرة ،
وكان انتقال هذه الملكية هي معركة ومكسب وطنى أو أمل قومى .
ورفض أحرار العراق اخضاع رقابهم الأيية لهذا « الاستعباد » يفرضه عليهم
أحد أبناء البلاد وفي تعاون مع الاستعمار . فقرر نوري السعيد اجراء
انتخابات جديدة لكى يستند اليها ويدعى موافقة ممثلى الأمة على المعاهدة
ولقد وقعت حوادث يؤسف لها فى اثناء هذه الانتخابات . وشرح نوري
السعيد ، فيما بعد طريقته فى اجراء هذا الانتخاب حين قال : « تعمل
الترشحيات للعضوية بحيث تشمل أسماء جميع رؤساء الوزارات السابقين ،
وجميع الوزراء الذين تولوا الوزارة أكثر من مرتين ، ورؤساء البرلمان ،
والبارزين من الموظفين السابقين المحالين إلى المعاش ، و كبار رؤساء الطوائف
وأصحاب المهن الحرة ، ورؤساء القبائل الخ . وهؤلاء جميعا تبلغ عدتهم ٦٠
فى المائة تقريبا من جملة أعضاء المجلس ، أما باقى الأعضاء فيتوقف أمرهم فى
الغالب على إرادة الوزارة الموجودة فى الحكم ، وإن كان العراقيون الراغبون
فى شق طريقهم الى المجلس يستطيعون أيضا ترشيح انفسهم » (١) . كان هذا
يعنى خضوع مجلس النواب للوزارة لا خضوع الوزارة لمجلس النواب كما
ذكرنا . وكان يحدث تحت ضغط المندوب السامى البريطانى أو عن طريق
أعوانه داخل البلاد . فكانت النتيجة معروفة بمجرد إعلان نوري السعيد
نتيجته لاجراء الانتخابات . وبطبيعة الحال صدق مجلس النواب العراقى على
المعاهدة ، وباغلبية ، ورغم أنف الجميع .

أما الملك فيصل فقد كانت دائرة سلطته تتسع فى كل يوم ، وإستخدام

(١) جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الأوسط . ص ٢٧٢ .

تقوذه لتوجيه الجهود في طريق « الاعتدال » لا نجاز التصديق على المعاهدة رغم أنه كان في حالات أخرى قد شجع العناصر الوطنية والمعادية للبريطانيين. وبعد أن كان قد أعلن انسحابه من الاشتراك الفعلي في شؤون الحكم ، بعد صدور الدستور ، عمل بمشورة البريطانيين ، ولم يكتف بالعودة إلى شغل مركزه كرئيس للقوة التنفيذية للدولة ، بل تخطى حدوده الدستورية . فأضطر الوزراء إلى مراعاة رغباته الشخصية ، في الوقت الذي حسبوا فيه كل حساب لعلاقاتهم مع بريطانيا : فأصبح نقطة التوازن بين بريطانيا وشعبه . وشجعه البريطانيون على تخطي المراد الحقيقي من أحكام الدستور، حتى يباح لهم التعلغل في شؤون الحكم^(١) . وباختصار تم التوقيع والتصديق على المعاهدة . ورغم كل شيء ، وضعت الأسس لاستقلال العراق ، وعلى هذه الصورة .

وتكاثفت الشخصيات المناهضة لنوري السعيد ولمعاهدته مع بريطانيا ، وأسست حزب « الاخاء الوطني » الذي ضم ياسين الهاشمي ، وناجي السويدي ورشيد عالي الكيلاني وعلى جودت . وطالب هذا الحزب بضرورة حل مجلس النواب الذي لا يمثل الأمة ، وتأليف حكومة تتعهد بإعادة النظر في العلاقات الخارجية للعراق ، وكدس نوري السعيد أعوانه من ناحية أخرى تحت اسم حزب العهد. ونجح حزب الاخاء الوطني في تنظيم الاضرابات والمظاهرات في معظم مدن العراق ، وبشكل قوى . ولكن نوري السعيد اتهمه بالعمل على اسقاط الوزارة وببشر الفوضى وتجميع التجار على عدم دفع الضرائب واثارة الخلافات المذهبية بين الشيعة والسنة . وفترت هذه

(١) أنظر المرجع السابق . ص ٢٧٣ .

الحركة بعد بضعة أشهر نتيجة لتحويل الأنظار إلى جنتيف وإلى قصر عصبة الأمم الذي ستدخله مملكة العراق المستقلة .

ورغم دخول العراق عصبة الأمم سنة ١٩٣٢ فإنه قد عاش في ظل معاهدة ١٩٣٠ التي سمحت للبريطانيين بالتدخل وبالسيطرة والتسلط ، وإن كان ذلك من وراء الستار وخلف أعوان من أبناء البلاد ، ومن قادة العرب .

٥ — المملكة وجيرانها :

وأخذت العراق تحسب حساباً لجيرانها بمجرد ظهورها كوحدة دولية قائمة بذاتها بعد الحرب العالمية الأولى، أي حتى قبل أن تحصل على الاستقلال وكانت بريطانيا هي التي تشرف على علاقاتها الخارجية مع جيرانها. طبقاً لنص الوصاية . ولذلك فإننا نلاحظ النفوذ الأجنبي البريطاني يصبغ العلاقات الخارجية للعراق ، كما أنه أثر وتحكم في دقائق السياسة الداخلية . فكان من الطيبي أن تتأزم الأحوال بين العراق وبين من قل ودهم وصداقهم مع بريطانيا ، والعكس صحيح . وحتى بعد الاستقلال اضطرت العراق إلى أن تحسب حساباً لاتجاهات السياسة البريطانية في المنطقة ، خاصة وأن الوضع كان قد ارتكز في منطق الزافدين على حكومة ، وأمرة مالكة ، ومصالح إقتصادية وبترولية ، وخطوط مواصلات واستراتيجية إمبراطورية .

أما مع فارس فقد كانت العلاقات سيئة نظراً لالتجاء بعض مجتهدى الشيعة إليها واثارتهم القلاقل من هناك ضد حكومة بغداد ، وضد المتحكين الأجانب في هذه الحكومة . وحتى بعد أن قام رضا شاه بهلوي بالاستيلاء على الحكم سنة ١٩٤٢ إلى الجاليين دون أن يعترف أى منها بالآخر . وكان رضا شاه يمتاز بمعارضته لإمتداد النفوذ البريطاني وانتشاره من الخليج العربي

شمالاً في منطقة البترول الايرانية ، ويعارض كذلك في قيام العلاقات بين سلطات الهند الاستعمارية وشيخ المحمرة في عربستان . تلك العلاقات التي كثيراً ما دفع الفرس ثمنها نتيجة ليل شيخ المنطقة إلى أنصاره البريطانيين بشكل يتعارض واستقلال (فارس) . وسرعان ما نجد أن رضا بهلوي قد أرسل القوات إلى منطقة عربستان وقضى على القوة الاقطاعية فيها وساق شيخها شبه المستقل إلى طهران وحول اسم المنطقة من عربستان إلى خوزستان التي أصبحت مجرد ولاية ايرانية . فلا يرضى هذا البريطانيين بطبيعة الحال ، وبالتالي لا يرضى حكومة بغداد التي إستندت إلى أن شيخ المحمرة كان من السنة وكان من العرب ، وتناست أنه حليف للاستعمار . وظهرت المسألة أمام غير المتعمقين وكأنها صراع بين العربية والفارسية أو بين السنة والشيعة رغم أنها كفاح بين الوطنيين المتحررين وبين أعوان الاستعمار . وكان الوزير المفوض البريطاني في طهران هو الذي يرعى المصالح العراقية ويدافع عنها ، وكان يمثل أيضاً همزة الوصل بين الجارين فظلت العلاقات سيئة بين الجارين إلى أن سمحت بريطانيا بتحسينها ، وعلى أساس تعاون السلطات الايرانية والعراقية لاستتباب الأمن والنظام في منطقة الحدود ، والقضاء على العصابات التي لها نزعات إستقلالية وكانت تحارب كل من الحكومتين وتهدف من وراء ذلك القوة الاستعمارية التي سيطرت على المنطقة ، فاعترفت الحكومة الايرانية بالعراق وتبادلت العاصمتان التمثيل القنصلي ثم التمثيل السياسي فيما بعد .

وأما تركيا فان علاقات العراق معها كانت مرتبطة أشد الارتباط بمشكلة الموصل والبترول . وما أن سويت هذه المشكلة حتى عادت المياه إلى مجاريها وعقد الطرفان اتفاقية خاصة بالحدود وبدأ التمثيل السياسي ، وكان الأمير

زيد هو سفير العراق في انقرة لمدة سنوات طويلة .

ولكن إذا كان فقهاء القانون الدولي رأوا في ظهور شخصية العراق وتبلورها اتجاه جيرانها ، وخاصة إيران وتركيا ، مكسبا للمنطقة ، فان رجال العروبة رأوا في تبلور الشخصية العراقية واتصالها عن جيرانها العرب في سوريا وشبه الجزيرة خطوة إلى الوراء ، ولا تخدم الا الروح الاقليمية ، والسادة الأجانب المتسلطين .

وعلى أى حال فقد أثرت السياسة والنصائح البريطانية من ناحية ، والبناء السياسى والاقتصادى الذى أقيم فى العراق بعد الحرب العالمية الأولى من ناحية أخرى فى علاقات هذه المملكة مع جيرانها العرب ، أما مع سوريا فيمكننا أن نضيف عوامل جديدة هى وجود الاستعمار الفرنسى وتحكمه فيها ، ودرجة تضارب المصالح الفرنسية مع المصالح البريطانية فى المنطقة ، وأما مع وسط الجزيرة فقد تأثرت علاقات العراق بحوادث الاخوان ، وهم من المجاهدين المسلمين ، وبالعلاقات عبد العزيز بن عبد الرحمن بالحجاز وإستيلائه على هذه المنطقة من الملك الحسين وابنه الملك على ، وهما والد وأخ الملك فيصل .

ولقد نظر السوريون دائما إلى فيصل على أنه رجل العروبة ومحرم دمشق وأول ملك عربى لهم . ونسوا أو تناسوا موقفه من المظاهرات السورية ومن يوسف العظمة قبل ميسلون . وكانت أنظار فيصل تتجه دائما من بغداد الى دمشق التى كان يحن إليها . ولم يحاول البريطانيون أن يوجهوا أنظاره جهة أخرى ، خاصة وأن إمتداد النفوذ الفيصلى سيكون على حساب الفرنسيين فى سوريا ولحساب البريطانيين ولقد أحاط الملك فيصل نفسه بمحاشية من السوريين فى بغداد ، واستمع إليهم وعمل من أجل سوريا مرات عديدة .

وكثر عدد المدرسين والأطباء السوريين في العراق وأرتفعت من بغداد بعض الأصوات تنادى بالوحدة العربية ، وظهر فيصل الأول وكأنه أملا .

ولقد تدخل فيصل في حوادث جبل الدروز سنة ١٩٢٥ ؛ ولو أن جزءاً كبيراً من الأسلحة التي ضبطها الفرنسيون في المنطقة كانت من صناعة انجليزية وكان السوريون ينادون فيصلاً كلما تأزمت الأمور مع السلطات الاستعمارية الفرنسية في بلادهم ؛ ولكن بناء الدولة العراقية نفسه كان يمنع فيصلاً من التدخل السافر في شئون سوريا . وسرعان ما وجدت الدول الاستعمارية الفرنسية والبريطانية أن مصالحها غير متضاربة في المنطقة ، فعبداً إلى تحديد الحدود بين سوريا والعراق وبدأت السلطات في إنشاء الطرق بين الحارين العربيين وأصبحت سوريا مخرجا للعراق على البحر المتوسط ، وتعاونت السلطات الإقليمية في كل منها في القضاء على العصايات التي تحوم حولها ، وتساعد على نشو شخصيتين متجاورتين ومتعاونتين في الميدان الدولي . ولكن تقدم وسائل النقل والمواصلات ساعد على سرعة تبادل الآراء ، وعلى التقارب بين أبناء الأمة الواحدة وإن كانت تخضع لحكومتين ، وأفاد العراق كثير من الروح العربية الاستقلالية التي جاءت من سوريا ، قلب العروبة .

وأما مع وسط الجزيرة فان العراق قد عمل على تأكيد شخصيته الدولية رغم اختلاف الحكومتين في الاتجاه وفي التكوين وفي الوسائل التي يستخدمها للوصول الى أهدافه .

ولم تعرض العراق بهجوم الاخوان بقيادة فيصل الدويش على أراضيها ، ولم تعرض بريطانيا أيضاً عن ذلك . فقامت المحادثات ثم المفاوضات بين

الطرفين منذ سنة ١٩٢٢ في عقر ، وصمما على التعاون سويا لرسم حدود ثابتة . وحين بدأ عبد العزيز بن عبد الرحمن في مهاجمة الحجاز ، لم تتدخل العراق في الامر . ولكن البريطانيين لفتوا أنظار سلطان نجد إلى اغارة الاخوان من جديد على أراضي العراق . وجاء جلبرت كلايتون للتحدث مع ابن سعود سنة ١٩٢٨ ثم تعاون العراقيون مع السعوديين في القضاء على قوات فيصل الدويش التي كانت قد خرجت عن طاعة عبد العزيز بن عبد الرحمن . ونجحوا في ذلك العام التالي .

ثم تقابل فيصل مع عبد العزيز آل سعود على ظهر بارجة بريطانية في مياه الخليج العربي في يناير سنة ١٩٣٠ ، وخرجا متصافين من هذه المقابلة ، وكانت بريطانيا هي حامية السلامة للتوفيق بين رؤساء العرب !! وفي ابريل من السنة التالية ذهب كل من نوري السعيد رئيس مجلس الوزراء العراقي مصحوباً ببطه الهاشمي الى زيارة للملكة حيث وقعا على اتفاقية صداقة وحسن جوار وتسلم للمجرمين بين الدولتين المجاورتين . ورد الأمر فيصل ، النجل الثاني لعبد العزيز الزيارة لبغداد بعد ذلك . وحينما أعلن ابن سعود توحيد نجد والاحساء ، والحجاز تحت اسم المملكة العربية السعودية ، اعترفت به حكومة بغداد .

واما العلاقات مع شرق الاردن فكانت أخوية قبل كل شيء وتزاور الملك العراقي والامير الاردني في عمان قبيل وبعد وفاة والدهما الملك الحسين في هذه المدينة سنة ١٩٣١ .

وهكذا تدعم الوضع الجديد في العراق . وعلى أسس معينة . ولكن شخصية الحكام والمحكومين كانت عريية : وعربية قبل أن تكون عراقية أو

أو أقليمية . وتسبب ذلك في بعض القلقة حين إضطّر أبناء الرافدين إلى التفريق بين عراقيتهم وعروبتهم .

وتوفي الملك فيصل في سنة ١٩٣٣ وتولى الملك بعده ابنه غازي وكانت له شخصية أخرى تختلف عن شخصية والده ، وأثر ذلك بالتالي على سياسة العراق : والأوضاع الموجودة في العراق .

الفصل السابع

سوريا والوحدة والاستقلال

كانت سوريا قلب العروبة النابض ومبعث روحها ووحيا . وكانت على رأس الحركة العربية ودل ذلك على عمق شعورها بشخصيتها وشخصية أبناء البلاد قبل غيرها من الأقاليم العربية . واحتفظت سوريا من ذكريات العروبة والاسلام بعاصمة الأمويين مع ما اشتملت عليه من تراث وعز . وكانت أقرب الأقاليم العربية الى الحضارة الغربية فاستجابت قبل غيرها وتحركت . ولكن في أى اتجاه ؟ وإلى أى نتيجة بلغت ؟

١ — النمو الاقتصادي والاجتماعي

ان شعور السوريين بشخصيتهم أمر لا شك فيه . ولكن المسألة ليست مجرد شعور أو عواطف بل إن الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي مرت بالمنطقة هي التي دفعتها إلى الشعور بشخصيتها المتميزة ، وبالشكل الذي شعرت بها وقبل غيرها من الأقاليم العربية . لقد كانت سوريا ، مثل بقية أقاليم الدولة العثمانية تخضع للحكم التركي ، ولكن قربها من أوروبا ساعدها على الاحتكاك بحضارة الغرب قبل غيرها من الأقاليم ، وجاء القرن التاسع عشر لكي يزداد النفوذ الغربي في المنطقة نتيجة لتركز الاستعمار الغربي في الهند والشرق الأقصى وسلوكه طريق سوريا والشرق الأدنى للوصول منه الى ميدان الإستعمار والاستغلال ، في الشرق الأقصى . وقعت سوريا على طريق المواصلات الامبراطورية ، ومرت فيها التجارة بين الشرق والغرب ، فساعد هذا على معرفتها بالشرق والغرب في نفس الوقت . وجاءت مع خطوط مواصلات

الامبراطورية مبادي، الثقافة من بلاد أكثر تقدما وحضارة . ويمكننا ان نزيد على ذلك تغيرا اجتماعيا - إقتصاديا حدث في المنطقة، نتيجة لاشتغال بعض أبناءها بالتجارة وإثرائهم منها ، أي بمعنى آخر ، نمو طبقة تعمل بالتجارة ، وهي الطبقة البورجوازية ، أو الوسطى ، في المنطقة ، وازدياد الأموال في أيديها مما يسمح لها بتعليم أبناءها محليا في أول الأمر ، ثم في أوروبا بعد ذلك إن هذه الطبقة قد عملت مع نموها ، على محاولة إيجاد مجال حيوي لها، فاصدمت بالتالي بالطبقة الاقطاعية القديمة التي احتفظت بالأرض ، وبخلفاءها الحكام العسكريين والمدنيين من الأتراك والمتركين . وشعرت هذه الطبقة بشخصيتها واضحة متميزة عن شخصية الحكام . فقد كانت طبقة عربية ، وكانوا من الأتراك ، وفي هذا ما يكفي كإدانة لتبلور كل من الطبقتين ، وانفصالها عن الأخرى مع ما يحمله هذا الانفصال من الاحتفاظ بروح عدائية ، أو على الأقل تنافس على المجال الحيوي اللازم لكل منها . وكان من الطبيعي أن تنجح هذه الطبقة الوسطى في كسب أبناء الأقاليم أكثر من نجاح الطبقة العليا التركية .

ومع هذا العامل يمكننا أن نرى عاملا ثانيا مساعدا على تبلور كل من الشخصيتين ، ذلك أن الأتراك قد إعتدوا على الاسلام كأساس لوجودهم في سوريا ، وبدأ السوريون يؤمنون بمذهب جديد، نتيجة لاحتكاكهم بالغرب وهو مبدأ الدين لله والوطن للجميع ، أي مبدأ فصل السلطة الدينية عن السلطة الزمنية في الدولة أو علمانية الدولة . ورأوا في هذا الفريق اتفاسحا للمجال أمامهم ، وتوحيدا لصفوف أبناء البلاد ، وفيهم عدد من الأقليات المسيحية ، ونموا وتحضروا على الطريقة الغربية الحديثة . واقتباسا من مبادي القوميات وحقوق الشعوب.

ساعد النمو الاقتصادي مع الاحتكاك الفكري اذن على ابتعاد السوريين عن العثمانيين رغم مجاورة اقليميهما الواحد للآخر ، واتحاد مصالحها في منطقة الشرق الأدنى . ونضيف الى ذلك عامل خارجي ، هو ازدياد النفوذ الغربي بشكل عام والنفوذ الفرنسي بشكل خاص في الاقليم السوري . فلقد احتفظت فرنسا — منذ عهد فرانسوا الاول وسليمان القانوني — بالامتيازات الأجنبية التي سمحت لها بحماية ورعاية الأجانب والمسيحيين الكاثوليك في الامبراطورية العثمانية وفي الشام ، وكان هذا هو الأساس الذي قام عليه ارسال بعثات التبشير الى المنطقة وبداية اهتمام المبشرين بالعرب السوريين .

ساعدت بعثات التبشير على نمو الشخصية العربية وذلك بقيام عدد من رجالها بدراسة أحوال المنطقة ودراسة التراث العربي والاهتمام بالمسائل العربية وخاصة بعد أن تعددت هذه البعثات ، وأصبحت تنافس كل منها الأخرى . وبعد حملة الجنرال بونا برت ثم امتداد الحكم المصري الى الشام ، بدأ المبشرون البروتستانتيون في المجيء الى سوريا ، وفي العمل في أرجائها ، وساعد على ذلك قيام حكومة مدنية لا تفرق بين المسلم والمسيحي أمام القانون . وعمل البروتستانت على محاولة كسب العرب اليهم واحياء التراث العربي أكثر من الجزويت الكاثوليك فاضطر ذاك الكاثوليك الى النزول الى نفس الميدان . وساعد هذا التنافس ، في الجيل التالي ، على اهتمام العرب بتراثهم ، وشعورهم بشخصيتهم العربية متميزة عن شخصية الحكم الاتراك والمتركيين .

ثم زادت بعثات التبشير وتعددت ونشطت وأثمرت بين شباب الجيل الأول وكان معظمه من المسيحيين الذين يفضلون الدراسة لدى المبشرين على الدراسة في المدارس الإسلامية ، ودفع هذا النشاط الاغلبية العربية ، وهي مسلمة ،

الى منافسة هذه الأقلية العربية المسيحية في الاعتزاز بالعروبة، فنشأ الجيل العربي الثاني مسلماً في غالبية العظمى ، ولكنه اضطر الى ابعاد الدين عن السياسة ، حتى يوحد بين طوائف الأمة المتعددة ، ويكتلها جميعاً في وجه الأتراك .

ولقد ازداد النفوذ الأوربي وتعددت مصادره وأصوله ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فالى جانب الفرنسيين والبريطانيين والأمريكيين والروس ، إزداد عدد الإيطاليين ثم عدد الألمان . وانعكس النفوذ الثقافي والعامل الديني على الميدان السياسي ، وأصبح رجال التبشير من كل دولة ينافسون رجال الدول الأخرى ، وحاولوا الافادة من انقسام المعسكر الوطني الى طوائف لكي يحاولوا الارتكاز عليها . كدعائهم لهم في المنطق ، فاذا كان الفرنسيين يحتضنون المارونيين فلا أقل من أن يشجع الأمريكيون البروتستانت ، وإذا كان الروسيون يعطفون على الأرثوذكسين في بيت المقدس فلا أقل من أن تقوم بريطانيا بالعطف على الدروز أو حماية اليهود . هذا العامل الخارجي أفاد من انقسام المعسكر الاقليمي وحاول بناء سياسته على أشلاء العرب ، ولذلك فان زعماء الحركة العربية الحديثة قد شعروا بخطورة الانقسام الديني بين أبناء الأمة الواحدة ، فازداد تمسكهم بمذهب «الدين لله والوطن للجميع» . وأبعدهم هذا العامل كذلك عن إخوانهم الاقليميين ، إخوانهم في الدين ، الأتراك العثمانيين ، وساعد على زيادة تقربهم من المبادئ الحديثة المتحررة ، وإن كانت قد جاءت من الغرب الذي لا يضر للمنطقة إلا الاستعمار والتسلط ، والاحتلال والاستغلال .

لقد حاول الأتراك العثمانيون أن يحتفظوا بالشرق الأدنى عامة ، والاقليم السوري خاصة تحت نفوذهم ، وكانوا مخلصين في محاولاتهم الاحتفاظ بأرض الاسلام موحدة أمام ، أطماع الاستعمار الغربي ، ولكن تشبثهم وتصلبهم

بآرائهم في الوقت الذي استمر فيه التطور في المنطقة ؛ نتيجة لموامل داخلية وخارجية ، أثبت أنهم كانوا كثر جمودا من أي عناصر أخرى . وتسبب هذا الجمود في زيادة انقسام المعسكر الاقليمي ، وابتعاد العرب عن الاتراك ، في الوقت الذي زاد فيه تقرب العرب من الاوربيين .

وحاولت الدولة العثمانية ، نتيجة للتدخل الغربي في شئونها ، أن تمنع رعاياها دستورا عصريا تسوى فيه بين جميع المواطنين ، وعلى أساس رعايتهم للدولة ، دون نظر إلى معتقداتهم وأديانهم . فجاء دستور مدحت باشا ، ولكنه تناسى الاختلاف الاقليمي ، ورغبة العربي في الاحتفاظ بشخصية إقليمية . ولقد وجد هذا الدستور بين جميع سكان الامبراطورية العثمانية ولكن على أساس المركزية . ومادامت السلطة قد ظلت مركزة في القسطنطينية فإن الباب كان مغلقا في وجه أبناء الأقاليم . وهم يجتازون مرحلة النمو والتطور . ثم تعطل هذا الدستور ، فساعد ذلك على مطالبة العرب بإعادة العمل به أو بمنح غيره . ورفضت الدولة العثمانية إجابة هذه المطالب ، فوقف العرب في جانب ، والدولة في الجانب الآخر .

ومع تطور الأحداث في الشرق الأدنى ، ومع ماوقع من حروب خارجية إزداد شعور العرب بتضارب مصالحهم مع المصالح العثمانية ، فكانوا ، يشاركون في حروب في خارج مناطقهم ، وربما استخدمتهم الدولة في حروب في مناطق عربية أخرى ، مثل اليمن ، فيضرب العرب بعضهم بعضا ولمصالح الاتراك ولذلك فإن العرب قد طالبوا بجعل الخدمة العسكرية محصورة في أقاليمهم ، كما طالبوا بالاعتراف بشخصيتهم ، والاعتراف بلغتهم ، وإذا كان المبشرون والاجانب المسيحيون ، يشجعون الدراسات العربية ويهتمون بالتراث العربي

فلا أقل من أن تقوم دولة الخلافة الاسلامية بالاهتمام بلغة الضاد لغة القرآن . ولقد شعر عدد من العرب بأنهم أقرب إلى الاسلام والخلافة من المسلمين الأتراك ، إذ أنهم عرب ، وبعضهم ينتسب إلى قريش ، بل وينتسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام . فإذا كانت الخلافة قد جمدت ، فهناك من العرب والقرشيين والأشراف من أن يدافع عنها ، ويعيد إليها عزها ومجدها . ولكنهم اضطروا إلى عدم الإصرار على هذا العامل ، نتيجة لوجود طوائف مسيحية متعددة في أرض العروبة ، وخاصة في الشام . وجاء الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، ولكنه تناسى التطور المنطقي للأقاليم ، وكان عبارة عن عودة دستور مدحت باشا بشكل جديد ، ومع الأحرار على تناسي عوامل اللامركزية التي نمت في المنطقة . فظهر أن الدستور لا يتمشى مع مصالح أبناء المنطقة ، كما ظهر أن الدولة العثمانية تخضع للجمود ، ويزيد فيها النفوذ التركي والعنصري

ومع إنتشار مذهب « الدين لله والوطن للجميع » تحوالت الانظار إلى أوربا تنشد الحرية والمساواة ، نتيجة لشعورها بالكبت في العالم العربي والاسلامي ، ونتيجة لتبلور الانشقاق بين أبناء الوطن الواحد . وإغرو فقد انعقد المؤتمر العربي الأول في باريس سنة ١٩١٣ ، وجاءت قراراته مثبتة لهذا النمو الاجتماعي والاقتصادي والفكري في منطقة الشرق العربي عامة ، والشام خاصة . وإذا كانت الدولة العثمانية قد تظاهرت بمحاولة إرضاء هذه الشبهة العربية الناهضة ، إلا أن وسائلها وإمكاناتها والظروف المحيطة بها قد منعتها من وضع خطة عملية للتوحيد بين الجميع .

ومع ازدياد النفوذ الألماني في الدولة العثمانية ازداد ميل العرب إلى جانب الحلفاء الغربيين ، ومع إعلان الحرب انضم العرب إلى البريطانيين والفرنسيين ،

وأشهروا السلاح في وجه الاتراك العثمانيين . واقد أفاد المعسكر الغربى الاستعمارى من هذا الموقف وأفاد منه فى تقسيم العالم العربى واحتلاله واستغلاله ..

اطماع الاستعمار وقدره : —

كانت الأطماع الاستعمارية الفرنسية فى سوريا هى أقوى الاطماع الموجودة، ومنذ القرن الثامن عشر . وانخذتها فرنسا أساسا لخلق المصالح فى المنطقة والتفوق فيها .

فرغم فشل الجنرال بوناپرت فى إقامة قواعد ثابتة فى منطقة الشرق الأدنى يستخدمها فى ضرب الأستعمار البريطانى فى الهند ، نجد أن فرنسا قد نظرت الى مشروع محمد على اتوحيد سوريا مع مصر كمشروع يهدف الى تنمية النفوذ الفرنسى فى المنطقة كلها ، وعلى حساب بريطانيا . ورغم تخلى فرنسا عن محمد على فى حرب سنة ١٨٣٩ ومعاودة لندن فى السنة التالية ، نجد أنها تعمل على منع نمو أى نفوذ أجنبى فى المنطقة ، سواء أ كان هذا النفوذ بريطانيا أو روسيا . وكان التنافس مع روسيا حول حماية الأما كن المقدسة فى الشام هو السبب المباشر لحرب القرم . ونجحت فرنسا مع بقية الدول الاوربية فى منع ازدياد وتضخم النفوذ الروسى فى هذه المنطقة . وجاءت معاهدة باريس سنة ١٨٥١ لتقرر استقلال الدولة العثمانية وتضمن سلامة أراضيها ولكنها لم تعرقل نفوذ فرنسا فى الشام .

ولكن النزاع قد بدا واضحا بين النفوذ الفرنسى والبريطانى فى مسألة قناة السويس . وعارضت بريطانيا المشروع حتى لاتضع طرق مواصلاتها الامبراطورية تحت تحكم الفرنسيين . وعارض السلطان العثمانى فى التصديق

على إمتياز حفر القناة ، وتوتر الموقف بين لندن وباريس . ولاشك أن عملاء هاتين الدولتين الأوربيتين قد نشطوا في منطقة الشام ، التي تفصل منطقة القناة عن مركز الدولة العثمانية . فنجد أن أصدقاء الفرنسيين ، وهم الموارنة يصطدمون بأصدقاء بريطانيا ، وهم الدروز . ووقعت المذابح وثار ضمير الانسانية الحى ، وطالبت فرنسا باجتماع الدول لبحث الموقف واسرعت باظهار استعدادها لارسال حملة الى بيروت ، منتصف الطريق تماما بين القسطنطينة والسويس . ورغم أن الدول قد اشترطت عليها سحب هذه الحملة بعد ستة أشهر ، إلى أنها بقيت لمدة سنة كاملة ، ولم تسحبها إلا بعد تدخل بريطانيا في الأمر . ولقد شعر السلطان بأنه يمكن لفرنسا أن تفصل بينه وبين منطقة القناة ، وكان هذا من بين عوامل ضغط العملية التي إستخدمتها فرنسا لاجبار تركيا على التصديق على إمتياز قناة السويس .

وتم حفر القناة سنة ١٨٦٩ ، ولكن العام التالى شاهد انهيار فرنسا أمام قوات بسمارك ، واجتاحت فرنسا إلى فترة من الزمن لتضميد جراحها واستعادة مركزها ، وما أن أفادت من كبوتها حتى وجدت أن بسمارك هو الذى يدير كل السياسة الدولية . واضطرتها ظروفها وظروف الدول العظمى الأخرى الى عدم الاصطدام بأية دولة أوربية . كما أنها اضطرت نتيجة لازدهار الحركة الصناعية فيها من ناحية ، ولشعورها بالضعف على القارة من ناحية ثانية - الى ترجمة ذلك بحركة توسع استعماري فيما وراء البحار .

ولقد عارضت بريطانيا في شرا فرنسا لأسهم الخديو اسماعيل في شركة القناة وحصلت عليها لنفسها سنة ١٨٧٥ ، وتقهر النفوذ الفرنسي أمام النفوذ البريطانى في مصر . ورغم اشتراك فرنسا مع بريطانيا في المشكلة المالية

المصرية فان فرنسا لم تكن لتقدر على الالتحام مع بريطانيا فيما يتلق بهذا الميدان ، مادامت القوات الألمانية مرابطة في الألزاس واللورين . وحصلت بريطانيا على جزيرة قبرص سنة ١٨٧٨ فعملت فرنسا على توسيع أملاكها في شمال افريقية بفرض حمايتها على تونس ، ولكن أنظارها ظلت شاخصة الى الشام ، ترقبها وتعهد إلى التوسع فيها ، وفي أول فرصة سانحة . وكان من الطبيعي كذلك أن تبدأ بتونس القريبة منها ، والمهددة بازدياد النفوذ الايطالي فيها ، ثم تثنى بالشام ، وهي بعيدة نسبيا ، ولا يهدد فرنسا فيها مهدد .

وتعرف عملية التوسع الاستعماري التي شاركت فرنسا فيها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، والتي لعبت فيها دورا هاما في جميع انحاء العالم تعرف في التاريخ باسم حركة التسلط . وهي تختلف عن حركة الاستعمار الأولى ، إذ أنها لا تعتمد على الاستيلاء على أرض الوطنيين ، ولكنها تحتفظ بالاقليم بأكمله وبما عليه من أهالي ، ميدانا للاستغلال الاقتصادي لصالح الدول المتسلطة . وهي مرتبطة بالتطور الذي أصاب الاقتصاد الاوربي مع إختراع الآلة البخارية وقيام الثورة الصناعية ثم ازدهار الصناعة الأوربية . واعتمد الاوربي على الآلة وهي سريعة الانتاج ويلزمها الكثير من المواد الأولية وتحتاج الى الاسواق المهمة لبيع المنتجات هذا من ناحية ، وساعدت هذه الصناعة أصحاب رؤوس الأموال على سرعة دورة رؤوس أموالهم وحقت لهم بالتالي أرباحا طائلة من ناحية أخرى . وساعد كل ذلك على سرعة دورة رأس المال وتحقيق أكبر ربح بأسهل طريقة وفي أقرب وقت . ولذلك فان الدول التسلطية قد قامت بالبحث عن أسواق وموارد للمواد الخام في نفس الوقت الذي عملت فيه على امداد الدول المتخلفة بالقروض في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وذلك بشروط مجحفة ، مادامت العملية هي مجرد

استغلال رأسمالي . أى أن تقديم القروض لمصر أو لتونس وبأرباح باهظة تخصم سلفا ودون نظر الى قوة الانتاج الوطنية ، هى عملية تسلطية تحكيمية فى أساسها . وكانت تنتهى دائما باحتلال الاقليم واستغلاله بطريقة سافرة .

هذا هو ما قامت به الدول الرأسمالية ويهمننا منه هنا ما أصاب الدولة العثمانية بشكل عام وإقليم الشام بنوع خاص . لقد شاركت فرنسا مشاركة فعالة فى تمويل المشروعات الانشائية فى شرق البحر المتوسط فاشتركت فى عمليات بناء الموانى ومد السكك الحديدية ، ولعبت دورا كبيرا فى تقديم القروض للدولة العثمانية والسيطرة على ادارتها من الناحية المالية ومهد ذلك لها الطريق لإنشاء المصارف وتسويق بضائعها فى المنطقة . وكان من الطبيعى أن تؤدي هذه السياسة الى وضع المنطقة تحت التحكم الاجنبى . أى الفرنسى بعد فترة من الزمن وبعد أن كانت فرنسا تتكلم باسم الرعايا الكاثوليك ورجال التبشير نجدها تفرض الشروط على ميزانية الدولة وتتحكم بالتالى فى رواتب الموظفين وتسيطر ماليا وفنيا على الموانى والسكك الحديدية وهى أسس الاقتصاد ودعائم الاستراتيجية .

ولكن تفوق النفوذ الفرنسى فى منطقة الشام لا يعنى أمنه من منافسة دولة أوربية أخرى خاصة وأن هذه المنطقة كانت هى التى توصل بريطانيا بمستعمراتها فى الهند والشرق الاقصى من ناحية . وكانت من ناحية أخرى مطمع آمال روسيا القيصرية . ولكن إذا كانت بريطانيا تهتم بمنطقة الشرق بدرجة أقل من إهتمامها بمنطقة قناة السويس . أى بالطريق المائى فان الامر لم يكن كذلك بالنسبة للروس . ذلك أن روسيا كانت تهدف إلى الوصول عن طريق أرمينيا ومنطقة الاسكندرونة إلى مياه البحر المتوسط الدافئ :

وزاد هذا الطمع وضوحا وبدأت روسيا في وضع الخطة له وخاصة بعد أن قررت الدول التحكم في حركة مرور السفن الروسية من البحر الأسود عبر البسفور والدردنيل . فروسيا اذن تطمع في الاسكندرونة في نفس الوقت الذي تحاول فيه التوغل في بلاد الفرس للوصول الى الخليج العربي ، وإذا كان وصولها الى الخليج العربي يهدد الاستعمار البريطاني في الهند ، فان سيرها صوب الاسكندرونة يهدد فرنسا في الشام ، خاصة وأن للروسيا بعض الارثوذكسيين تتحدث باسمهم في منطقة القدس . هذا هو أول خطر هدد الأطماع الاستعمارية الفرنسية في الشام .

ويأتى بعد ذلك الخطر الألماني ، وهو وأن كان قد جاء متأخرا إلا أنه كان أقوى من الخطر الروسي . ذلك أن المانيا قد جمعت قواها بعد الحرب السبعينية وظلت تتظاهر في عهد بسمارك بعدم رغبتها في النزول إلى ميدان التكالب الاستعماري مع بقية الدول الأوروبية ، ولكن ذلك لم يمنعها من إتخاذ قفزة سريعة مع مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤ - ١٨٨٥ للحصول على مستعمرات لها في شرق إفريقيا وفي غربها وفي جنوب غربها في نفس الوقت . وظهر الاتجاه الاستعماري الألماني واضحا بعد تخلص الإمبراطور ولهم أو غليوم الثاني من بسمارك وإشرافه بنفسه على إدارة الدول . ويهمننا هنا أن ألمانيا قد نزلت إلى ميدان الشرق الأدنى نتيجة لتطبيقها سياسة الاتجاه نحو الشرق ، أو الجنوب الشرقي .

ولقد بدأ الإمبراطور ولهم الثاني في تشجيع سياسة التوسع في آسيا الصغرى ، وهدف منها الوصول عبر بلاد الرافدين إلى ميساء الخليج العربي والهند . وكانت هذه السياسة تتعارض بطبيعة الحال مع اتجاه روسيا صوب

صوب الاسكندرونة ، كما كانت تتعارض مع المصالح الاستعمارية
والبريطانية في الهند ، وتهدد الأطماع الفرنسية في الشام . عمد الامبراطور
ولهلم الثاني إلى زيادة النفوذ الألماني في الدولة العثمانية عن طريق بعثاته العسكرية
وقواده وضباط أركان حربه ، ثم جاءت بعد ذلك المشروعات الاستغلالية
الضخمة ، وخاصة لإنشاء ومد الطرق والسكك الحديدية . ويعتبر مشروع
سكة حديد بغداد والبصرة من أهم هذه المشروعات ومن أخطرها . نظر التأثير
على خطوط المواصلات البريطانية ، وعلى مشروعات كل من روسيا وفرنسا
فسكة حديد بغداد تمنع روسيا من الوصول الى الاسكندرونة ، ويمنع فرعها
الموصل إلى الاسكندرونة فرنسا من ربط سكك حديدها في آسيا الصغرى
مع مشروعات سكك حديدها في الشام . فلا عجب أن تعتمد كل من بريطانيا
وفرنسا من ناحية ، وفرنسا وروسيا من ناحية أخرى ، إلى تسوية مشاكلها
والوصول بعلاقاتها إلى مرتبة الصداقة أو التحالف أمام الخطر الجرمانى
المشترك .

وزاد شعور روسيا بضعفها - وخاصة بعد حربها مع اليابان - في
قيمة تحالفها مع فرنسا ، وعمدت فرنسا بالاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ إلى إنهاء
الخلاف مع بريطانيا حول مصر والمغرب الأقصى . وظهرت خيوط التجمعات
الجديدة ونكن الامبراطور ولهلم لم يسلم للامر بسهولة قرار القدس وأعلن
أنه صديق السلطان العثمانى وصديق ثلاثمائة مليون مسلم ، ثم عاد إلى طنجه
سنة ١٩٠٥ وأعلن أنه صديق لسلطان مراکش المستقل . ولكن هذه المقاومة
الألمانية هددت بعزل المانيا بعد تكتل الدول الثلاث الكبرى ضدها . وكانت
المانيا ، مثل غيرها . لا ترغب في حل المشكلات عن طريق الحروب العالمية ،

إلا في حالة الضرورة القصوى . ولذلك فإنها قد اضطرت إلى اخفاء نشاطها في الشام والشرق الأدنى ، وعمدت إلى العمل هناك باسم السلطان العثماني ، وإن كانت قد حافظت دائما على مشروعاتها الاقتصادية وخطتها الاستراتيجية في المنطقة . فالسلطان عبد الحميد هو الذي يشرف بنفسه على عملية مد السكة الحديدية إلى الحجاز ، وهي سكة حديدية تخدم مصالح المسلمين ، وتساعد الحجاج إلى زيارة قبر الرسول . وعلى هذا المستوى يصعب على أى ناقد أن يتهمها بالعمل ضد المصالح البريطانية مثلا ، وإن كانت في حقيقة الأمر تهدد هذه المصالح بالفعل .

وجاء تدعيم العلاقات بين فرنسا وبريطانيا وروسيا من ناحية ، بمعنى معاداتهم لألمانيا من ناحية أخرى ، ويعنى بالتالى تدعيم العلاقات العثمانية الألمانية مادامت هذه الدول تهدف تقسيم منطقة الشرق الأدنى فيما بينهما، إلى مناطق نفوذ ، أي مناطق استغلال .

هذا عن الاطماع الاستعمارية . وبقي علينا أن نتحدث عن غدر الاستعمار . وإذا كانت الاطماع رغم تعددها في منطقة الشام ترجح كافة فرنسا على غيرها . فإن الغدر الاستعماري الذي أصاب الشام يخص فرنسا كذلك ويخصها مع بريطانيا .

وعلىنا أن نرجع هنا إلى ذلك الدور الذي لعبته دار المندوب السامي البريطاني في القاهرة مع شريف مكة وهو ما يعرف باسم مراسلات السيرهزري مكماهون مع الشريف حسين بن علي . فقد كانت البداية فيما أصبح تسمية دون مغالاة أو دعاية باسم الغدر . إذ أن بريطانيا قد تعهدت في هذه المراسلات بالاعتراف باستقلال البلاد العربية وبقيام حكومة فيها وبمساعدها

لهذه الحكومة وهو الأساس الذي بنى عليه الشريف حسين أمر إعلانة للثروة العربية على الاتراك وقيامه بتجنيد العرب ووضعهم في خدمة الحلفاء . ويظهر الغدر واضحا في إسراع بريطانيا إلى عقد إتفاقية مع فرنسا عمدت بها إلى تقسيم العالم العربي فيما بينهما إلى مناطق نفوذ لكل منهما ، سواء أكانت هذه المناطق تخضع لحكم مباشر أو لحكم غير مباشر . وتم التوقيع على هذه الاتفاقية المعروفة باسم اتفاقية سايكس بيكو منذ شهر أبريل سنة ١٩١٦ .

وإذا كانت المادة الأولى من هذه الاتفاقية قد أظهرت إستعداد كل من فرنسا وبريطانيا للاعتراف بالدولة العربية المستقلة ، أو مجموع الدول العربية التي ستقوم في المنطقة تحت رئاسة أمير عربي ، واستعدادها لحماية هذه الدولة فان هاتين الدولتين قد حددا لها داخلية سوريا (المنطقة أ) وداخلية العراق (المنطقة ب) . واحتفظت بريطانيا لنفسها في منطقتها ، وكذلك فرنسا في منطقتها الأخرى ، بالأولوية في المشروعات والقروض المحلية ، بل وبانفراد كل منها في منطقتها بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب الذين سيخدمون فيها . وكان هذا التقسيم يتعارض تماما مع المبادئ التي وافقت بريطانيا عليها مع الشريف حسين .

أما المناطق القريبة من السواحل والتي يمكن للدول الاستعمارية أن تسيطر عليها بسهولة فقد احتفظت بها هاتان الدولتان الاستعماريتان لنفسها ، فاحتفظت فرنسا وأباحت لنفسها في المنطقة الساحلية من سوريا ، كما احتفظت بريطانيا لنفسها في منطقة جنوب العراق حتى بغداد ، بحق إنشاء ما ترغب فيه من حكومات سواء أكانت هذه المناطق خاضعة للحكم غير المباشر . وكان هذا التحديد في الاتفاق على مصير هذه المناطق بعد الاتفاق مع الشريف

حسين على تسوية أمورها فيما بعد ، عاملا ثانيا من عوامل الغدر .

ولقد عدلت المادة الثالثة من مستقبل فلسطين اذ أنها نصت على انشاء ادارة دولية فيها ، يحدد شكلها بعد استشارة روسيا وبالاتفاق مع بقية الحلفاء فقسمت الشام أو سوريا دون موافقه المفاوض العربي وبشكل يتعارض مع عهودهم ووعودهم له .

ولقد دعمت إتفاقية ساكس بيكو المصالح الاستعمارية البريطانية الفرنسية المشتركة في سوريا . ونصت المادة الخامسة منها على بقاء ميناء الاسكندرونة ميناء حرا لتجارة الأمبراطورية البريطانية ، وذلك لفتح الطريق إلى داخل سوريا وإلى العراق . ووافقت بريطانيا في نظير ذلك على أن تكون حيفا ميناء حرا لتجارة فرنسا ومستعمراتها والبلاد الواقعة تحت حمايتها . واتفقت الدولتان الإستعماريتان على انشاء خط حديدي يصل بغداد بحلب ويمر بوادي الفرات . وكان هذا التعاون الاستعماري تأكيذا للغدر بالشيخ العربي الذي اتفق في مكة على وضع إمكانياته ورجاله في خدمة حلفائه . وكانت فرنسا مستعدة للتساهل مع بريطانيا فاذا نشأت صعوبات في شأن سكة حديدية بريطانية من حيفا الى العراق ، فيمكن لهذا الخط أن يمر في أراضي الاقليم الذي سيخضع لفرنسا قبل أن يصل الى المنطقة الداخلية في العراق .

ولقد تعهدت بريطانيا بعدم الدخول في مفاوضات مع دول أخرى للتنازل لها عن قبرص إلا بعد إستشارة الحكومة الفرنسية ، وتعهدت فرنسا بعدم إجراء مفاوضات للتنازل عن حقوقها لدولة أخرى . إلا للدولة العربية وإلا بعد أن توافق الحكومة البريطانية على ذلك .

واتفقت الحكومتان البريطانية والفرنسية ، في المادة العاشرة ، على ألا تمتلكا أو تسمحا لدولة ثالثة بتملك أقاليم من شبه جزيرة العرب أو بإنشاء قاعدة بحرية منها ، واتفقا على ذلك بصفتهم حاميتين للدولة العربية . واتفقا على استمرار المفاوضات مع العرب باسم الحكومتين ، لتعيين الحدود معهما كما اتفقا على ضرورة إتخاذ الوسائل اللازمة لمراقبة ومنع وصول الأسلحة النارية الى البلاد العربية . والغدر الاستعماري واضح في كل هذه المواد من الاتفاقية .

ولقد رأت وزارة الخارجية البريطانية ، لأسباب مختلفة، إلا تطلع الحكومة الفرنسية على شروط اتفاقيتها مع الشريف حسين . وأخفت عنها تماماً نبأ عقدها لمثل هذا الاتفاق ، وهذا النقص في الصراحة جعل المفاوضات تقوم منذ البدء على أساس واه فاسد ، وأثار استياء عميقاً عند الفرنسيين فيما بعد .^(١) وكانت العملية الاستعمارية كلها غدر ، في مجموعها وفي جزئياتها .

٢ - الحرب والصالح :

مر الحلفاء بفترة من أخطر فترات تاريخهم في الوقت الذي دارت فيه مراسلاتهم مع الشريف حسين بن علي ، إذ كانت قواتهم في موقف لا تحسد عليه في الدردنيل ، وكانوا لا يستطيعون تقدماً من مصر صوب فلسطين وعمد الاعراب على مناوشتهم في شبه جزيرة سيناء ، وكان السنوسيون قد توغلوا في صحراء مصر الغربية واحتلوا الواحات وساء الحال في السودان وفي جميع مناطق الشرق الأدنى ، وأوروبا نفسها ، وجاء تعاون الشريف حسين مع الحلفاء كمقدمة لتغيير الموقف ولمساعدة البريطانيين والحلفاء على الخروج من المأزق العصيب الذي كانوا فيه .

(١) أنظر جورج أنطونيوس : بقظة العرب ، ترجمة الدكتور ناصر الدين الأسد بيروت . دار العلم للملايين ١٩٦٢ - ص ٣٤٩ .

وجاء إعلان الثورة العربية في الحجاز وخروج العرب زرافات ووحدانا ينشدون الحرب تحت قيادة أبناء الشريف ضربة شديدة لخطوط المواصلات العثمانية وللإستراتيجية الألمانية في الشرق الأوسط . فوضح أنه من الصعب على الاتراك أن يسيطروا على البلاد العربية أو أن يمحروا منها ويهددوا عدن . وكذلك الأمر بالنسبة لمصر ، فلم يكن من السهل على الاتراك أن يتقدموا هذه المرة للإلتحام بالقوات المصرية الانجليزية مادام جناحهم الأيسر معرضا لهجمات الحجازيين . وكانت هذه الضربة تشجع البريطانيين في جنوب العراق على التقدم شمالا ، في خط يتوازي مع خط هجوم الحجازيين ينشدون أعلى العراق ومنطقة الجزيرة .

كما أن إعلان الثورة من العرب وفي الأراضي المقدسة كان ضربة قوية من الناحية النفسية للسلطان العثماني ، بصفته خليفة للمسلمين . وكان السلطان قد اعتمد على نفوذه الديني لتكثيل العالم الاسلامي حول العالم العربي ، ولخلق المشكلات أمام الدول الاستعمارية ، سواء بريطانيا أو فرنسا أو روسيا وفي مستعمراتها ، وفي المناطق الاسلامية التي تخضع لها في وادي النيل وشمال افريقية ووسط آسيا . وظهر بعد إعلان الثورة أن العرب بأنفسهم لا يرغبون أبدا في العيش تحت سلطة خليفة المسلمين . وكان على رأسهم عربي قريش شريف لا يقل حقا عن العثمانيين في تولي الخلافة . فظهرت الدولة العثمانية في صورة المحتل الغاصب للبلاد العربية ، المتحكمة فيهم من الناحية السياسية والادارية المحتفظة بالخلافة على أساس القوة ، رغم وجود من يستحقها من بين العرب ، أكثر من الاتراك .

وأما من الناحية الاقتصادية فقد كانت الدولة العثمانية تمر بفترة عصيبة

في تاريخها نظرا لضعفها وقلة إنتاج أبنائها وتخلف سكانها ولسيطرة أساطيل الحلفاء على البحار وعلى سواحلها. ومع ازدياد اهتمام الدولة العثمانية بالتعبئة وتجميع قواها ووضعها في خدمة الحرب قل التفاتها الى أي مشروعات إنشائية. وكان من الصعب عليها أن تقوم بمثل هذه المشروعات حتى في وقت السلم مادامت خزانها خاوية. وساعدت الطبيعة على اضعاف الدولة العثمانية في هذه الفترة، فرغم قلة مواد التموين والأقوات، جاءت هجمات الجراد لكي تقضى على البقية الباقية من الحضرة في البلاد، وخاصة في الأقاليم السورية. وكان الجندي العثماني يحارب في ظروف صعبة، فكانت تنقصه الملابس ووسائل النقل والإمدادات، ولكنه كان يتسلح بسلاح الإيمان ويعلم أنه يحارب ويجهاد من أجل الاسلام، وكان يعتقد أن تضحياته ونتيجة عملياته هي القضاء على الاستعمار وإخراج الدخلاء المسيحيين خارج أرض الاسلام. ولكن إعلان الثورة العربية جعله يفكر في انقسام المسلمين، ووضعها في موقف لا يحسد عليه، وهو محاربة المسلمين العرب، وباسم الاسلام. وهذه الناحية النفسية صعبة على كل محارب وكل مجاهد وكان من نتيجتها إضعاف الروح المعنوية لمن وقفوا أمام قوات الاستعمار. وكان هذا العامل بالتالي كسبا كبيرا للحلفاء... المستعمرين تقدمت القوات العربية من الحجاز شمالا بعد أن سيطرت على الموقف فيه، وسهل عليها احتلال الوجه، ثم دخلت العقبة. وأصبحت هذه النقطة الأخيرة رباط الصلة أو القاعدة المشتركة للتعاون العربي - البريطاني، ونقطة الالتقاء بين الأشراف في الحجاز والبريطانيين في مصر. وما أن دخلها الأمير فيصل حتى وجدها قد تمحوت الى قاعدة حربية هامة، وخاصة بعد أن أنشأ فيها البريطانيون المعسكرات، وبنوا فيها المطارات ومخازن المقاتلات والإمدادات

كان الأسطول البريطاني راسيا في مياهها داخل الخليج ، وكانت الطائرات البريطانية تحلق في سمائها ، وخطوط التلغراف والهاتف تصلها بالقواعد البريطانية في شبه جزيرة سيناء . ومنذ هذا الوقت أصبحت العمليات الحربية مكتملة للعمليات البريطانية في الشرق الأوسط ، بل أصبحت جزءا هاما من عمليات الحلفاء وسارت في توافق تام معها . فلقد كان على قوات الامير فيصل أن تشكل الجناح الأيمن لقوات الجنرال اللنبي الزاحفة من مصر مع سواحل البحر الأبيض شمالا في فلسطين ، وكان على هذه القوات أن تشغل الأتراك وتبعدم من أمام البريطانيين وتفتح بذلك الطريق أمام الحلفاء . ولولاها لما تمكن البريطانيون من التوغل في الأقاليم السورية .

دارت الحرب في الشام بين قوات غير متكافئة : العثمانيون في جانب والعرب والبريطانيون في الجانب الآخر . وكان على العثمانيين أن يحاربوا كل من البريطانيين وقوات الأمير فيصل ، وكان عليهم أن يحاربوا في أرض غريبة عنهم ، وبين أهالي صمموا على الثورة وعلى التحرر من العهد التركي وكانت ظروف امداداتهم وتموينهم صعبة وافتقروا الى الجمال ووسائل النقل اللازمة ، وكانوا يحاربون في معركة خاسرة مادام العرب قد وقفوا ضدهم . وفي الجانب الآخر كانت القوات البريطانية مستريحة مزودة بوسائل النقل ومسلحة أحدث تسليح ، مع مايتبع ذلك من تموين وإمداد . ورغم ذلك فلم يصب البريطانيون نجاحا إلا بالقدر الذي تعاونت فيه معهم القوات العربية . وبعد دخول بيت المقدس احتفظ العرب بقوة كبيرة من الأتراك أمامهم في شرقي الأردن ، شغلوها عند عمان ومعان ، وسمح ذلك للبريطانيين بالتوغل شمالا في سوريا .

وإذا كانت قوات الحلفاء قد دخلت دمشق مع قوات العرب إلا أنهم

لم يدخلوها إلا بعد أن إتصل الأمير فيصل برجالها ، ورتب معهم أمر ثورتهم على الأتراك. فلقد دخل الحلفاء دمشق ، عاصمة الأمويين ، ليجدوا المظاهرات الشعبية تملأ الشوارع ، وأعلام الثورة العربية ترفرف على الشرفات والمنازل وصيحات العروبة تدوي بوحدة العرب وباستقلالهم . كان ترحيبا عربيا صكريما بالحلفاء ، وسارت القوات البريطانية في نفس العرض العسكري مع قوات الأمير فيصل . وأنسى هذا الحماس المتأجج والشعور المتدفق العرب وجود إحدى الوحدات الفرنسية إلى جانب الوحدات البريطانية في العرض العسكري ، أو أنساها معنى وجودها .

ولقد واصل العرب عملياتهم بعد دمشق ، فكان عليهم أن يسيروا شمالا وبدفعوا الأتراك ويتعقبونهم خارج بلاد العرب . وعند حلب ، قام العرب بالعمليات الحربية بمفردهم ، ووقفوا عند هذه المدينة في مواجهة صلب القوات التركية التي كان يقودها الضابط القدير والعنيد مصطفى كمال ، وتمكنوا من إجلاء قوات الأتراك . ذلك أن مصطفى كمال كان قد وجد نفسه في موقف لا يحسد عليه ، ووجد أن لامناص من التمهقر عن أرض العرب ، ماداموا قد صمدوا على الاتفصال . وخرج الأتراك من سوريا تشيعهم اللعنات، وصمدوا على نفص أيديهم من العرب ومن مشكلات العرب ، ماداموا قد تحالفوا مع المستعمرين .

وكان الأتراك مخلصين في كفاحهم ضد الاستعمار وباسم الاسلام ، في نفس الوقت الذي كان فيه العرب مخلصين في كفاحهم ضد الحكم التركي ومن أجل الحرية والاستقلال . وكان جمال باشا قد أرسل نسخة من اتفاقية سيكس بيكو الى الأمير فيصل في العقبة في أول العمليات السورية بعد أن قامت الثورة

الشيوعية في روسيا ، وقام البلاشفة بنشر هذه الاتفاقية التي وجدوها في
الأرشيفات السرية في بلادهم . وشرح جمال باشا للأمير فيصل خطورة الموقف
وأظهر له بوضوح أن البريطانيين والفرنسيين لا يهدفون إلا لفصل العرب عن
الأتراك وهم مسلمون ، وتقسيم البقية الباقية من العالم العربي المستقل ، وتوسيع
نظامهم الاستعماري من وسط آسيا وشمال أفريقيا ووادي النيل حتى يطبق
على منطقة الشرق الأوسط بأكملها ، وينهى حكم الاسلام ويقضى عليه .
وشرح جمال باشا أيضا لفصيل ضرورة التفات العرب والمسلمين حول الخلافة
وتوحيد الجهود ووقف الاستعمار بل وإخراجه من الأراضي العربية
والاسلامية التي تئن تحت وقع أقدامه ، وأظهر جمال باشا تسامحا ، من وجهة
نظر الدولة ، حين عرض على فيصل نسيان الماضي والتوقيع على تحالف عربي
تركي لتكتيل قوات العرب والمسلمين والتزول الى ميدان المعركة صفا واحدا
مسلمين مجاهدين ، من أجل الوطن والاسلام ، وعرض عليه استعداد الدولة
العثمانية للاعتراف باستقلال البلاد العربية ، وبضمان المانيا لهذه القرارات ،
واعترافها أيضا باستقلال العرب . ولا يمكننا هنا أن نشك في إخلاص الأتراك
أدنى شك .

ولم يتمكن فيصل من اتخاذ أي قرار في هذا الموضوع الهام ، خاصة وأن
الأمر يحلها وربطها كانت بين يدي والده في الحجاز . فأرسل له هذه المراسلات
دون تعليق . وتصرف الشيخ العربي تصرف كريم ، إذ أنه حول هذه
المراسلات إلى دار المندوب السامي البريطاني في القاهرة ، وطلب منه تفسيراً ،
دون أن يشك في نيات حلفائه المحترمين . وجاء الرد البريطاني ما كراً مائعاً .
جاء بالفاظ مرنة ودون أن يقطع بوقوع هذه الاتفاقية التي تقسم العالم العربي
أو توقيعها من جانب الحلفاء . وجاء بأسلوب يشتم منه أنها خدعة تسعى اليه

الواقعة بين العرب وحلفائهم الغربيين ، واستمراراً لحكم ولتسليم العثمانيين . في العرب بصفتهم مسلمين . وهنا أيضاً لا نتسكن من إتهام العرب بأنهم غير مخلصين ، ولكن إخلاصهم لحلفائهم كان كبيراً ومطلقاً ، ودل هذا على ضحاياهم السياسية ، وعدم تمكنهم من فهم الألاعيب الاستعمارية والاطماع الغربية في البلاد العربية . فإذا تركنا الإخلاص جانباً ، تبقى لنا صلاحية القيادة العربية للتزول إلى ميدان المعركة أمراً يحتمل كل شك . ويحتمل كل نقد .

كانت الأطماع الاستعمارية الغربية واضحة وبخاصة في الأراضي السورية وكان رجال الجمعيات العربية ، جمعية الفتاة وجمعية العهد ، يعرفونها وينحشونها وكان من اللازم ألا يتناسى العرب خطر إقتسام المعسكر الإقليمي في الشرق الأدنى ، وبخاصة وأن جيوشهم الأتراك كانوا يشتركون معهم في رباط عميق أو في جملة روابط لا يمكن تجاهلها . فهناك الاسلام ولا مزيد عليه ، وهناك إلى جانبه خطر تعرض البلاد لنفس المصير الذي لقيه المسلمين في آسيا على أيدي القوزاق ، والعرب في مصر وفي السودان على أيدي البريطانيين ، وعرفها شمال إفريقيا على أيدي الفرنسيين . ولكن الأتراك كانوا قد نزولوا المعركة باسم الاسلام ولتحرير المسلمين ، في الوقت الذي نزحها فيه العرب على أساس أن الدين لله والوطن للجميع ، وأن هذا المبدأ الذي يفرق بين المواطن وأخيه على أساس الدين . أو يوحد بين المسلم والمسيحي على أساس الأرض هو الذي قرر نتيجة المعركة .

وعلى أي حال فإن انسحاب الأتراك من حلب كان هو بداية لنهاية الحرب ، إذ أن تركيا وافقت في اليوم التالي على هدنة مودروس ، ونهياً

العالم للسلم والصلح .

ومع الترتيبات اللازمة لتسويات الصلح إرتفعت نشوة الانتصار في البلاد الغربية ، وردد العرب صداها في الشرق . وأصبح العرب لا يشكون في إمكانية إعتراف العالم بحقوقهم الطبيعية من وحدة واستقلال .

وتنهياً فيصل للسفر إلى باريس حتى يشترك في مؤتمر الصلح ، ويجلس إلى جانب كل من ساهم في نصرة الحلفاء وهزيمة دول الوسط . فترك سوريا على ظهر إحدى البوارج البريطانية ووصل بها إلى فرنسا . وكانت فرنسا قد صممت على ضرورة تطبيق إتفاقية سايكس بيكو والحصول على سوريا . فرأت في عيسى هذا الأمير العربي مطالبا بالاعتراف بحريته بلاده واستقلالها إخراجاً لها من المناطق التي تهيأت لاحتلالها ، وإمتداداً لنفوذ منافستها بريطانيا . فرفضت فرنسا الاعتراف به كممثل للدولة العربية أو للعرب ، كما رفضت استقباله بصفة رسمية كأمر لدولة الحجاز العربية ، دولة الملك حسين ، التي كانت قد اعترفت بها . وأصررت على منعه من النزول في فرنسا إلا بصفته الشخصية ، وبمجرداً من كل صفة رسمية . وكانت هذه هي أول صدمة عملية تجابه الأمير فيصل وتشعره بحقيقة القوة الموجودة في الميدان ، وموقفها منه ومن العرب .

ومع تثبيت فرنسا ضد فيصل إضطر الأمير إلى الالتجاء إلى بريطانيا ، وهي الدولة التي قطعت على نفسها العهود وأعطت الوعود للعرب بالاعتراف باستقلالهم وبضمان حريتهم ووحدتهم وتقديمهم ، فذهب فيصل إلى لندن ، وشعر هناك بوحدته وغرجه وبمجزئه عن فهم السياسة والدبلوماسية وحملات الصحف ، خاصة وأنه لم يكن متمكناً من اللغة الانجليزية ، ولا يفهم اللغات الأوربية .

وجد فيصل نفسه في لندن محاطا برجال الإمبراطورية البريطانية الذين عرفهم في مدة الحرب في الشرق العربي ، وكانوا مستعدين دائما لاعطائه النصائح ، وفي صالح الإمبراطورية البريطانية . فأشاروا عليه بضرورة عدم الاصطدام مع فرنسا ، وبضرورة التفاهم مع الصهيونيين ، إذ أن هذا الخط كان هو خط السياسة البريطانية ، وخط سائر حلفاء البريطانيين ، ونصحوه بضرورة التفاهم مع الفرنسيين حتى لا تعرقل فرنسا المشروعات العربية ، ولا تستخدم القوة ضده ولا زالت قواته وإمكاناته ضعيفة .

ولقد وجد فيصل أن في استطاعته أن يتفاهم مع الصهيونيين ، خاصة وإنهم قد أقنعوه بعدم وجود أي خطر من الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وبالعلاقات الوطيدة التي تربط بين العرب واليهود ، وبإمكاناتهم المتفوقة لتأييد المطالب العربية في الأوساط السياسية والدبلوماسية ، وللمساهمة في مشروعات التقدم والاستقلال الاقتصادي في البلاد العربية . ونتج عن هذا التفاهم اتفاقية عرجاء لا تستند الى سند قانوني ، بين فيصل والدكتور حاييم وايزمان ، سندا قشها عند التحدث عن فلسطين في الباب الثالث . والمهم هنا هو أن فيصل قد نفذ رغائب البريطانيين رغم أنه قد وضع على هذه الاتفاقية شرطا يلغيها تماما في حالة عدم إرضاء المطالب العربية :

وحينا ذهب فيصل الى فرساي لم يتعرض للهجرة اليهودية الى سوريا الجنوبية ، أي فلسطين الا بهذا القرار الذي يشتم منه أن اليهود هم أبناء أعمام العرب ، وأن الكرم العربي يحتم عدم إقفال الأبواب في وجه اللاجئين المستجيرين . فما بالك بالمشردين والتائمين ؟

كان خطاب الأمير فيصل أمام مجلس الصلح خطابا هادئا رزينا ، وكأنه خطاب شيخ ينشر بعض المبادئ . ولا يؤمن الا بالانسانية . ويعتقد في عدالة مطالبه ولا يري الا طماع الاستعمارية وجوداً . فأصر على ضرورة استقلال البلاد العربية ووحدتها وتعاونها مع الغرب للوصول الى مراتب التقدم والسير مع ركب المدنية ، ولكن هذه المبادئ التي تحدث عنها فيصل كانت - رغم جمالها وبساطتها - تتعارض تمام التعارض مع الاطماع الاستعمارية في سوريا . ورغم تعلق الشعوب بالمبادئ التي نشرها الرئيس ويلسون ، والتي قررت حقوق الشعوب في تقرير مصيرها . فقد ثبت أن المبادئ شيء . وأن تقريرها وتنفيذها هو شيء آخر . وأن هذا التنفيذ . أي التطبيق العلمي . يحتاج الى قوة . وقد أعوزت هذه القوة كل من العرب ومؤتمر الصلح .

٤ - المؤتمر السوري .

لم يشك العرب في أي وقت من الاوقات في عدالة مطالبهم اذ أنها كانت طبيعية علاوة على أن بريطانيا قد اعترفت بها وتعهدت بتنفيذها وبالمساعدة في تشييدها . ولذلك فان العرب قد واصلوا اجتياحهم باستقلالهم وأخذوا يحاولون تنظيم ادارتهم . وادارة شئون بلادهم وفي انتظار الاعتراف الرسمي بهذا الاستقلال وبذلك الوحدة وبمساعدة الحلفاء . والحصول على المركز القانوني الدولي الذي يستحقون . ولكن سرعان ما خابت آمالهم في حلفائهم الذين عمدوا الى مواجهة المشكلة بطريقة استعمارية : ولتحقيق أطماعهم في البلاد العربية دون التفات الى أي اعتبار آخر .

فلقد اجتمع مجلس الحلفاء الأعلى في سان ريمو . وقرر وضع البلاد العربية

في ظل نظام الانتداب وتحت تحكم البريطانيين والفرنسيين ودون الالتفات الى مصالح أبناء البلاد .

ولا يمكننا أن نتناسى ذلك المجهود الذي قام به الرئيس ويلسون لدفع الدول الأوروبية الى الاعتراف بحق الشعوب في تقرير مصيرها . ولكن هذا المجهود كان . هو أيضا . مجهوداً نظرياً دون أن يستند الى قوة لتنفيذه . ولقد أصر الرئيس ويلسون على ضرورة ارسال لجنة دولية لتحقيق الى البلاد العربية . لكي تتصرف على رأى الأهالى وتعرف على رغباتهم . وأراد أن يستند الى نتائج هذا التحقيق لتقرير سياسة دولية تمشى مع حقوق الشعوب ومبادئ الحرية . واقترح أن تتشكل اللجنة من مندوبين عن كل دولة من الدول الأربع العظمى . بريطانيا وفرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية وهنا جاء الفشل . اذ أن اتجاه الدول الأوروبية الثلاث كان استعمارياً واضحاً . ورغم تنافسها فيما بينها . فانها لم تكن لتسمح للعرب بأى حق . خاصة اذا كان هذا الحق يتعارض مع الاطماع الاستعمارية .

وهكذا تطورت فكرة التعرف على رغبات العرب . متأثرة بعاملين : الأول هو عدم رغبة الأكثرية في الالتفات الى مطالب العرب . والثانى هو عدم استناد فكرة الرئيس ويلسون الى قوة مادية لتنفيذها .

كانت فرنسا تخشى من أن تستند بريطانيا مع بقية الحلفاء الى رغبات العرب لبقاء بعيداً عن النفوذ الفرنسى لكي تخرجها من المناطق السورية ، فعارضت مشروع لجنة التحقيق ، وزاد من معارضتها موقف بريطانيا التى رأت أن فرنسا لم تقم بدور فعال في الحرب في البلاد العربية ، أو بدور يسمح لها بالحصول على منطقته لنفوذ كبيرة هناك . فلقد أظهرت بريطانيا

نيتها واضحة لعدم تطبيق اتفاقية سايكس بيكو بدعوى أن روسيا القيصريّة — وهي إحدى الدول التي وقعت عليها — لم تنفذ تعهداتها . ثم أشارت على فرنسا بضرورة تغيير النظام الدولي المقترح لفلسطين إلى نظام بريطاني . مادام بلفور قد وعد اليهود بتسهيل انشاء وطن قومي لهم في فلسطين ، وأما عن الموصل فهي منطقة لم يحتلها الحلفاء إلا بعد التوقيع على اتفاقية الهدنة مع الاتراك في مودروس ، وهي بعيدة عن السواحل السورية التي تهم فرنسا وليس لفرنسا فيها نفوذ ديني أو أدبي ، ومن الواجب ربط اقتصادها باقتصاد العراق ، البريطاني ، بدلا من ربطها بالمنطقة السورية التي تهم فرنسا . زاد هذا التنافس الاستعماري البريطاني — الفرنسي في المنطقة من خوف فرنسا من إرسال لجنة التحقيق الدولية الى البلاد العربية . فإشارت بضرورة إرسال هذه اللجنة لفلسطين والعراق أيضا ، حتى يعرف العالم ان كان العرب يفضلون البريطانيين على الفرنسيين ، أو يقبلون خضوع مناطقهم لإدارة حكومة لندن .

أما بريطانيا فانها قد رفضت الاعتراف بوجهات النظر الفرنسية، واستندت الى ارتباطها بتعهدات مع العرب من ناحية ومع اليهود من ناحية ثانية ؛ كما استندت الى أن فرنسا لم تقم بدور فعال في الحرب في العالم العربي، وأصرت على موقفها . والمهم هو أن فرنسا لم تعين مندوبين عنها في لجنة التحقيق وكذلك بريطانيا ، وأما إيطاليا فانها قد تأخرت في تعيين مندوبها . وأمام هذا الموقف سافرت اللجنة وهي لا تشتمل الا على المندوبين الأمريكيين كينج وكرابن . وأصبح عليها أن تدرس الموقف في البلاد العربية ، وتعرف رغبات العرب وتعطي تقريرا عن مهمتها الى عصبة الأمم .

شعر العرب بأن العالم الغربي يناقش في الحقوق الطبيعية لأمتهم وبعد أن تعهد الغرب بالاعتراف باستقلالهم وبوحدتهم . وكانت دمشق تغلى في ذلك الوقت . لقد كانت ممتلئة بالضباط وزعماء العرب ومن كل المناطق ، فهناك رجال جمعية الفتاة والضباط جمعية العهد وهم الذين قادوا الثورة وقادوا العرب في ثورتهم ومن أجل استقلالهم . ورغم احتفاظ البريطانيين بالادارة العسكرية في كل من العراق وفلسطين ووجود بعض القوات الفرنسية على السواحل السورية في لبنان ، فان ذلك لم يمنع العرب من اقامتهم لادارات مختلفة في بقية المناطق لتسيير شئون البلاد .

أما في المناطق الأخرى فان العرب كانوا يسائلون الاجانب عن ميعاد الجلاء وتسليم الادارات لأبناء البلاد . وكان رأيهم واحدا لا انفصال فيه ويتلخص في استقلال البلاد العربية ووحدتها . ولكن الحديث عن الأطماع الفرنسية من جهة ، والاطماع البريطانية من جهة أخرى ، دفع بهم الى التمعن في خريطة البلاد العربية ، وأظهر عاملا قديما طالما طلب العرب به في ظل الاتراك : الا وهو ضرورة تطبيق النظام اللامركزي في أقاليمهم ، أى تخفيف الروابط الموجودة بين الأقاليم وجعل علاقاتهم متوازية مع بعضها بدلا من تركها خيوطا تتجمع في مركز واحد . وهي نقطة هامة ستعطى نتائجها الحاسمة بسد قليل .

اجتمع رجال العرب في المؤتمر السوري وضجت الشوارع بالصرخات مناديه بالوحدة والاستقلال . وقرر الزعماء أو القادة أمر سوريا بمفردها ، وان كانت بحدودها الطبيعية ، وأمر العراق بمفرده . لقد اتفق الزعماء على وحدة سوريا واستقلالها من ناحية ، وعلى وحدة العراق واستقلاله من ناحية

أخري . وكان هذا نتيجة لانقسام جمعية العهد وتحت تأثير كل من العوامل الدولية والعوامل الاقليمية في العالم العربي

قرر المؤتمر السوري انشاء حكومة ملكية دستورية في الشام عاصمتها دمشق ورأسها فيصل ، تتولى أمر السوريين من رفح الى طوروس ، وباسم السوريين ، ما دامت حكومة دستورية مسئولة أمام ممثلى الشعب ، فلا فرق ولا فاصل بين سوريا الجنوبية ، فلسطين ، وبقية الشام . أما جبل لبنان فيمكنه أن يحتفظ باستقلال ذاتي ، ولكن في نطاق الوحدة السورية فلا أهل لبنان أن يديروا شئون منطقتهم كما كانوا في العهد العثماني ، ولكن عليهم أن يسيروا بسياساتهم في نطاق الوحدة السورية العربية ، ما دامت المملكة العربية تجمع بين المسلم والمسيحي في نطاق العروبة . وتترك كل منهم يعتقدون بأن الله كما يشاء . أى ما دامت الحكومة العربية تترك الدين الله وتقرر أن الوطن للجميع . فوجد هذا العامل بين لبنان وبقية الأقاليم السورية بعد أن كان أساس فرقة بين أبناء الوطن الواحد في ظل الادارة العثمانية . وجاء هذا التحرر من جانب السوريين في دمشق أكبر دليل على تسامحهم وصدق عروبتهم . بل حتى وعمق اسلامهم

لقد قرر المؤتمر السوري اعلان فيصل ملكا دستوريا للمملكة سوريا العربية . كما اجتمع رجالات العراق في عاصمة الأمويين وأعلنوا قيام حكومة عربية للعراق . ملكية دستورية . وتنصيب الأمير عبد الله بن الحسين وأخا فيصل ملكا عليها .

وكان من الطبيعي أن يقتنع الغرب ودول الحلفاء العظمى بصدق هذه القرارات وبتوافقها مع رغبات الشعب العربي وفي حدود إمكانياته . ولكن الغرب كان قد صمم على تنفيذ سياسته — وواخضاع العالم العربي لحكمه

وتحكمه. واستغلال المنطقة بما لها من موارد وما عليها من قومي بشرية حسب رغائبه وفي صالح جيوب المستعمرين . بل يمكننا أن نري تضامن الدول الغربية الاستعمارية فيما بينها ، وتكوينها لجهة استعمارية ، تقضى على الخلافات وتسوى المشكلات ، وتستعد لاستخدام القوة .

وجاءت لجنة التحقيق الدولية الى سوريا لكي تجدها شعلة من الحماس والرغبة في التضحية ومن أجل المبادئ التي تاروا لها وحملوا السلاح وحاربوا وانتصروا من أجلها . وطافت لجنة التحقيق جميع أرجاء سوريا وعدداً كبيراً من مدنها وقراها ، ووصلت إلى فلسطين ، وإستمعت الى رجال المؤتمر السوري والى الزعماء والقادة وأبناء الشعب ، ثم كتبت تقريرها ورفعت صورة منه إلى عصبة الأمم ، وقدمت الصورة الأخرى لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية .

ولقد نص هذا التقرير على تمسك العرب بوحدتهم واستقلالهم ، فليس هناك ما يسمى سوريا وما يسمى بفلسطين ، بل هناك الدولة السورية من رفح الى طوروس . هذا عن الوحدة ، أما عن الاستقلال فهناك حكومة ملكية دستورية ، وطنية تمثيلية ، تدين بالمبادئ الغربية في فصل السلطات وتعلن مبادئ الحرية ومساواة الجميع أمام القانون .

أما مسألة انشاء وطن قومي لليهود في منطقة فلسطين ، فإن العرب كانوا قد شعروا بخطر هذا على بلادهم وعلى مستقبلهم ولم يكن لهم دخل في تبرع بريطانيا بمنح اليهود أرضاً يقيمون عليها ولكنهم عارضوا في أن تكون هذه الأرض هي أرضهم ومورد رزق أبنائهم . ولم تكن المسألة مجرد كرم في الضيافة ما دامت للجنة الصهيونية قد أظهرت من الاطماع في فلسطين ما يثبت أنها لا ترضى بأقل من اقامة دولة يهودية في هذا الجزء الهام من

سوريا، وأنها تحاول تسير البريطانيين، واجبارهم على خدمتها لتهيئة الجو
اللازم لها لانتزاع الارض من العرب ولا عادة إنشاء مملكة سليمان . ولذلك
فال مؤتمر السوري لم يعترف بوعد بلفور، ورفض كمجلس تأسيس الاعتراف
بالاتفاقية التي وقعها فيصل مع وايزمان ، وإنتهت هذه النقطة بوحدة سوريا
بأكملها ، ودون الاعتراف بأي حق دولي للصهيونيين ، وهو ما شرحه العرب
للجنة التحقيق .

بقيت مسألة رابعة مرتبطة بالانتداب وهي مسألة المعونات الفنية والاقتصادية
التي اشترطت بريطانيا على العرب ألا يقبلوها في بلادهم من سواها ، والتي
اتفقت عليها مع فرنسا على أن تكون فرنسية في منطقة النفوذ الفرنسي .
لقد قبل العرب هذه المعونة على أساس أن تكون بريطانية في كل من مملكتي
العراق وسوريا ، وعلى أساس ألا تتعارض مع مبادئ الوحدة والاستقلال .
ولكنهم رفضوا اي معونة فنية أو اقتصادية من جانب فرنسا في سوريا .
وإذا كان من الصعب على بريطانيا أن تقدم هذه المعونات إلى سوريا ، علاوة
على معونات العراق ، فإن العرب قد وافقوا على أن تقوم الولايات المتحدة
الأمريكية بتقديم هذه المعونة لسوريا . ونظروا إلى الولايات المتحدة على أنها
دولة غنية وليست لها اطماع استعمارية ، سياسية على الأقل ، في المنطقة .
ولكنهم أصرروا على رفضهم كل معونة فرنسية واشتروا خضوع هذه
لمبدأ الوحدة والاستقلال ، وعدم تعارضها مع هذين المبدئين . ولكن سرعان
ما نفقت الولايات المتحدة المتحدة الأمريكية يديها من مشكلات العالم القديم ،
ولم تكن مبادئ حقوق الشعوب في تقرير مصيرها إلا مثلاً علياً أقيمت في
الجو المضاني تأييد البسطاء المخلصين لقضية الحلفاء ، أي أنها كانت جزءاً من
استراتيجية الحلفاء . وعاد ويلسون إلى بلاده لكي يجد أعضاء الكونغرس

يطالبون بضرورة الاستمرار في تطبيق مبدأ منزو . فأبعد العامل الأمريكي من المشكلة . وكذلك إنتاب إيطاليا شعور بأن فرنسا وبريطانيا قد اقتسمت الغنائم فيما بينها ، فانتابها نوع من التسامى ، وأعلنت أنها احتفظت بأيديها نظيفة . وبقي على فرنسا وبريطانيا أن يقررا الامر فيما بينها ، مستندين في ذلك إلى قواتهم المادية وتنظيمها وامكانياتها ، لكي يفرضوا على من حالفهم في فترة الحرب وشارك الى جوارهم في ميدان العمليات ، وفي معركة الحرية ، يفرضون عليه الذل والهوان ، بالقوة الغاشمة وبرصاص البنادق وقنابل الطائرات ، وباسم إدخال المدنية والحضارة ، وتحت ستار قرارات عصبة الأمم والمجتمع الدولي .

كانت المعركة غير متكافئة ، وسخر العالم الغربي بالمبادئ التي صرخ بها وأعلنها على الجميع . وتأهب الاستعمار ورتب قواته وظهر على حقيقته . الحق للقرة ، وعلى المبادئ أن تشكل نفسها وتضع امكانياتها في خدمة هذه القوة حتى وإن كانت استعمارية . وتحولت المسألة الى معركة صريحة بين الدول الغربية ، دول الحلفاء ، وبين من تحالف معهم في الأمس .

(٥) الاحتلال .

يمكننا أن نقول بشكل عام أن إزدیاد الخطر الفرنسي على سوريا كان قد ألقى بزعماء الحركة الوطنية إلى جانب بريطانيا دون أن يقدر الروابط التي تجمع بين الدول الغربية وبين حركة الاستعمار وبين رجال الاستغلال الاقتصادي للشعوب فيما وراء البحار . إعتقد العرب أنه يمكنهم بالتفاهم مع بريطانيا أن يبعدوا الخطر الفرنسي . وكانوا يعتقدون علاوة على ذلك في « الشرف البريطاني » وفي اعتدال اخلاق البريطانيين وسموها . وكان هذا هو الخط الذي سار عليه فيصل ، وهو التلويح أمام بريطانيا بخطر التوسع ...

الفرنسي في سوريا عليها حتى يحصل منها على التأييد والمعونة . وذهب فيصل الى اوربا لكي يعرض « قضية » بلاده . ولم يكن الأمر بالقضية ، إذ كان حقاً واضحاً ، والحرية تنزع ولا تمنح . فقد كان رجال الاستعمار أنفسهم يعلمون أن من حق الشعوب أن تصل الى استقلالها وأن تحقق أمانيتها القومية . ولكن المسألة كانت مسألة مصالح واستغلال رأسمالي وسيطره على نقط وقواعد عسكرية ، وتسخير الشعوب الأخرى في خدمة الامبراطوريات الاستعمارية . ومهما ذكرنا من أهمية الدعاية فلم يكن على فيصل أن يغير التكوين العقلي لقادة الاستعمار في أوربا . بل كان من المنطقي عليه وعلى رجاله بعد أن اعلنوا ثورتهم وحملوا السلاح وصوبوه الى الأتراك أن يواصلوا الاحتفاظ بنفس السلاح ، ويواصلوا نفس المعركة ، أمام المستعمرين الأجانب ، حتى يصلوا الى ما قرروا الوصول إليه ، وخاصة بعد أن ظهر حث الحلفاء بعودهم وتراجعهم في وعودهم . فلم يكن أمام العرب إلا الجهاد دون تراجع . ولكن هذا لم يقع .

وعاد فيصل مرة ثانية الى اوربا وشرح « قضية بلاده » وحاول الاستعطاف والتفاهم ، وكان موقفه يحمل - رغم عزته - معنى التوسل ، وهي لغة لا يفهمها الاستعمار ، وخاصة وأنهم يعلمون أنها معركة . وأن في استطاعتهم كسبها بالحديد والنار .

واضطر فيصل الى التفاهم مع فرنسا ، فيمكنها أن تعترف باستقلال سوريا في نظير ترك فيصل لها على السواحل السورية ، ويمكنه أن يستعين بها في خبره الفنية والاقتصادية ، وفي نظير اعترافها باستقلال العرب في الداخل تحت رئاسته وفي ظل تاج ملكه ، وكان قد رأى التقارب بين

بريطانيا وفرنسا وموافقة حكومة باريس على الخط البريطانية القاضية بتحويل الادارة الدولية في سوريا الجنوبية الى ادارة بريطانية مباشرة ، تسهل إنشاء الوطن القومي لليهود ، ورأي التفاهم بين لويد جورج و كليمانصو لترك ولاية الموصل تضم الى منطقة النفوذ البريطاني في العراق نظير احتفاظ فرنسا بـ ٢٥٪ من بترول هذه الولاية ، وهي الحصة التي كانت لألمانيا في نفط العراق . رأي فيصل كل ذلك وحاول الاستعانة بالبريطانيين على الاطماع الاستعمارية الفرنسية في سوريا ، وأشار عليه البريطانيون بضرورة الاتفاق مع فرنسا ، وإتفق فيصل وتقد بهذا أمنية حلفائه ، وهم مرتبطين بالاستعماريين الفرنسيين أكثر من ارتباطهم بالعرب .

وحاول فيصل أن يدخل الولايات المتحدة الامريكية في الموضوع ، أي أنه حاول بمعنى آخر عرض المسألة على بساط البحث أمام الدول العظمى . ولكن الولايات المتحدة كانت قد ولت وجهها شطر الغرب ، مشكلات الشرق ورغم كل ذلك فقد احتفظ فيصل بفكرة دعوة مؤتمر دولي لبحث القضية العربية .

عاد فيصل الى سوريا لكي يجدها على آخر من الجمر ، والمظاهرات في الشوارع ورجالات العرب في كل مكان يتباحثون ويتساءلون ويقلبون الامر على أوجه . ولم يجد فيصل من الشجاعة ما يسمح له بإبلاغ الشعب السوري بالاتفاقات التي إتفق عليها مع كليمانصو . فلم يعلم بها الا بعض خاصته ، وظل الشعب يشك في أن هناك شيئا في الجو ، شيء غير واضح ، ولكنه ينجم على مستقبل العرب الصناديد . وتحمل فيصل بذلك مسئولية أمام التاريخ ورغم كونه ملكا دستوريا ، وحمل نفسه ذاك العيب دون أن يشرك معه

الشعت فى مسئولية حملة ، أو فى إقرار رفضه ، مع ما يترتب عليه من نتائج وكان هذا الموقف يعتبر التصرف الثانى ، بعد اتفاقه مع وايزمان لإدخال اليهود إلى فلسطين ، والذي يدل على أنه كان لا يؤمن بأن السلطات الدستورية تستمد من الشعوب .

وأثبت التاريخ عدم جدوى محاولات فيصل ، اذ أن الغرب كان متضامنا، على أساس مصالحه ، ومستعداً لاستخدام القوة ، وفى كل الميادين . فاجتمع مجلس الحلفاء الأعلى فى سان ريمو وقرر تقسيم البلاد العربية الى مناطق نفوذ وعهد بمنطقتى سوريا ولبنان الحاليتين الى فرنسا طبقا للمادة ٢٢ من معاهدة فرساي ، وعلى أساس أنها بلاد متخلفة ولكنها ليست همجية ، فيمكنها أن تصل الى الاستقلال بعد مرحلة من الحجر الدولى أو الوصاية أو الانتداب ، باسم عصبة الأمم ، وتنتدب لها العصبة احدي الدول العظمى للوصول بها الى هذه النتيجة ، أى الى مرحلة الاستقلال والقدرة على تصريف شئونها بنفسها . فارتفعت درجة الغليان فى دماء العرب وتالت مظاهراتهم وتوالى صيحاتهم واحتجاجاتهم . كانوا مصممين - أشد التصميم - على رفض قرارات المجلس الأعلى للحلفاء ، وكان فى استطاعة فيصل أن يستند الى هذا الشعور الوطنى والى هذا الانصهار القومى العربى ويبدأ عملية تنظيمه وينزل به الى ميدان المعركة . ولكن فيصل كان لا يزال يعتقد فى إمكانية تدخل بريطانيا أو الولايات المتحدة الأمريكية أو مجموع الدول الغربية فى المشكلة وابقافهم للاطماع الفرنسية عند حدها . وحاول السفر إلى اوربا مرة تالفة ولكن رجالات العرب قرروا ضرورة بقاءه مع رجاله فى الميدان ، فهو ملك دستوري وعليه أن يتصرف وفقاً لرغبات الشعب أو لقرارات ممثليه . وبقي فيصل فى سوريا وظهر إختلافا واضحا بينه وبين معظم القادة إلى جواره ،

فلقد كان يؤمن بإمكانية التفاهم مع الغرب وكانوا يرون ضرورة حماية الاستقلال والوحدة بأسنة الرماح . بل وبدماهم الغالية . وكان هذا انفصالا واضحا بين موقف فيصل وموقف القاعدة الشعبية أو الوطنية في سوريا . وبقي فيصل في الميدان ، ولكن طريقته كانت تختلف في أسسها عن طريقة الوطنيين المجاهدين . فلقد تحول إلى سياسى . وهو لا يصلح للقيام بدور الدبلوماسى . وكانوا هم من المكافحين المجاهدين . وهذا الاختلاف الواضح سيعطى نتائجه على المعركة .

ولقد حاول بعض السوريين في هذا الوقت العصيب أن يخرجوا فيصل من سوريا ، ويتولوا أنفسهم أمر الجهاد ، ولكنه قرر أمامهم أنه دخل هذه البلاد فاتحاً ، وأنه لن يخرج منها إلا بالقوة « فإذا كانت لديكم القوة الكافية لإخراجى فافعلوا ، ودمى ودمائكم في الشارع » . وكان هذا القرار يعنى الاصطدام بين العرب أنفسهم ، وبين المجاهدين وقيادتهم ، والعدو على الأبواب .

بقي فيصل في الميدان وعلى رأس حكومة ضعيفة ، أعمالها متناقضة وقراراتها متضاربة وتحاول إنشاء شيء من لا شيء ، وبوسائلها هي ، وقد صممت على تناسى القوة الشعبية أو إجبار هذه القوة على اتباع طريقها وخط سيرها . وأمام ضعف الحكومة كان الوعي العربى في أعلى مراتبه والحماس الوطنى لا يطلب إلا التضحية والبذل .

كان من الطبيعى أن يصل الأمر ، عاجلاً أو آجلاً ، إلى اصطدام بين القوة الوطنية الحقيقية وبين الاستعمار الفرنسى المرباط على السواحل السورية في لبنان . فما هي القوى في كل معسكر ؟ وما هي مسئولية القيادة الموجودة

على رأس المعسكر الوطنى ؟ مادام الشعب مستعد لكى يموت من أجل الحياة . كانت قوات الأمير فيصل عبارة عن قوات من المتطوعين الذين انضموا إلى الحركة العربية منذ إعلان الثورة ، وساروا بقيادة فيصل حتى دمشق ، كانوا جنوداً أكثر منهم مواطنين عرب ، أما قادتهم فكانوا من الشباب المتحمسين الذين يشتغلون بالسياسة مثل اشتغالهم بفنون الحرب ، إن لم يكن أكثر ، وكانت طبيعة تكوينهم تختلف من فرد إلى آخر تبعاً لتجاربه ودراسته واستعداده . وكان فى استطاعة هذه القوات أن تحارب ما دامت الذخائر تصل إليها ، مع الرواتب . وكان كل ذلك يعمل عن طريق بريطانيا . واحتفظت بريطانيا بهذه القوات فى حالة تسمح لها بالسيطرة عليها فكانت مسلحة بالبنادق فى الوقت الذى يحتفظ به البريطانيون بالمصفحات والمدفعية والطيران والألغام ، وكانت قوات من المشاة ولا يمكنها أن تنزل المعركة إلا إذا قررت قيادتها ضرورة تعاضدها بالقوة الوطنية الشعبية ، وهى وحدها الكفيلة بوقف الحركة الاستعمارية أو تحرير البلاد .

أما فى الجانب الآخر فأننا نرى أن القوات الفرنسية كانت كبيرة العدد ، منظمة ومدرّبة ، ولها خبرة كبيرة اكتسبتها فى الحرب العالمية الأولى ، وأمام الألمان . فهناك رجال الفرقة الأجنبية ، وهناك القناصة الجزائريين ويمكننا أن نضيف إليهم سود السنغال ، ثمانون ألفاً غيرت الحرب العالمية تقسيمهم من آدميين إلى وحوش ينزلون إلى ميدان المعركة أو إلى الشوارع عند صدور الأوامر ، ويظهرونها تماماً من كل كائن متحرك . ويضاف إلى ذلك المدفعية والمصفحات والطيران . وكان من السهل تدارك عدم تكافؤ القوة فى حالة إعلان الحرب على فرنسا ، وقرار التعبئة العامة ووضع كل عربى أمام مسؤولياته . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث .

وكانت المناوشات والاشتباكات مستمرة بين جماعات العرب غير النظامية وبين القوات الاستعمارية الفرنسية في لبنان ، كما كانت مستمرة كذلك ضد الادارة البريطانية في منطقة دير الزور . وبدأت المشكلة حين قرر الفرنسيون وضع حد لهذه الاشتباكات ، والسيطرة على كل سوريا ، والقضاء على الحكومة العربية فيها . وحدث ذلك في أوائل شهر يونيو سنة ١٩٢٠ حين أبلغ فيصل القائد العام الفرنسي في المشرق بأنه ينوي السفر إلى فرنسا للتفاهم مع حكومة باريس في شأن العلاقات المقبلة بين البلدين . وكانت بريطانيا قد لعبت في الأمر لعبتها ، فأبلغت كل من فيصل والفرنسيين أمر انسحابها من داخل سوريا وإلى فلسطين ، فأصبحت القوة العربية وحدها في مواجهة القوة الفرنسية . وكانت المشكلات قد بلغت مرحلة خطيرة بين البريطانيين والعرب العراقيين في منطقة الجزيرة ، فقررت بريطانيا ترك العرب وحدهم في الميدان . وكانت الدلائل تدل على قرب مهاجمة عبد العزيز آل سعود للملك حسين في الحجاز ، فأصبح المعسكر الهاشمي ينتظر هبوب العاصفة ومن كل مكان . وفي ذلك الوقت قررت بريطانيا منع المعونة الفنية والاقتصادية عن فيصل ورجاله في سوريا ، بدعوى أنهم خارج منطقة النفوذ البريطاني . ثم وجاء رد القائد العام الفرنسي إلى فيصل بضرورة تأجيل سفره لبضعة أيام إذ أن مراسلات هامة ستصل له من باريس .

ووصلت هذه المراسلات إلى القائد الفرنسي الجنرال غورو الفاره القامة العريض المنكبين ذي اللحية الكثيفة ، الذي تمرن في المغرب العربي مع ليوتي على عجم عود العرب ، وجاءت به فرنسا إلى المشرق لايجاد مجال حيوي لنشاطه بعد أن قرر ليوتي أن السياسة تكفي دون الرماح للسيطرة على المغرب وحول غورو هذه المراسلة إلى فيصل في يوم ١٤ يوليو ، عيد الحرية عند

الفرنسيين . وكانت عبارة عن انذار صريح لا يقبل الرد ولا مد المهلة ولا يطلب إلا الطاعة والتسليم والتنفيذ . وإذا نفذ فهو الاحتلال ، وإذا رفض فهي المعركة . طلب الانذار من فيصل تسليم مواصلة السكة الحديدية في حلب وتسريح الجيش السوري ونزع سلاحه واستخدام العملة الفرنسية في كل سوريا وكبت كل حركة تناهض النفوذ الفرنسي أو تحاول تقده وتجرّحه وفي ظرف عدة أيام ، وان لم تجب هذه المطالب ، مع السماح للقوات الفرنسية باحتلال النقاط والمواقع اللازمة لضمان أمنها ، فستقدم القوات الفرنسية ، ولقد أعذر من أنذر .

كان هذا الإنذار صدمة قوية لفيصل ، كما كان صدمة عنيفة لكل من كان يعتقد في إمكانية التفاهم مع قوي الاستعمار الغاشم . ومن طبيعة الصدمات أن تهز الموقف هزاً فيؤثر ذلك على العناصر الموجودة فيه ، فتتجمع الحبوب الثقيلة في جانب والقشور في جانب آخر من المنخل . وهذا هو ما حدث في سوريا .

ولقد ساد رجال سوريا اتجاهان كانا يختلفان في وسائلهما وفي نظرتهما إلى الاستقلال ونظرتهما إلى الكفاح . الاتجاه الأول يحاول استخدام السياسة والتظاهر بارضاء الرغبات الفرنسية حتى يمنع فرنسا من الهجوم على المنطقة الداخلية من سوريا ، منطقة دمشق ، التي يمكن أن يبقوا حكومتهم العربية فيها ويتخذونها نواة للتنظيم والكفاح من جديد . وكان فيصل على رأس هذا الاتجاه خاصة وأنه كان يعلم ضعف قواته العسكرية الموجودة أمام القوات الفرنسية وكان لا يؤمن بتوزيع الأسلحة على الرجال في الشوارع ولا على رجال العشائر والقبائل ، مما يصعب عليه حكمهم في المستقبل . ولا شك

أنه كان يفكر في طلب المعونة من أصدقائه البريطانيين في الجنوب ، في فلسطين .
مادام امتداد الحكم الفرنسي يعتبر منافسا قويا للنفوذ البريطاني في المنطقة . أما
الاتجاه الثاني فكان أكثر صراحة وبساطة وأعمق إيمانا ، وكان يتلخص في
ضرورة رفض الإنذار الفرنسي ، وإعلان الحرب على فرنسا وإعلان التعبئة
العامة وتكتيل القوى الشعبية الوطنية والقيام بحركة جهاد عامة ومن أجل
نفس المبادئ التي قامت من أجلها ثورة العرب . فلا جدال ولا نقاش
ولا مفاوضة ولا مساومة ، وإن يكن هناك تحالف فعلي الغرب أن يعترف
بحق العرب في الوحدة والاستقلال ، وإن كانت القوى ضعيفة ، فليعرف
الأبناء أن آباءهم قد ضحوا بأنفسهم في سبيل مبادئهم ، وأن عليهم أن يحملوا
الراية ويواصلوا الكفاح . وكان على رأس هذه الحركة أو هذا الاتجاه شاب
عربي آخر هو يوسف العظمة وزير العربية السورية .

الكل شبان والكل عرب والكل وطني ومجاهد ، ولكن البعض كان قد
ترك السلاح جانبا واعرز بنسبة وعقد الأهمية للعروش والسيجان وأصبحت له
مصالح ، وتطور من مجاهد عربي على رأس رجاله الى مفاوض فسياسي وملك .
أما الآخر فقد كان جنديا ، وظل جنديا ، ورأي أن المعركة كانت مستمرة
فصعب عليه الانسحاب من الميدان . ما دام واجبه يحتم عليه البقاء .

التف حول كل من فيصل ويوسف العظمة بعض الرجال . فشاهدت
دمشق انقساما واضحا في القيادة . وفي وقت عصيب . وفكر بعض رجالات
العرب في استبدال الملكية الدستورية بدكتاتورية عسكرية . يصبح فيها
يوسف العظمة مسئولا عن مصائر البلاد . مع تزويده بكل السلطات ، وتكليفه
بالدفاع عن البلاد . ولكن الفوضى ضربت أطنابها بين صفوف الوزراء . وعين

فيصل أخاه . الشريف زيد . قائداً عاماً . وكان هناك اتجاه لسيطرة الهاشميين
وتدعيم نفوذهم على القوات المسلحة بدلاً من تركها تحت النفوذ الوطني
السوري . وتقمص فيصل شخصية المجاهد العربي من جديد . ودخل الى الثكنات
وألقى الخطاب في الجنود . ويقول أسعد داغر في مذكراته « على هامش القضية
العربية » . أنه لا يذكر سماعه أو قراءته لما هو أبلغ منها وأشد وقعاً .
« ولعل المحيط الذي ألقى فيه ضاعف تأثيرها في نفسي التي كانت حينئذ
مستعدة للتأثر بكل مظاهر الحماسة . ولكن ذلك وحده لا يعلل تأثيرها العظيم
في نفوس الجنود . وهذا ما حملني على الاعتقاد بأن الملك فيصل كان حتى
تلك الساعة عازماً على الموت على رأس الوطنيين في سبيل الدفاع عن البلاد .
وان ما قاله في خطبته كان صادراً من أعماق قلبه فبلغ الى أعماق قلوب
السامعين » (١) .

وجمع الملك أعيان دمشق وألقى عليهم خطبة حماسية وكلفهم بالمحافظة على
الأمن . وخاصة وقت انهماك الجيش في الدفاع عن البلاد وجعلهم مسئولين
عن كل حادثة تقع . ثم جمع الملك بعد ذلك المجلس الحربي لتقرير الإمكانيات
ولاتخاذ الوسائل اللازمة . وشرح يس الهاشمي في هذا المجلس حالة الجيش
من الناحية الفنية العسكرية وأشار الى عدم توفر الذخائر . ولا سيما قنابل
المدفعية . وذكر أن الاعتماد عليه وحده لا يسمح الا بالمقاومة لبضعة أيام فقط
وقل بين الحاضرين من آمن بأن الأمة يمكنها أن تعتمد على نفسها علاوة على
اعتمادها على الله وعلى الجيش . وعلى أي حال فقد استند فيصل الى تصريح

(١) أسعد داغر : مذكراتي على هامش القضية العربية . القاهرة . دار

يس الهاشمي لكي يصر على رأيه بضرورة التروى قبل اعلان الحرب على فرنسا .

ثم اجتمع مجلس الوزراء . وظهر فيه الانقسام واضحا بين من يقبل الإنذار ويحاول انتهاج سياسة التفاهم للمفاوضة على أساسه . وبين من قرر رفض الانذار وخوض غمار الحرب الى النهاية . أى بين الملك فيصل الذى رأس الاجتماع وأنصاره من ناحية وبين يوسف العظمة الذى أصر على موقفه من ناحية أخرى . وكانت الأغلبية تحترم فيصل وتحاول الاحتفاظ به . فوقفت الى جانبه . خاصة وأنه ملك البلاد . ووجد يوسف العظمة أنه يكون الأقلية رغم أصالة رأيه وبساطته . فقرر الاستقالة بدلا من أن يقبل الانذار .

وكانت استقالة يوسف العظمة تعنى أن العرب السوريين قد أصبحوا فى جانب ، وأن الحكومة الفيصلية الهاشمية فى جانب آخر ، وكان فى هذا إخراج لرأس الدولة ولحكومتها ، وفى وقت عصيب . بل كان هذا الموقف يهدد بتعريض البلاد لخطر الثورة . وقال فيصل أنها ستكون الفوضى ، وكلف وزير حريته بالتضحية بشخصه وبالموافقة على رأي الأغلبية فى مجلس الوزراء حتى يخرج الحكومة من هذا المأزق . وكان يوسف العظمة شعلة من نار ومن الوفاء ، فتراجع فى أمر استقالته ، وبقي مسئولاً عن الحرية السورية .

ثم أرسل فيصل الأمير عادل أرسلان إلى فلسطين لمعرفة موقف البريطانيين من الهجوم الفرنسى ، والامدادات التى يمكن لبريطانيا أن تمد بها أبناء سوريا .

ثم دعى المؤتمر السوري ، وكانت له صفة جمعية تأسيسية ، إلى الاجتماع فى قصره الملكى ، واعتقد البعض أنها كانت دعوة لتأييد قرار إعلان الحرب

على فرنسا ، وكانت في حقيقة الأمر تهدف حمل المؤتمر على تأييد قرار الحكومة . وبدأ فيصل في وصف الحالة العامة بشكل يدعو إلى اليأس ، وأبلغهم أن المجلس الحربى والوزارة قد قررتا على التوالى قبول الانذار . وكانت صدمة للجميع ، وأسرع رجال الادارة بابلاغها إلى الأقاليم وإلى منطقة حلب حتى لاتقاوم الفرنسيين ، وصدرت الأوامر بتسريح الجيش العربى ، واتخذت كل هذه القرارات فى جو من العصبية ، وفى إطار من اليأس . ووصلت هذه الأوامر إلى الجيوش فى ثكناتها دون تحديد لشروطها أو النص على طريقة تطبيقها ، فأنفجرت العواطف وخرج الجنود من ثكناتهم يحملون أسلحتهم ، ونزلوا إلى الشوارع ، بعضهم ينادى بالجهاد والبعض ينادى بالثورة . فانتشرت الفوضى فى كل مكان ، وأصبحت سوريا فى حقيقة الأمر بدون حكومة . وخرج الأهالى فى مظاهرات صاخبة ودوت طلقات الرصاص فى الهواء إنها الثورة ، ولكنها كانت غير منظمة ، وبدون أية قيادة .

كان فى استطاعة رجل واحد أن ينظم هذه الثورة ويضعها فى خدمة وطنه وأن يقف أمامهم ويشير بأصبعه فى اتجاه الفرنسيين ، ويذكر لهم أن واجبهم يقضى عليهم بأن يدافعوا عن استقلالهم وكرامتهم وبلادهم . ولكن أحداً لم يقف هذا الموقف ، وساد الاعتقاد بأن الحكومة ترغب فى تسليم البلاد للفرنسيين دون أية مقاومة . وصرخ الثانى بأن هناك مؤامرة . ونادى الثالث بضرورة تغيير الحكومة . وهتف الرابع بسقوطها . وصدرت الأوامر من الحكومة إلى رجال الشرطة بتفريق المظاهرات وإخلاء الشوارع ، ونزلت قوات البوليس لكى تؤدى واجبها . وكان موقفاً ذليلاً بائساً . أجبرت فيه الحكومة رجال شرطتها على إطلاق النار على الوطنيين . وسقط ثلاثمائة قتيل . من الطرفين وبرصاص العرب دون الاقتصاد فيه لاستقبال المستعمرين

الفرنسيين . وقوات الاحتلال الأجنبية . وتلطخ علم الثورة العربية ذى الألوان الأربع بدماء الشهداء . وبرصاص العرب أنفسهم .

أبلغ الملك فيصل الفرنسيين بأنه قد قبل الانذار وسرح الجيش وأنه مستعد لارضاء فرنسا . وأن حكومته لا تزال قائمة تسيطر على الموقف في دمشق . وترغب في التفاهم مع القيادة الفرنسية حول العلاقات المقبلة بين الطرفين

وكان ردا ضعيفا ذليلا لا يدفع أحد الى احترامه واحترام من كتبه . وكان هذا هو موقف الجنرال غورو . الذى أصدر أمره الى قواته بالتقدم صوب دمشق ، وكأنه لم يستمع الى أى صوت يأتيه من دمشق ، وادعى فيما بعد أن رد فيصل قد تأخر فى الوصول اليه ، زيادة فى الامتهان وعدم احترام من لا يحترمون أنفسهم .

تقدمت القوات الفرنسية صوب دمشق بحافلها ومعداتها وإمكانياتها القوية ، واستماتت بعض الحاميات فى الدفاع عن مواقعها ، ولكن مقاومتها لم تكن لفترة طويلة . وسلمت الحاميات الأخرى وظهر أن الفرنسيين سيدخلون عاصمة الأمويين لاحتالة وبدون مقاومة .

وفكر فيعمل ورجاله فى الخروج من دمشق والانسحاب منها ، حتى لا يقعوا فى أيدي الفرنسيين ، وبدعوى تنظيم الوطنيين ، ومحاولة الحصول على شيء من لاشيء . وخرج يوسف العظمة من وزارة الحربية ولكن فى طريق مخالف ، خرج صوب قوات الفرنسيين الزاحفة خرج مسرعا وعلى رأس بعض الرجال ، لا يزيد عددهم عن ألفى رجل ، وتقدم على رأسهم الى ميسلون ، مدخل دمشق ، لكى يقف على رأسهم ويبلغ المهاجمين .

ولقد قرر مع رجاله ألا يمر الفرنسيون إلا فوق أجسادهم . وكان ما قرروا . لقد ثبتوا في مواقعهم حتى آخر رجل ، ولم يعد منهم أحدا ، وسجلوا إسمهم بحروف من نار في سجل تاريخ كفاح العرب ضد الاستعمار ، وفي مكان من أعز الأماكن على كل عربي .

لقد أصبحت ميسلون رمزا لكفاح حفنة من الرجال من أجل حرية بلادهم ، ورمزا للتضحية وللجهاد . وأظهرت هذه الموقعة موقف فيصل وحكومته في ضوء باهت وفي شكل صعب . وما أن وصلت أنباء الهزيمة الى دمشق حتى خرج منها فيصل مسرعا في قطار خاص ، وحمد أعوانه الله على أن الطائرات الفرنسية لم تقم بتعقب هذا القطار . وما أن استقر الحال لقوات الفرنسيين في دمشق حتى قرر فيصل العودة اليها والتفاهم مع الفرنسيين . ولكن الفرنسيين رفضوا التفاهم معه ، وعلى أي شيء ؟ معاونتهم في إدارة البلاد والاحتفاظ بجزء من سوريا تحت ملكه ؟ الاصرار على موقف لا يحمل للفرنسيين إلا المشكلات والعقبات ؟ إن فرنسا لم تكن بحاجة الى فيصل ، خاصة وأنه ملك ، وملك هاشمي ، ومن الأشراف ، وصديق لبريطانيا ، وفرنسا قواتها وأسلحتها ، ويمكن لهذه القوة أن تقرر الوضع النهائي ، وخاصة بعد أن قررت الحكومات الحليفة أن تعهد إلى فرنسا بإدارة الاقاليم السورية وبإدخال الحضارة والمدنية في أرجائها ، والوصول بأبنائها الى مرحلة الدول المستقلة .

بدأ بهذا عهد جديد هو عهد الاحتلال الفرنسي ، وانتهت صفحة سوريا الفيصلية .

وهكذا تطورت مسألة الوحدة والاستقلال في سوريا نتيجة للعوامل

الداخلية والخارجية ، وتأثرت بالاطماع الاستعمارية كما تأثرت بظروف الحرب وبشروط الصالح . وإذا كان المؤتمر السوري قد إتخذ قرارات هامة في شأن مستقبل بلاده ، ووقف مواقف حازمة لم يترشح عنها ، إلا أن القوة الاستعمارية تفوقت في الميدان ، وحاولت القيادة العربية أن تلعب ورقة بريطانيا ضد ورقة فرنسا ، وأن تقوم بدور مفاوضي سياسي بدلا من نزولها إلى ميدان الجهاد وقررت التفاهم في الوقت الذي كان عليها أن تدعم القيادة وتدعم القوى الوطنية وتتحد مع القاعدة الشعبية . ثم حاولت أن تلقى قوات الاستعمار في هذا الموقف الضعيف المتردد الضحل . وكان من السهل معرفة نتيجة المعركة سلفا: ولكن اخلاص السوريين لبلادهم وایمنهم بوطنيتهم وبعروبيتهم ، أبى أن تمر هذه المرحلة دون أن يسجلوا في التاريخ أنهم عرب ، ومن خير العرب .

خرج فيصل من سوريا لكي يعيش في المنفى . إنه ملك في المنفى بعد أن كان جنديا نائرا . وأقام في قصر على ضفاف بحيرة ماجيوري ومعه عدد كبير من الأنباغ والحاشية . ولا شك أن بريطانيا قد فكرت فيه وقدرت له مرونته واستعداده للتفاهم . لذلك فإنها قامت باستدعائه لكي تخدر به الثورة العراقية التي شبت عاليه والتهمت قوات الاستعمار في بلاد الرافدين بمجرد احتلال الفرنسيين لدمشق . وقبل فيصل هذه المهمة الجديدة على أساس تنحية البريطانيين لمطالب أخيه عبد الله في عرش بغداد . وأظهر مقدرة في التعاون مع البريطانيين وإن كانت أنظاره قد ظلت شاخصه إلى سوريا ، وإلى رجالاتها العرب .

الفصل الثامن

سوريا والإنتداب الفرنسي

وقع عبء الكفاح ضد الإستعمار الفرنسي على كاهل العرب السوريين الذين أصبحوا بدون قيادة بعد إنهاء حكم الملك فيصل واحتلال القوات الفرنسية لسوريا ولبنان . ولقد كان هذا الكفاح صعباً وعسيراً وخاصة لأنه وقع دون قيادة موحدة تجمع العرب وتوحد صفوفهم في المركة . وظهر الإنقسام واضحاً بين عناصر الأمة السورية ، سواء أ منهم من سكن الإقليم الساحلي وجبل لبنان ، أو سكن الداخل وامتدت ديارهم حتى البادية . وأفادت السياسة الفرنسية من هذا الإنقسام ، ولعبت عليه لكي تطبق سياسة إستعمارية قديمة تمكنها من سيادة الموقف ما دامت القوى الوطنية منقسمة على نفسها . وإذا كانت فرنسا قد توصلت إلى فرض نفسها عسكرياً على الإقليم ، وتمكنت من تقسيمه وارضاء أطباعها فيه ، فإن الثورة السورية سنة ١٩٥٥ جاءت نقطة تحول خطيرة في التاريخ السوري وتاريخ الإمتداد الفرنسي لهذا الإقليم . وعملت على تحويل وتغيير أسس سياسة المستعمرين . وهكذا يمكننا أن نقسم الفترة الواقعة بين عامي ١٩٢٠ ، ١٩٣٦ إلى ثلاث فترات متتالية : الأولى تسبق الثورة وتمثل سياسة فرنسا الإستعمارية في المنطقة ، والثانية تمثل الثورة نفسها ، مع ما حققته من انتصارات والثالثة تمثل تأثير هذه المحققات الثورية على السياسة الفرنسية في الشام .

(١) الفرنسيون والسوريون :

كان كثير من العرب قد أتموا تعليمهم في أوروبا بشكل عام وفي فرنسا بشكل خاص . وكانت اللغة الفرنسية هي اللغة الأوربية الأولى المتفوقة في الأقاليم السورية . وكانت النظم الدستورية الفرنسية تعتبر مثلاً أمام رجالات سوريا بمبادئها الأساسية من فصل للسلطات إلى قيام حكم برلماني يتمثل في مجلسين ، إلى مسئولية الوزراء أمام البرلمان . وجاء الاعتقاد في مبادئ الحرية والإخاء والمساواة لكي يدعم هذه الصلة بين السوريين والفكر السياسي الفرنسي الحديث . وكان هذا الاتجاه يسود منطقة السواحل السورية أي منطقة لبنان الحالية ، ويقل تدريجياً كلما إتجهنا من هذه المنطقة صوب الداخل متوغلين في بقية سوريا

وكانت هناك عوامل أخرى تقرب بين بعض السوريين والفرنسيين . أولها هو نظام الامتيازات الاجنبية الذي تمتعت به فرنسا لحماية الاقليات الكاثوليكية الموجودة في الدولة العثمانية ، والتي كانت مركزة أشد تركيزاً في الأقاليم السورية . لقد أعطت هذه الامتيازات لفرنسا صفة الدولة الحامية لمن يحاول التخلص من تعنت الحكم التركي ، وحماية نفسه من النظام الاستبدادي العثماني . وكان أكثر المستفيدين من هذه الامتيازات طوائف المسيحيين الكاثوليكين بشكل عام والمارونيين بشكل خاص . ولا يمكن لأحد أن يجادل في هذه الصلة الوثيقة المدعمة التي توطدت بين العناصر المارونية وسلطات فرنسا القنصلية في المناطق السورية منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر ، والتي ظهرت بشكل واضح متبلور ، وبأدلة قاطعة بعد إعلان الحرب العالمية الأولى . فكانت هذه الطائفة إذاً تعتبر نفسها حليفة لفرنسا ، بل مرتبطة

بالفرنسيين في الفكر وفي الدين . في الوقت الذي قلت فيه عوامل ارتباطها ببقية المواطنين في داخل الإقليم .

كان هذا الترابط السياسي والفكري ، والترابط الديني ، أساسا لنشأة مصالح مشتركة ، أخذت لونا إقتصاديا إجتماعيا كان من الصعب القضاء عليه خاصة وأن الثورة العربية قد القت بالسوريين ، في محاولتهم التخلص من الحكم العثماني ، في أحضان الحلفاء الغربيين .

ولكننا نلاحظ إتجاها آخر وتكوينا مخالفا في المنطقة الداخلية من سوريا أثر على طبيعة القوى الموجودة في الإقليم . لقد كانت الأغلبية الساحقة في الإقليم الداخلي من المسلمين ، مع أنهم كانوا من المتحررين . لقد أعجبوا كذلك بمبادئ الحرية والإخاء والمساواة ، وعلى أساس أن الدين لله والوطن للجميع ، وحاولوا أن يدعموا بذلك بناءهم الإقليمي في وجه الاتراك العثمانيين ، ولكن على أساس وحدة البلاد واستقلالها . لقد كافحوا من أجل التحرر من الحكم العثماني ولكن لكي لا يقعوا تحت قبضة انتداب فرنسي . لقد كافحوا من أجل حريتهم والمساواة فيما بينهم ، ولكن على أساس عدم احتلال الإقليم ، ولو بجنود الدولة التي تعلموا فيها مبادئ الحرية والمساواة . وكانت الوحدة العربية هدفا لهم ، وكانت مقرونة بمطالب استقلالهم ، فأى تغيير أو تبديل في هذه المطالب كان يتعارض مع أمانهم القومية المشروعة ، وكانوا الأغلبية .

وإذا كانت القوات الفرنسية قد نزلت إلى بيروت في أثناء الحرب ، فإن قوات الثورة العربية كانت قد زحفت شمالا من العقبة إلى فمعان فمعان فدمشق مؤيدة في ذلك بالقوات البريطانية ، والتي كانت تنافس النفوذ الفرنسي

وترغب في تضيق الخناق عليه ، خاصة وأنها كانت تعلم بأن فرنسا لم تقم بدور رئيسي في هذه المنطقة في أثناء الحرب . وكانت هذه القوات العربية بقيادة فيصل وحفنة من الضباط العراقيين الذين عملوا في توافق مع عدد من الضباط والخبراء البريطانيين وكانت أسلحتهم بريطانية ، ورواتبهم تأتي من بريطانيا . ووصلوا إلى دمشق في تعاون تام مع البريطانيين . وإن دراسة العلاقات العربية الفرنسية في الفترة الواقعة بين سنة ١٩١٨ ، سنة ١٩٢٠ لتدل على أن البريطانيين قد وقفوا إلى جانب القيادة الفيصلية الهاشمية في الوقت الذي اصطدمت فيه السياسة الفرنسية بهذه القيادة الموجودة في داخل سوريا . ومع زحف قوات الجنرال نمورو واستيلائه على دمشق بعد موقعة ميسلون تبلورت اتجاهات الإقليم ، وإن كانت النتيجة لصالح الفرنسيين .

لقد كانت هناك إذا « أزمة ثقة » بين السلطات الفرنسية في شرق البحر المتوسط وبين عرب سوريا ، وخاصة في الداخل . وإذا كان هناك من العرب المثقفين من يؤمن بالأفكار والنظم الفرنسية المتحررة في بلادها ، فقد كان هناك من العرب من ينظرون إلى سياسة فرنسا في شمال افريقية بنوع عام ، وفي الجزائر بنوع خاص على أنها سياسة إستعمارية خطيرة على العرب والمسلمين . وكان بقاء أسرة الأمير عبد القادر الجزائري في دمشق مثلاً حياً أمام السوريين لقيادة عربية كاحت وناضلت وطردها الفرنسيون من بلادها أما بالنسبة لفرنسا فإنها كانت ترى في إنشاء المملكة السورية بقيادة فيصل بن الحسين على أنها إمتداد للنفوذ البريطاني ، ورغبة في حرمانها من المكاسب السياسية التي حصلت عايتها في اتفاقية سايبكس — بيكو ، وفي معاهدة فرساي وفي قرارات مؤتمر سان ريمو . ولم تكن فرنسا قد نست حرب التحرير التي قادها الأمير عبد القادر الجزائري الهاشمي ، أمامها في الجزائر ،

ولمدة سبعة عشر عاماً . وجاءت إلى سوريا لكي تجدد قيادة هاشمية جديدة جاءت من الحجاز ووصلت حتى دمشق . لقد نظر الفرنسيون إلى هذه القيادة على أنها قيادة اقطاعية ، تعزز بحسبها ونسبها ودمائها ، وتناصبها العداء ، في الوقت الذي اعترت فيه فرنسا بانها لها حكم الاقطاع في بلادها ، واستندت الى وثيقة الانتداب لكي تدعى العمل على الوضع بالاقليم السوري إلى الحرية والاستقلال .

وعلىنا أن نضيف بعد ذلك شعور الفرنسيين بتفوقهم على غيرهم، واعتزازهم بنفسهم ، وشعورهم بضرورة قيامهم بعملية « الاشعاع » في كل مناطق العالم كانوا لا يثقون الا في ثقافتهم وفي طريقة تفكيرهم وتحليلهم الخاصة بهم ، ويعتقدون أن من الواجب استخدام الموظفين الفرنسيين والادارات الفرنسية لتطوير الحياة في المناطق الخاضعة لنفوذهم . وكانت هذه العملية الخاصة بالتوسع الديموجرافي الفرنسي في سوريا ، واعتبار هذا الاقليم متسعا للفرنسيين تتعارض تمام المعارضة مع رغبة السوريين في الحصول على الاستقلال إذ أنها كانت تقيد من نمو المجتمع السوري وتوسعه في وظائف الدولة الجديدة وتضييق أمامهم النطاق وتخصر مدى صعوده على السلم الاجتماعي ، بطبقة جديدة من الفرنسيين المستوردين الذين يعتقدون أنهم جاءوا للأمر والنهي ولإجبار السوريين على إطاعة أوامرهم . كانت « أزمة الثقة » هذه سببا أساسيا في وقوف معظم السوريين في جانب ، والفرنسيين في الجانب الآخر ، دون قيام أي تعاون بينهم . ولا شك أن دوافع الفرنسيين التي أوصلتهم إلى هذا الموقف الجامد من العرب السوريين كانت دوافعاً إقتصادية وسياسية واعطت ألوانا نفسية ومعنوية فيما بعد .

وكان العرب يعلمون مدى التوافق بين الفرنسيين والمارونيين السوريين،

ويرون في هذا التضامن الطائفي إذكاءاً للنصرة الدينية والطائفية ، ومن فرنسا العلمانية ، وفي وقت يطالب العرب أنفسهم فيه بضرورة تطبيق سياسة الدين لله والوطن للجميع . وإذا كان أحرار سوريا قد رفضوا التضامن مع العثمانيين وعلى أساس رباط الدين ، فمن الأولى أن يعارضوا إرتقاء المارونيين في أحضان الفرنسيين ، وأن يروا في هذه العملية تفتيتاً للقوى الوطنية وتدعياً لسياسة الأقليات . وتحطياً لمبادئ الثورة العربية .

وجاء خوف فرنسا من الثورة العربية ومحاولة حصرها داخل الجزيرة العربية ومنع إمتدادها إلى سواحل البحر المتوسط عاملاً جديداً فرق بين رجال الثورة العربية وبين فرنسا . وكانت فرنسا تخشى في حقيقة الأمر من تدعيم فكرة القومية العربية خاصة وأن هذه الفكرة كانت تمثل خطراً هاماً على حكمها لأقطار شال أفريقية . وكان معنى نجاح الثورة العربية في الوصول إلى الاستقلال والوحدة ، وعلى أساس ثوري يهدد بانتشار أفكارها واتجاهاتها حلقة بعد حلقة فيما حولها ، ويهدد بوصولها إلى تونس والجزائر والمغرب الأقصى ، وهم عرب ومستعدون للسير مع العرب . ولذلك فإن موقف فرنسا المعادى للثورة العربية جاء متمماً لمجموعة من المتناقضات السياسية التي بنت عليها خططها الاستعمارية دون نظر إلى المستقبل البعيد . ولكن هذه المتناقضات تقسمها ، وهي من طبيعة الطبقة البورجوازية الحاكمة في فرنسا أبعدت هذه الدولة عن الحركات الشعبية في سوريا ، في نفس الوقت الذي اصطدمت فيه فرنسا بالقيادات الاقطاعية الموجودة في المنطقة . فأصبح مجال التعاون الفرنسي السوري ضيقاً ومحصوراً في طبقة واحدة هي الطبقة البورجوازية أو الوسطى السورية ، وفي نطاق عناصر هذه الطبقة الذين يفضلون مصالحهم الشخصية على المبادئ الثورية ، أو تدفعهم نزعاتهم للطائفية وشعورهم بكونهم أقلية ،

أو خضوعهم لروح طائفية ، بعيدا عن مجموع القوي الوطنية في ذلك الحين .

وكان شـور فرنسا بضعفها بعد الحرب العالمية الأولى ، ذلك الضعف الذي أجبرها على تحويل سياسة الهجوم إلى سياسة الدفاع . وراه خط ماجينو ، وشعورها بإمكانية قيام حركات تحررية في مستعمراتها وشعورها بصغر ذلك القطاع الذي يمكنها أن تتعاون معه في شرق البحر المتوسط ، كان كل ذلك يدفع فرنسا إلى التحول من الخضوع لمركب النقص إلى الشعور بمركب العظمة ، وإلى استخدام القوات الساخرة لتغطية ضعفها المادي والمعنوي . ولذلك فإن سنوات طويلة قد انقضت في محاولة الفرنسيين فرض أنفسهم على السوريين . وكم من رجال سقطت ، وأموال أنفقت ، وسياسات وضعت ثم أبدلت ، لكى تجد فرنسا نفسها دائما في نقطة البداية ، نقطة الصفر وأمام شعب أجبرته على أن يكون معاديا لها ولسياستها ، بعد أن كان مثقفية قد تعلموا مبادئ ثورتهم منها وفيها :

(٢) الفرقة والعنصرية :-

نظرت فرنسا إلى المملكة السورية ، قبل هجومها على دمشق ، على أنه وثيقة الصلة ببريطانيا والبريطانيين ، فاتهمت بعض الضباط السياسيين البريطانيين الموجودين في هذه المدينة بمناوأتها والعمل على تقويض النفوذ الفرنسي في منطقة شرق البحر المتوسط . ونظرت فرنسا إلى فيصل على أنه العوبة في أيدي البريطانيين . وتعمدت في عمليتها واعتقدت أن الثورة العربية ليست إلا قناعا يعمل على إخضاع منطقة الشرق الأدنى بأكمله للنفوذ البريطاني . ومع تصميم فرنسا على مدحكمها إلى داخل سوريا بعد مؤتمر سان ريمو ، وضعت هذه الدولة أسس سياستها في سوريا وعلى أساس معاداتها للثورة

العربية ومبادئ القومية الجديدة الناشئة . واستخدمت تكتيكا يتمثل في تفنيت المنطقة إلى وحدات سياسية وعنصرية وطائفية ، يمكنها أن توازن بينها وتضع كل منها في مواجهة الأخرى ، وبشكل يسمح لها بالبقاء في المنطقة لأطول فترة ممكنة .

وكانت فرنسا قد طلبت في مؤتمر سان ريمو إعطاءها الإنتداب على سوريا ولبنان ، أي أنها قسمت الإقليم السوري ، الذي يخضع لها ، بعد ترك فلسطين لبريطانيا ، إلى إقليمين متميزين . وجاءت قرارات هذا المؤتمر لكي تجعل لكل من هذين القطرين كيانا واضحا منفصلا عن كيان الآخر وكانت هذه أول ضربة أصابت مبادئ الثورة العربية ، التي كانت تصرخ عاليا منادية بالوحدة .

لم يكن هناك فرق بين سوري ولبناني من حيث العروبة ، وإن كانت هناك اختلافات مذهبية ودينية ، عمد العرب إلى تركها جانبا حتى يصلوا إلى وحدتهم القومية . ومعنى تفريق مؤتمر سان ريمو لسوريا عن لبنان هو العودة إلى سياسة طائفية عنصرية ، ومعنى سير فرنسا على هذا المنهج هو تقسيم الإقليم ووضع كل من أقسامه في مواجهة الآخر .

لقد كان لبنان منذ عصور طويلة يتميز بوجود أغلبية مسيحية تنقسم في داخلها إلى طائفة المارونيين وهم أصدقاء فرنسا القدماء ، وإلى طوائف أخرى تدين بالولاء للبابا وتعتبر فرنسا حاميتها التقليدية . وكان النظام الأساسي الذي أصدرته الدولة العثمانية سنة ١٨٦١ قد أرضى هذه الطوائف باشتراكها في حكم إقليمها وحسب عاداتها وتقاليدها ونظمها المالية ، فعندت فرنسا إلى الرجوع إلى هذا النظام العثماني القديم لكي تستند إلى عناصر المسيحية وتحتضنها وتتخذها سلاحا في مواجهة الأغلبية المسلمة الموجودة إلى الداخل . وناقضت

فرنسا نفسها بهذه السياسة التي لم تكن قادرة على تطبيقها في بلادها نفسها .
ولقد عمدت فرنسا إلى توسيع نطاق لبنان حتى تجعل منه قاعدة يمكنها
أن توازن بقية الأقاليم السورية فأصدرت مرسوما في ٢١ أغسطس سنة ١٨٢٠
يقضى بإنشاء دولة لبنان الكبير التي امتدت حدودها فيما وراء حدود سنجق
لبنان السابق شمالا وشرقا وجنوبا وبشكل يضم إلى هذه الدولة مدن طرابلس
وبيروت وصيدا وصور مع بعلبك وسهل البقاع . وأصبحت مساحة هذه
الدولة الجديدة ضعف مساحة سنجق لبنان السابق ، وضحت عدداً كبيراً من
المواطنين أو الرعايا المسلمين داخل حدودها .

وكان هذا خطأ جسيماً ارتكبه فرنسا ، إذ أنه حول الغالبية العظمى
المسيحية في هذا الإقليم أو هذه الدولة الجديدة إلى أغلبية بسيطة ، مما ينذر
بإمكانية قيام صراع جديد داخل دولة لبنان نفسها بين العناصر المسيحية
والعناصر المسلمة . وكان ضم مواني بيروت وطرابلس إلى هذه الدولة الجديدة
يعتبر حرماناً لسوريا من مخارجها الطبيعية البحرية . وكان أخطر شيء في
هذه العملية هو إذكاء الروح الطائفية داخل حدود هذه الدولة الجديدة ،
وخاصة بعد أن شعر المسيحيون بقلّة نسبة أغليبتهم ، وشعر المسلمون أنهم قد
فصلوا عن أقاليم مرتبطين بها ، ويكثرون الأغلبية فيها ، لكي يصبحوا أقلية
في دولة جديدة . وعلى أي حال فلا يمكننا أن ندين فرنسا بقصر النظر عند
اتخاذها لهذا القرار إذ أن هذه السياسة كانت تهدف فعلاً الوصول إلى مرحلة
صراع وكفاح داخلي بين العرب والعرب وعلى أساس طائفي ، وفي قطاعات
صغيرة من المشكلة التي تفتتت ، بدلا من النزول إلى معركة واحدة كبيرة ولها
أهداف واضحة ومتبلورة وأمام الجميع .

وكانت الخطوة التالية أمام الفرنسيين هي تحطيم الوحدة الإقليمية لبقية الإقليم السوري بعد أن كان متحداً تحت المملكة العربية، فأنشأت فرنسا ثلاث دول منفصلة عن بعضها . ولها أربع حكومات ، وكل ذلك في إقليم لم يزد عدد سكانه على مليوني نسمة بكثير ، أنشأت فرنسا حكومة اللاذقية في الإقليم الساحلي الواقع بين حدود لبنان الكبير وحدود سنجق أولواء الاسكندرونة ، كما أنشأت دولة جبل الدروز ، وعاصمتها السويداء ، وفي المنطقة الواقعة بين دمشق وحدود إمارة شرق الأردن ، وأنشأت دولة سوريا ، وعاصمتها دمشق وتشمل على بقية الأراضي الخاضعة للانتداب الفرنسي ، كما أنشأت سنجق الاسكندرونة الذي كان ضمنا داخل الدولة السورية من الناحية الاسمية ، وإن كانت فرنسا قد أنشأت له حكومة خاصة به .

واستندت فرنسا في سياسية التقسيم والتفرقة هذه إلى حجج وإدعاءات لم تنجم عن إعلانها ، فادعت أنها قد استجابت لرغبات الشعوب التي يعينها الأمر وهم الدروز والعلويون أو الناصريون في منطقة اللاذقية ، والأتراك في أولواء الاسكندرونة ، وتمشت مع اختلاف المذاهب والعناصر ودرجة النضج السياسي من منطقة إلى منطقة لكي تفصل بين الواحدة والأخرى ، وفي صالح الأهالي أنفسهم . والواقع أن فرنسا كانت تخشى استمرار نضوج فكرة القومية العربية وعملت على تحطيمها وهي لا تزال في المهد . ويتضح ذلك جليا من عمل فرنسا على تغذية النزعات الانفصالية في سوريا ، كما يتضح في عملية حصرها لدولة سوريا في داخل الإقليم وإنشائها لثلاث دول جديدة تسد أمامها الطريق والمنافذ وهي دول لبنان الكبير واللاذقية والاسكندرونة . وأخذت فرنسا في إدارة كل وحدة من هذه الواحدات السياسية الجديدة

بمحكومة قائمة بذاتها ، تخضع للحاكم فرنسي له سلطات مطلقة . ثم عمدت فرنسا الى وضع كل دولة من هذه الدول في مواجهة الدول الأخرى، ووضع الأهالي فيها أمام الأهالي في الاقليم المجاور ، حتى تصل عن طريق التفرقة إلى السيادة، وحتى تحصر أي حركات ثورية ، أو كفاح وطني ينشأ في داخل المنطقة المعينة التي رسمتها وحددتها له .

لقد كانت القومية العربية هدفاً لمهاجمة رجال الادارة الفرنسيين ، ولم تحجم فرنسا عن اضطهاد العناصر الوطنية ، وعن وضع القوميين العرب تحت رقابة الأمن ، وفي ظل احكام عسكرية ، وبشكل جعل كثيراً من العرب يندمون على انقضاء عهد الطغيان الحميدي . ولقد كمت فرنسا أفواه الصحافة العربية الوطنية ، في الوقت الذي شجعت فيه الصحافة الطائفية والمأجورة أو المتعاونة مع الاستعمار . واحتفظت فرنسا بالوظائف العالية وعضوية المجالس المحلية لتلك العناصر التي كانت مستعدة لاثبات مروتها وسياستها وكياستها ، وامكانية تفاهمها ، وتقديرها للموقف ، دون جذب ودفع . واعتمدت فرنسا على هذه العناصر ، مثل اعتمادها على العناصر المسيحية لكي تفرق بين العربي والعربي، وتحطم فكرة القومية الناشئة ، وتصل بالاقليم الى مرحلة من التضارب والتناقض والتنافس والتناحر تسمح لها بالبقاء ولاطول وقت ممكن، وبالتالي بالقيام بعملية الاستغلال الاقتصادي الذي هو هدف الاستعمار الأساسي، سواء وضع أو خفي .

ولقد كان من السهل على فرنسا أن تسيطر إقتصادياً على الأقاليم السورية نتيجة للتحويلات المالية التي صحبت خروج العثمانيين ومجيء إدارات جديدة للإقليم ، لها عملة جديدة . ذلك أن فرنسا قد أصدرت عملة جديدة سورية -

لبنانية مرتبطة بالفرنك الفرنسي ، ويقوم بإصدارها بنك فرنسي وبشروط تراعى مصالح المساهمين الفرنسيين على حساب الأزدهار المالي والاقتصادى لسوريا ولبنان . ورغم أن الفرنك الفرنسي كان قد تدهور فى أوربا وفى كل العالم . إلا أن فرنسا قد فرضت هذه العملة الجديدة وبسعر معين فى شرق البحر المتوسط . وفى غير صالح المحولين . وكان على الجميع أن يبدلوا نقودهم بهذه العملة الجديدة حتى يتمكنوا من العمل والتعامل . ولقد أدت هذه السياسية إلى تدهور الاقتصاد السورى واللبنانى أمام عملة المحتلين القادمين الجدد ، وأثارت ضجة كبيرة فى فرنسا نفسها ، ولكن دون جدوى ، ما دام الحكم للقوة . وواصلت فرنسا عملياتها وتحيزت فى منح الامتيازات والاحتكارات سواء للفرنسيين أو العناصر المسائرة لها ، حتى وإن كان ذلك لتوريد ما يلزم الإدارة الجديدة من مهمات وأدوات . ولقد ألقت العناصر الوطنية السورية بكل هذه الأخطاء ، وبغيرها على كاهل الإدارة الفرنسية فى الشام ، وتناست بذلك دورها أو دور عوامل أخرى خارجية ودولية ، وخاصة بعد الثورة وتغير نظم الحكم فى المنطقة وتأثير ذلك على الأوضاع الاقتصادية والعالمية والاقليمية . وإن كانت كل المسئولية لا تعود بطريق مباشر على فرنسا ، فما لا شك فيه هو أن غالبيتها يدين الحكم الفرنسى ، خاصة وأنه قد تطوع للحصول على الانتداب على هذه المنطقة ، والخروج إلى مرحلة النمو والاستقلال والحضارة والازدهار .

ومع خوف الحكم الفرنسى من خطر القومية العربية الناشئة عمدت حكومة الانتداب الى مناهضة تعليم اللغة العربية وانتشارها . وظهرت نظريات جديدة فى العشرينات تنادى بنقر اللغة العربية وجودها وعدم تمكنها من مسايرة النهضة العلمية فى العالم ، وخاصة فى المصطلحات والمشتقات . وكانت الثورة

العربية قد عملت على احلال اللغة العربية محل اللغة التركية في المدارس والمحاكم والادارات ، واستخدمتها دعامة قوية وأساسية لوحدة شعوب المنطقة ووحدة تاريخها وتراثها ووحدة مستقبلها ، فوجد القوميون العرب أنفسهم في مواجهة عدد من التشريعات تعمل على تحطيم حركتهم ، وتشكيك النشء في امكانياتهم وفي مواجهة قرارات حكومية بتعديل نظم الدراسة وفتح مدارس اجنبية جديدة وبمحاولة ربط الثقافة في الشرق الادنى بالفكر الفرنسى . فنشأت المنازعات من جديد ، وشعر العرب بخطورة هذه الحركة عليهم ، بعد أن كانوا قد اقتبسوا من الفرنسيين ليتخلصوا من عوامل الكبت المواجهة لهم وإنماء لغتهم في إقليمهم . ومع ازدياء النفوذ الثقافى الفرنسى في سوريا ولبنان ومحاولة إنشاء جيل جديد متفرنس في الاقليم ، زاد تبلور المصالح بين القوي الوطنية والاجنبية وساعد ذلك على وضع القوميين العرب في جانب والمستعمرين وأنصارهم في جانب آخر . وإذا كانت هذه الحركة شديدة على القوميين العرب فإنها عملت في نفس الوقت على عجم عودهم وعلى تعمقهم في مبادئهم ، وعلى خروج الشوائب من بينهم ، وبشكل جعل منهم قوة عربية خالصة ومخلصة ، وأشد قوة من غيرها في اقاليم عربية كثيرة ، أى أن هذه الحركة قد ساعدت على نمو القومية العربية بفكرتها ودعائما ووسائل كفاحها في الاقليم السورى ، اكثر من نموها في الاقاليم العربية الاخرى .

لقد أهملت فرنسا المدارس العربية وأهملت تكوين المدرسين والمعلمين العرب في الوقت الذى نشرت فيه لغتها ومدارسها في طول البلاد وعرضها . وكانت اللغة خطوة أولى تلتها خطوة تعيين عدد كبير من الفرنسيين في الوظائف والادارات . وكم من فرنسى عجز عن فهم السورى نتيجة لجهله باللغة العربية . وكم من خطأ ارتكب ، ونظم أسىء تطبيقها لهذا السبب .

والهم هي أن الإدارة الفرنسية قد تحملت ما ارتكبت من أخطاء وظهرت أمام الرأي العام العربي عاجزة متعجرفة ، في الوقت الذي كانت فيه متوسعة ومستغلة . ولم يكن هذا في صالح إدارة الانتداب الفرنسي في شيء .

وكان كثير من رجال الإدارة الفرنسية الجديدة قد عهدوا العمل في أقاليم شمال افريقية وأقطارها . ولم تكن كفاءتهم قد وصلت المستوى الذي يسمح لهم بحكم بلاد مثل سوريا ، وكانوا قد جاءوا بأفكار ثابتة عن العرب وحياتهم وأخلاقهم : فهي شعوب كسولة لا ينجح معها اللين ، ولا تحترم إلا القوة ، شعوب تساق ، وتعجز في غالبتها عن أن تكون قابلة للتحضير والتمدن ووصلوا إلى سوريا بهذه الآراء لكي يجدوها معترزة بنفسها وبقوميتها العربية ، ومعترزة بأن العرب هم الذين رفعوا مشعل الحضارة والمدنية ، وهم الذين أضاءوا بها أوروبا . تقابلت هاتان العقليتان في الشام ، وبدلاً من أن تجد فرنسا الطريق معبد أمامها للتعاون مع العرب سارت مع سياسة المتناقضات في طريق مليء بالاصطدامات وفي كل ركن من أركانها . وسواء أكانت فرنسا قد عمدت بتفتيت القضية السورية ، وبانتهاج سياسة التفرقة العنصرية ، إلى التويه على الأهالي ، وإلى جر المشكلة من كلياتها وادخالها بعد تفتيتها إلى نطاق الجزئيات ، فما لا شك فيه أن هذه السياسة قد أدت إلى تبلور الرأي العام العربي ، وساعدت على سرعة نضج فكرة القومية العربية في هذا الاقليم قبل غيره ، ووضعت فرنسا أمام سلسلة طويلة من الثورات والكفاح الوطني الذي أقلق باله طول مدة وجودها مشغولة عن هذا الانتداب . وإذا كانت فرنسا قد اعتمدت على قوت السنغال ومجندى الجزائر ورجال الفرقة الاجنبية ، واعتمدت على الحديد والنار في حكم سوريا ، فانها وصلت بعد عدد من السنين إلى مواجهة حركات ثورية لا قبل لها بها ، وخاصة وأن

الموقف الدولي كان قد تغير في حوض البحر المتوسط في العشرينات بعد استيلاء الفاشستين وموسوليني على الحكم في روما ، وتغير ميزان القوى بين الدول الاستعمارية من جانب ، والقوى الوطنية ، مع بعضها ومع الدول الاستعمارية من جانب آخر .

(٣) الثورة السورية :

كانت المرحلة الأولى للعلاقات السورية الفرنسية والتي تمتد من سنة ١٩٢٠ إلى سنة ١٩٢٦ تمتاز بتولى ثلاث من الرجال العسكريين لمهام الانتداب الفرنسي على سوريا . وكانت سلطاتهم مطلقة وعسكرية ، وكانوا من أكبر القادة العسكريين الفرنسيين في ذلك الوقت . كان أولهم هو الجنرال غورو الذي تمرن مع رجاله في شمال إفريقيا ، أما الثاني فكان الجنرال فييجاند الذي امتاز بحدة ذكائه واهتمامه بدقائق الأمور العسكرية ، أما الثالث فكان الجنرال سراي . ولم تكن السلطات الممنوحة لهؤلاء القواد ، وهي مطلقة ، ملاوة على القوات الخاضعة لتصرفهم ، تسمح للعرب بالحركة ، وتم في عهدهم تقسيم سوريا الى دول أو دويلات ، كما تم وضع أسس الإدارة الجديدة بكل ما حملت لسوريا من محاسن ومساوي . ولكن وقف العيل في سنة ١٩٢٥ بالقانون العسكري فتح المجال أمام السوريين للحركة والمطالبة ، رغم أن السلطات بقيت كما هي في أيدي المندوبين السامين .

ولقد تجمعت أسباب عدم الرضا للسوري في شهر يوليو سنة ١٩٢٥ في منطقة جبل الدوز ينوع خاص ، وفي وقت حكم جنرال سراي ، وجاءت نتيجة لتصفه واستبداد السلطات المحلية بالمنطقة ، وكانت منطقة الدروز قد وضيت بإنشاء حكومة خاصة بها ، وكأنها تناست بذلك مبادئ الوحدة

والاستقلال. وإذا كان الهدوء الذي ساد المنطقة يمكن أن ينسب إلى كثرة القوة العسكرية، وضغط الفرنسيين على الأهالي، فإنه ينسب كذلك إلى استعانة الفرنسيين بعدد من القيادات الوطنية، وفي مناطق مختلفة، لتنفيذ السياسة الجديدة، وموافقة هذه القيادات على هذه السياسة التي تمت مع نموها الاجتماعي والاقتصادي. وتغيرت الأحوال حينما عملت السلطات الفرنسية على كبت هذه القيادات أو الحد من نموها. فحدث صدام تبلور فيه المعسكر الإقليمي في جانب، بما فيه من قياداته وقوى شعبية، وقوات الاحتلال الأجنبي في جانب آخر. وإذا كتب للثورة التي نشبت في منطقة جبل الدوز أن تظل محصورة فيه لبقيت ثورة إقليمية متصلة بالقيادة الوطنية المحلية دون كبير صلة بالمشكلة السورية أو المشكلة العربية. وإن امتداد هذه الثورة خارج حدود منطقة جبل الدوز وتعاون عناصر الأمة السورية فيها هو الذي أعطاها لونها الوطني كحركة كفاح ضد الاستعمار.

أساء بعض الضباط الفرنسيين معاملة شيوخ الجبل، ورفض المفوض السامي الفرنسي تغيير هؤلاء الضباط وإرضاء الوطنيين. وتدهورت العلاقات بين الجانبين وخاصة بعد أن صمم الضباط الفرنسيين على مواصلة تعجزهم ضد القيارات الوطنية. فبدأت الثورة في السويداء في شكل حركة عدم رضا تطورت سريعاً إلى حركة مسلحة. لقد طالب السوريون بضرورة احترام القانون واحترام الحرية الشخصية فلا يسجن أحد أو يعاقب أو ينفي إلا بحكم القانون. كما طالبوا بالحرية السياسية وحرية التحدث والاجتماع. وأخذ سلطان باشا الأطرش في جمع بعض رجالات الجبل من القرى وتسليحهم والاستعداد للمعركة. وحينما حاول الفرنسيون الدخول إلى السويداء هاجمهم

الوطنيون السوريون من ناحيتين وانتصروا عليهم وقضوا على أغلبهم ، إلا عدداً بسيطاً حمل أخبار الهزيمة الى الفرنسيين . كان لا تتصارع السوريين على هذه الكتيبة الفرنسية أكبر أثر في إذكاء الروح الوطنية في جميع أنحاء سوريا ، وفي شعور السوريين بأن في إمكانهم هزيمة قوات الاحتلال . وسرعان ما انتشرت الأخبار بأن رجال الجبل قد هاجموا قلعة السويداء واستولوا عليها من القوات الفرنسية ، فأضافت هذه الأخبار الى ما سبق من ارتفاع الروح المعنوية وتحمس السوريين في كل مكان للبذل والتضحية والكفاح من أجل بلادهم .

ولقد صممت فرنسا على عدم التقهر وأرسلت قوة أكبر ، بلغ عددها بضعة آلاف ، وقصدت من ورائها تهدئة الجبل ، أو كسر شوكة رجاله . ولكن هذه القوة الجديدة لقيت هزيمة منكرة في أوائل شهر أغسطس ، بل واجهت كارثة بعد أن فقدت معظم أسلحتها ومدافعها وذخائرها وأصبح الباب مفتوحاً أمام الثوار الى دمشق .

كان الموقف عصيباً أمام الفرنسيين في سوريا ، وكان عصيباً أمامهم في شمال افريقية مع عمليات الأمير عبد الكريم الخطابي الذي كان قد بدأ في الهجوم من الريف على المنطقة المغربية الخاضعة للحماية الفرنسية . ولم يكن من السهل على فرنسا أن تراجع في أي من الميدانين حتى لا يظهر ضعفها وينتهي حكمها ، ولذلك فإنها قررت على العمود ، بل زيادة المجهود الحربي للوصول الى تهدئة الموقف ، أي الى كبت السوريين . ولكن طلائع الثوار وصلت أمام دمشق ، وظلت مهيمنة على الضواحي ، رغم عدم تمكنها من دخول عاصمة الأمويين . ومن الصعب كتابة تاريخ تفصيلي لهذه الثورة حتى الآن . نظراً لقلة المصادر ، وتأجج المشاعر الخاصة بها من جانب أو آخر . ولكنها

امتلات بالعمليات الناجح منها والفاشل ، كما توالى الأخبار عن نجاح الثوار أو نجاح قوات الاحتلال . فمرة تأتي الأخبار في نهاية شهر سبتمبر بدخول الفرنسيين الى السويداء ، ولكن سرعان ما تجيء الأخبار معلنة سرعة انسحابهم منها . ثم تنتشر الاشاعات بأن بريطانيا كانت تقوم بمدزعماء الجبل بالاسلحة والذخائر من فلسطين المجاورة حتى يناووا الفرنسيين ويقلقوا مضاجعهم ، وبعد تأكيد قسم من الصحافة الفرنسية لهذا الاتجاه تأتي الاخبار بقضاء الثوار على وحدات فرنسية واستيلائهم على اسلحتها وذخائرها . ولكن الثابت هو أن نجاح الثورة قد عمل على انتشار مداها في جميع انحاء البلاد ، وبشكل جعل كثير من الزعماء الوطنيين يتطوعون في صفوفها ، مما أعطاها لون انتفاضة وطنية واضحة . ولقد امتدت الثورة الى ما وراء دمشق في أقاليم حمص وحماة وطرابلس ، وهدد الثوار بيروت نفسها ، ووضح أن الثورة قد تطورت وتبلورت وأخذت طابعاً وطنياً عربياً يهدف الوحدة والاستقلال .

وكلما اشتدت الثورة وزاد انضمام الأهالي اليها ، زادت فرنسا من مجهوداتها لقمعها وبمنتهى القسوة . ولقد قامت القوات الفرنسية بضرب القرى بالقنابل وبدون سابق انذار ، كما استباحت عدداً آخر من القرى ، بكل ما تشتمل عليه هذه الكلمة من معاني ، وجندت فرنسا عدداً من الأرمن والجراكسة وسمحت لهم باستخدام العنف وباستغلال الثورة للسلب والسبي والنهب . ولكن هذه السياسة زادت من تصميم العرب السوريين على مواصلة الكفاح المسلح . وتمكنوا من الدخول الى دمشق مرتين ، وباعداد كبيرة . فما كان من الفرنسيين الا أن ضربوا بعض أحياء دمشق الشعبية بالقنابل ، من الطائرات ، ومن المدفعية المركزة في قلعة قرب وسط المدينة ، ولقد كانت هذه العملية الأخيرة سبباً في هياج الرأي العام العربي ، والرأي العام العالمي ،

بل وحق الرأي العام الفرنسي ، وبشكل أضطر فرنسا الى استدعاء الجنرال سراي ، وهو المسئول عن هذه العملية بطريق مباشر أو غير مباشر . وعينت فرنسا مندوبا مفوضا ساميا جديدا هو دي جوفينيل ، وكان هذا التغيير يعني الاعتذار عن تلك الآلاف من القتلى والجرحى من المدنيين ، وعن التخريب والخسائر في العقارات والمتاجر .

وظلت الثورة السورية مشتعله طوال سنة ١٩٢٦ . ولكن فرنسا اعتمدت على قوات كبيرة لتدعيم وتثبيت سلطانها على البلاد . فتحولت الثورة الى حرب عصابات متقطعة ، هنا وهناك ، وواصلت عملها في الشهور الأولى من سنة ١٩٢٧ . ورغم استخدام فرنسا للشدة أمام هذه الثورة ، وتحول هذه الثورة الى معارك مفككة ، الا أن الثورة قد نجحت سياسيا في الوصول الى مرحلة من مراحل الكفاح الوطني لم تشهدها سوريا من قبل . كما أنها نجحت في اجبار فرنسا على التصريح باستعدادها لتغيير سياستها في المشرق العربي . وأعلن دي جوفينيل أن لبنان قد أصبح جمهورية ، وصرح بأن الحكومة الفرنسية تنوى عقد معاهدة تحالف مع سوريا ، تحل محل نظام الانتداب وتشبه المعاهدة البريطانية العراقية . واذا كان هذا التحول السياسي لا يعني تغييراً أساسيا أو جذريا في طبيعة الاوضاع القائمة ، الا أنه كان يمثل ، سياسيا ، مرحلة من مراحل علاقة الحاكم بالمحكوم ، والدولة المتشددة بالأهالي الوطنيين الذين هم تحت انتدابها . وإذا كان من الصعب تقدير الخسائر الناتجة عن هذه الثورة ، سواء في الأتفس أو الاموال والممتلكات ، فما لا شك فيه أن هذه الخسائر كانت أكثر من خسائر ثورة العراق سنة ١٩٢٠ وإن كانت الخسائر هنا موزعة بين الوطنيين والمحتلين . وبعد هذه الثورة

دخل تاريخ سوريا مرحلة جديدة هي مرحلة المفاوضات مع الفرنسيين للحصول على الاستقلال

(٤) المفاوضات : -

بقى دي جو فينيل بضعة أشهر في سوريا ، ثم غيرته فرنسا وعينت بدله بونسو مندوباً سامياً . وكان من حظ هذا الحاكم الجديد بقاءه في الحكم مدة سبع سنوات متتالية سمحت له بالعمل لمحاولة إيجاد حل للمشكلة السورية وكان بونسو حاكماً مدنياً ، وحاول أن يتفاهم مع الزعماء السوريين ويقضى على بعض النظم البيروقراطية وعيوب الإدارة . وأظهر حياداً في الانتخابات السورية ، مما جعل الأهالي يشقون فيه . ولكنه عجز عن الوصول الى حل مع الزعماء السوريين في المشكلات الأساسية التي كانت عصب القضية . وكانت تلخيص في كلمتي الوحدة والاستقلال . لقد أظهر بونسو رغبة صادقة للوصول الى حل مع السوريين ، ولكن الرغبة كانت تصطدم بالمصالح الفرنسية حول هذين المبدأين . ورغم المفاوضات الطويلة التي قامت بينه وبين الزعماء السوريين فإنه قد ترك القضية في نفس النقطة التي كان قد استلمها فيها عند مجيئه إلى البلاد .

لقد وافقت الحكومة الفرنسية على انشاء حكم جمهوري في سوريا ، ولكنها عجزت عن الاتفاق مع الوطنيين السوريين حول بعض نقط الدستور الهامة . ووافق بونسو على نشر هذا الدستور كما هو ، وبالطريقة التي أقرها به الوطنيون ، ولكنه أكمله بمادة جديدة تعطل العمل بالنقط الست التي لم يتفق عليها مع الوطنيين ، مستنداً الى ضرورة الوصول الى معاهدة قبل البت في هذه النقط الأساسية .

وبدأت الانتخابات في سوريا وفي ظل الدستور الجديد ، تمهيدا للبدأ في مفاوضات تقوم بها هيئة وطنية تمثل الشعب ولها صلاحية التفاوض باسمه . ولكن بونسو استغل بعض الشخصيات السورية وأقنعها بضرورة اتخاذ سياسة التعاون مع فرنسا ، بدلا من الاستمرار في السير على سياسة الجذب والدفع . وتكونت حكومة دستورية في سوريا في يونيو سنة ١٩٣٢ ، ولكن رئيسها كان العوبة في أيدي الفرنسيين ، كما كان رئيس الجمهورية العوبة ثانية وكان مجلس النواب يمثل سوريا بالاسم لا في الحقيقة ، خاصة وأن بونسو كان قد تدخل في الانتخابات هذه المرة .

ولقد عرض بونسو على الحكومة السورية مشروع معاهدة تقل في كثير عن المعاهدة البريطانية العراقية سنة ١٩٣٠ رغم أنه كان قد صرح مراراً وتكراراً بأن هدفه هو الوصول بالعلاقات الفرنسية السورية الى نفس مستوى العلاقات البريطانية العراقية . ورغم أن كثيرا من مواد هذا المشروع بالمعاهدة كانت تشبه وتطابق مواد أخرى في المعاهدة البريطانية العراقية ، إلا أن إختلافا واضحا تعمد الفرنسيون وضعه فيما يتعلق بالسيادة والوحدة ونظم الحكم المقبلة في سوريا . ولقد أدت عملية التمويه هذه على فضح النيات الفرنسية وبشكل أجبر أنصار التعاون مع فرنسا على الاستقالة من الحكومة الجديدة خاصة وأنهم كانوا يشعرون أن تعاونهم مع فرنسا كان يبعدهم عن أبناء بلدهم ويجعلهم في موقف لا يحسدون عليه . فخسرت فرنسا بدلا من أن تكسب ، وتبلور الموقف وبشكل جعل الوطنيين يصرون على مطالبهم رغم أن المشكلة بقيت كما هي .

ومرة جديدة حاولت فرنسا استخدام الشدة فعينت دي مارتيل خليفة

لبونسو . وكان معروفا بالشدة أكثر من الحزم ، وظهر أن فرنسا قد صممت على عدم التراجع بعد أن مضت ٦ سنوات على نهاية الثورة السورية ، أضاعتها عليها في المفاوضات ، والجلسات ، والمحاولات الفاشلة للوصول لأي حلول . وبدأ دي مارتيل عمله في أكتوبر سنة ١٩٠٣ باستدعاء رئيس الوزراء السوري وأمره بقبول مشروع المعاهدة . ولما كان هذا الرئيس السوري قليل العمق ، ومن مرشحى الفرنسيين ، فإنه قبل المشروع . ولكن الأغلبية العظمى في مجلس النواب السوري عارضت هذا المشروع ونقدته ورفضته . فما كان من دي مارتيل إلا أن أمر بتعطيل مجلس النواب الى أجل غير مسمى وجعل من الحكومة السورية هيئة تنفيذية ، لتنفيذ ما يقوم هو بسنه وتخطيطه وأعلن أن الأحوال الاقتصادية في سوريا تحتاج الى كل اهتمام ، ولذلك فإنه سترك المشكلات السياسية جانبا حتى يتمكن من التفرغ لغيرها من المشكلات . وكان ذلك بالفعل ، واستمر دي مارتيل يسير شئون البلاد ولمدة سنتين ، الى أن استجملت الأمة قواها ، وأيقظته بثورة جديدة عارمة ، خاصة وأنه كان قد أخذ من الاجراءات السياسية أو المانعة للسياسة في سوريا ، ما يدفع بالسوريين الى هذه الثورة . لقد استخدمت الشرطة سلطتها لمهاجمة مكاتب الحزب الوطني وفي وقت كانت فيه النفوس هائجة ، في أوائل سنة ١٩٢٦ ، والوطنيون يستعدون للاحتفال بذكرى أحد رجالاتهم . ولم تجد الشرطة ما يدين الحزب الوطني ، ولكن السلطات أمرت باغلاق مكاتب هذا الحزب وألقت القبض على عدد كبير من الزعماء وأبعدتهم دون محاكمة ، وكما كان عليه الحال في أول سنوات الانتداب . وكانت النفوس قد بلغت تلك المرحلة من التحمل التي لا يمكنها أن تتحمل بعدها ، فكان الانفجار . وجاء رد الفعل وسريعا وبدأ باغلاق جميع الحوانيت والمحلات التجارية ، ثم الاضراب عن

العمل في جميع أنحاء البلاد ، وتلى ذلك عمليات الاضطراب في كل مكان .
وكلما حاولت الحكومة استخدام الشدة للسيطرة على الموقف ، ازداد تشبث
الوطنيين بموقفهم وبمطالبهم . ونشأت حركة للمقاومة السلبية عامة وشاملة
ودام الاضراب مدة ستة أسابيع كاملة ، فاضطرت السلطات الفرنسية إلى
التراجع .

لقد أجبر الموقف المفوض السامي الفرنسي على التصريح في ٢٥ فبراير بأن
فرنسا مستعدة للدخول في مفاوضات مباشرة لعقد معاهدة مع سوريا ، وأنه
على استعداد لإصدار عفو عام عن الجميع ، وعن المعتقلين السياسيين ، وأنه يطلب
من زعماء الحزب الوطني التقدم للتشاور معه في الأمر . وكان هذا التراجع
نصراً كبيراً للوطنيين ، واتفق زعمائهم مع دي مارتيل على ارسال وفد سوري
الى باريس للدخول في مفاوضات سريعة مع وزارة الخارجية الفرنسية وفي
أقرب فرصة ممكنة .

وسرعان ما انضج أمام الوطنيين أن الفرنسيين قد حاولوا تغيير وسائلهم ،
لا تغيير أسس سياستهم في المنطقة . وشعر السوريون بمجرد بدأ مفاوضاتهم
في باريس في شهر مارس بأن الاختلاف لا يزال كبيراً بين فهم كل من
الفرنسيين والوطنيين لمعنى المعاهدة . ورأي المفاوضون السوريون أن مشروع
المعاهدة الذي تقدمت به وزارة الخارجية الفرنسية يختلف عن المعاهدة البريطانية
العراقية سنة ١٩٣٠ في نصوص كثيرة وأساسية . كما رأوا أن هذه المعاهدة
لا تنص على الوحدة السورية ، ثم تأكدوا من أن فرنسا كانت غير مستعدة
لارضائهم في هذه النقطة الأخيرة ، ولكن الظروف تطورت في فرنسا نفسها
في صالح الوطنيين السوريين ، حين تغيرت الوزارة وجاءت الجبهة الوطنية وعلى

رأسها بلوم للحكم . وكان بلوم يختلف عن دلاديه في الشخصية والتكوين والاتجاهات ، كما كانت وزارته تختلف عن وزارة سلفه . وبدأت المفاوضات السورية الفرنسية من جديد ، وفي أفق أوسع . وفي جو أكثر تحملاً . وانتهت هذه المفاوضات بعقد معاهدة تحالف سورية فرنسية في ٩ سبتمبر ، تلتها مفاوضات ثانية في بيروت إنتهت بعقد معاهدة تحالف لبنانية فرنسية في ١٣ نوفمبر .

ولقد كان وجه التشابه كبيراً بين هاتين المعاهدتين ، والمعاهدة البريطانية العراقية سنة ١٩٣٠ . ولقد نصت كل منهما على أنها يبدأ العمل بها بعد ثلاث سنوات ، وبعد دخول كل من سوريا ولبنان عضواً في عصبة الأمم . ونصت كل من المعاهدتين على أنها تحل محل نظام الإنتداب ويظل العمل سارياً بها لمدة ٢٥ سنة قابلة للتجديد وبموافقة الطرفين . إنها معاهدات بين دول مستقلة وتامة السيادة ، أي أنها تعترف بوحده سوريا وتمايم سيادتها . وكانت كل من هاتين المعاهدتين تمنح فرنسا في هذا الاقليم العربي أو ذلك ، ما منحه معاهدة سنة ١٩٣٠ لبريطانيا في العراق . ولكن اختلافاً بسيطاً ظهر بينهما ، وأظهر رغبة فرنسا في الاحتفاظ بقواعد عسكرية لها في لبنان أكثر منها في سوريا ، وكان ذلك أمراً طبيعياً ، خاصة وأن لبنان كانت هي المنطقة الأولى اللازمة لفرنسا للوصول الى داخل البلاد . ولذلك فإن المعاهدة مع سوريا قد أعطت للفرنسيين الحق في الاحتفاظ بحامية في منطقة جبل الدروز ، وبحامية أخرى في منطقة اللاذقية ، أي الاقليم المجاور لحدود فلسطين ، والاقليم الذي يفصل سوريا عن لواء الاسكندرونة ، وهما الاقليمان الذي يتميز الأهالي فيها بمميزات إقليمية خاصة .

وأعطت هذا الحق لفرنسا لمدة خمس سنوات إبتداءً من ميعاد العمل بالمعاهدة كما أعطت لها الحق في استخدام قاعدتين من القواعد الجوية في سوريا، وطوال مدة العمل بالمعاهدة . أما في لبنان فان المعاهدة اللبنانية قد سمحت لفرنسا بوضع أى عدد من قواتها العسكرية ، وفي أى منطقة ترغب، ومن أى سلاح من الأسلحة دون أى تحديد . وأخيرا فان فرنسا قد تعهدت بتعزيز وتأيد أمر دخول الدولتين العربيتين في عصبة الأمم.

حقيقة أن هاتين المعاهدتين قد أقتسمتا سوريا إلى قسمين ، هما سوريا ولبنان، وكانتا بذلك ضد مبدأ الوحدة العربية . كما أنها لم يحددا الحدود بين هاتين الدولتين الناشئتين وتركا بذلك الباب مفتوحا لمناقشات جديدة . ولكن طبيعة الأوضاع وطبيعة القوى الموجودة في الميدان دفعت بالقوى الوطنية إلى عدم مناقشة هذه المسائل ، تدعيا للمعسكر الوطنى العربى ، في رباط من التآخى ، بدلا من إثارة بعض العناصر والأقليات وبشكل قد يدفعها من جديد صوب الخارج و صوب الأجانب .

ولقد وافق كل من المجلس السورى واللبنانى على المعاهدة قبل نهاية سنة ١٩٣٦ - ولكن اضطرابات نشأت في لبنان نتيجة لمطالبة بعض اللبنانيين بعوده أقاليمهم إلى الوضعية السابقة لسنة ١٩٢٠ ، أى فصلهم عن لبنان وإلحاقهم بسوريا . وانتشرت المظاهرات والاضطرابات في طرابلس وبيروت ونزلت الجنود الفرنسية الى الشارع للمحافظة على النظام مما سهل على الحكومة اللبنانية تطبيق المعاهدة رغم المعارضة الموجودة في المجلس وفي الشارع .

ولقد ظلت هاتان المعاهدتان أساساً للعلاقات الفرنسية السورية والفرنسية اللبنانية حتى الحرب العالمية الثانية ، وما حدث فيها من مشكلات ، وخاصة بعد تسليم فرنسا وقيام حكومة فيشي وحكومة فرنسا الحرة . ووصل الغرب السوريون عن طريقها إلى حل مؤقت ، كما حدث في العراق ، ولم يأتى الحل النهائي والأساسى إلا مع الحرب العالمية الثانية .

خاتمة الباب

يمكننا أن نقول بأن منطقة الهلال الخصيب كانت محطاً لأطماع الدول الإستعمارية، وخاصة بريطانيا وفرنسا. ولقد تبلورت هذه الأطماع حول العوامل الاقتصادية، والعوامل الإستراتيجية.

ولقد أفادت الدول الاستعمارية بشكل عام، وبريطانيا بنوع خاص من حركة نمو الوعي القومي العربي في هذه المنطقة للعمل على فصلها عن غيرها والتفرس فيها. وكانت ظروف الحرب العالمية الأولى، بما فيها من دبلوماسية واستراتيجية. وظروف العرب في هذه الفترة من تاريخهم. عوامل تساعد بريطانيا على تحقيق أطماعها، وإرضاء حليفها فرنسا في الشام.

وكانت فرنسا تشعر بقلقة مركزها، وضعف نفوذها، فاستخدمت القوة وعملت على تقسيم منطقة نفوذها، أو المنطقة الخاضعة لإنتدابها. أما إنجلترا فأنها حاولت أن تنشئ لنفسها منطقة نفوذ بريطانية تمتد من وادي النيل عبر فلسطين والأردن إلى العراق والخليج العربي، ومياه الهند.

وكان كفاح العرب في منطقة الهلال الخصيب يتميز بتكتيك معين، ويعتمد على المفاوضات والمعاهدات، نتيجة لتكوين القيادة الوطنية في هذا الإقليم، وطبقيتهم ومصالحهم. وانتهى الأمر بهم في الفترة

السابقة للحرب العالمية الثانية الى قبول العمل داخل الحدود الذي فرضها المستعمر عليهم ، مقطّعاً بها جسد الأمة العربية ، وتناسى مبدأ الوحدة . ووصلوا الى عقد معاهدات تحالف ، مع الدول المنتدبة ، أو المستعمرة ، واضطروا الى ربط أنفسهم بعجلة هذه الدول لفترة جديدة . رغم حصولهم على السيادة والإسقلال .

الباب الثالث

فلسطين

لقد تنمر لفلسطين أكثر من مستعمر ، وتكالب اثنان من بينهم على هذا
إقليم سويًا . ورغم تفوقهما المادي والعسكري ، فقد قام عرب فلسطين
بالكفاح من أجل بلادهم وديارهم وأراضيهم . واستمرت المأساة حلقة بعد
حلقة ، ومرحلة بعد مرحلة ، والقوى متفاوتة ، حتى أنشب السرطان أنيا به
في المنطقة . وأخذ يهدد كل العرب .

الفصل التاسع

الاطماع الاستعمارية في فلسطين

فلسطين جزء لا يتجزأ من الوطن العربي ، وأهلها أبناء للأمة العربية . وترجع عروبته وعروبة أهلها إلى يوم ظهور العرب في التاريخ ، واستمرت صلاتها ببقية أنحاء العالم العربي على مر العصور . وجاء الإسلام مدعماً لعروبة المنطقة وأهلها . وكانت فلسطين من أولى المناطق التي إتحدت في الدولة العربية الأولى ، واعتزت بأسلامها مثل إعزازها بحماية المسيحيين فيها .

هي منطقة من مناطق سوريا ، وأرضها متممة لشبه جزيرة سيناء . موانئها مخارج بحرية لأرض الهلال الخصيب العربي ، وبداية الطريق التجاري البري القديم عبر الحجاز واليمن إلى المحيط الهندي .

عاشت خلال قرون طويلة متحدة مع بقية المناطق العربية المجاورة وامتزجت على الخريطة في شكلها الواضح المتميز الخطير إلا مع تسويات الحرب العالمية الأولى . ونتيجة لانتصار دول « الوفاق » أو « الحلفاء » على دول الوسط ، ونتيجة لأطماع الاستعماريين .

١- أهمية فلسطين :

إن فلسطين هم العرب أجمعين ، ولأسباب كثيرة . فهي أرض عربية منذ آلاف السنين ، وتلزم لمعيشة أهلها العرب قبل أن يستخدمها الاستعمار

لأيواء المشردين . وأراضيها وبساتينها ومنازلها ملك للعرب ، ومن الحق أن تعود لأصحابها ، وإن كره الظالمون ، كما أنها المعبر الطبيعي لوصول البلاد العربية بعضها ببعض ، والدعامة المادية الإقليمية اللازمة لتوحيد دولة العرب فسواحلها تتم سواحل مصر وسواحل الشام ، وأراضيها تسمح بوصول الحدود المصرية بالحدود السورية والأردنية ، بل تسمح بوصول كل من العراق وشبه الجزيرة العربية بالبحر المتوسط .

ولقد شعر الغرب الاستعماري بخطورة هذا الاقليم من قبل إعلان الحرب العالمية الأولى ، وعرف أن إنتزاعها من أيدي أصحابها الشرعيين يسمح له بالسيطرة على كل المنطقة العربية المحيطة ، والتحكم في أهلها وأرزاق أبنائها .

ولست عملية إنتزاع فلسطين من أيدي العرب إلا عملية من عمليات الاستعمار التي ارتكبت باسم الانسانية المعذبة ، وأخفت وراءها عوامل الاقتصاد والاستراتيجية التي تستند إليها الحركة الاستعمارية في كل ميدان .

أما من الناحية الاستراتيجية فنعلم أن بريطانيا قد عملت منذ نهاية القرن الثامن عشر على والاحتفاظ بنفوذ متفوق في مناطق الشرق الأدنى العربي ، والاحتفاظ بهذه البقعة في حالة من الضعف تسمح لها بالمرور عبرها إلى مستعمراتها في الهند والشرق الأقصى ، وتعاونت قواتها البحرية ، في البحر المتوسط ، وقواتها الاستعمارية في الهند في الهجوم على المنطقة من الشمال ومن الجنوب من البحر المتوسط ، ومن الخليج العربي ، والبحر الأحمر - للقضاء على كل قوة إقليمية تحاول إعادة بناء المنطقة أو تهدف إلى إنشاء دولة قوية قد تتحكم في يوم من الأيام في خطوط المواصلات البريطانية . وكان هذا هو موقف بريطانيا من الحملة الفرنسية بقيادة بوناپرت

وكان هذا موقفها من الأمبراطورية الأفريقية - الآسيوية التي أنشأها محمد على محاولاً بها توحيد العرب من أعالي النيل إلى أعالي الفرات وأقامها سداً منيعاً أمام الاستعمار . لقد وقفت بريطانيا موقف العداء من هذه المحاولات ، خاصة وإن مصر قد أنهجت لنفسها في هذا العصر سياسة اقتصادية اشتراكية وركزت الصناعة وملكية الأراضي في أيدي الدولة ورفضت الاعتراف بمبدأ حرية التجارة التي توصلت بريطانيا عن طريقه إلى بناء أمبراطوريتها التي لا تغيب عنها الشمس . فألبت بريطانيا الدول على مصر وأعدت أسطولها في البحر المتوسط ، وهجمت بقواتها الاستعمارية في الهند على جنوب الجزيرة العربية واحتلت عدن ، كما أرسلت قواتها لمنع المصريين من الخروج إلى الخليج العربي ومياه الهند . ثم عقدت معاهدة « بلطة ليمان » مع الباب العالي وحصلت منه فيها على الاعتراف بتطبيق مبدأ حرية التجارة في جميع أنحاء الأمبراطورية العثمانية ، وأردفت ذلك بالهجوم على تلك الدولة الأفريقية - الآسيوية وأجبرت المصريين على العودة إلى وادي النيل ، والسوريين على البقاء تحت الحكم العثماني المباشر .

يمكننا أن نقول إذن إن الأهمية الاستراتيجية لهذه المنطقة قد تعاونت مع العامل الاقتصادي ودفعت بريطانيا منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى التحالف مع القوى الرجعية في المنطقة ، وظلت بريطانيا تطبق هذه السياسة ، حتى يومنا هذا سعياً وراء الاحتفاظ بالاقليم في حالة من الضعف تسمح لها بالاحتفاظ بامتيازاتها وبمصالحها الاستراتيجية الاستعمارية .

وقفزت بريطانيا قفزة جديدة ، وأخذت وثبة عدائية أخرى بعد شق

قناة السويس للملاحة الدولية ، فبعد معارضتها للمشروع قامت في سنة ١٨٧٥ شراء نصيب مصر في أسهم الشركة الدولية . واتخذت عملية تصدير رؤوس الأموال هذه سببا تستند اليه للتدخل في المالية المصرية وتمهيدا واعداداً لاحتلال مصر ، الأمر الذي نجحت في اتمامه في عام ١٨٨٢ - متحالفة مرة جديدة مع القوى الرجعية ، ضد الحركة الوطنية التي جاهرت بالثورة وعمات على تخليص مصائر البلاد من خراب محقق .

أمنت بريطانيا على خطوط مواصلاتها الاستعمارية باستيلائها على مصر وقناة السويس ، ولكنها شعرت بأن من يملك فلسطين يمكنه أن يهدد منطقة القناة - ووصل هذا الشعور الى مرحلة الخوف حينما بدأت المشروعات الألمانية تظهر واضحة جلية في المناطق العربية من الأمبراطورية العثمانية . وتبلور هذا الخوف في شكل عقدة واضحة حينما أعلنت الحرب العالمية الأولى وانضمت الدولة العثمانية الى دوائى الوسط ، ضد دول الوفاق ، وقامت حركة وطنية لتخليص مصر من الاحتلال الأجنبي .

رأت بريطانيا أهمية فلسطين للدفاع عن مراكزها في مصر عامة وفي قناة السويس بشكل خاص ، وشعرت بخطورة إتخاذ هذا الأقليم قاعدة للهجوم على مراكزها الاستعمارية في مصر . وكان الحزب الوطنى فى مصر ف ، حاول التمهيد لنشوب ثورة وطنية فى الوقت الذى تصل فيه القوات العثمانية الى مصر من سوريا ، وفى الوقت الذى قامت فيه قوات عربية اخرى بالهجوم على البريطانيين من حدود مصر العربية . فعمدت بريطانيا الى الاستيلاء على فلسطين لوقف أى هجوم من الشرق ، وللدفاع عن قواعدها الاستعمارية على طول قناة السويس ، وذلك فى «الأراضي الصعبة» الفلسطينية

التي يمكن تحصينها والبقاء فيها أكثر من البقاء في الأراضي السهلة المكشوفة في سيناء . فكانت فلسطين في هذه العملية هي الخطوط العسكرية الأمامية للدفاع عن قناة السويس ولوقف كل هجوم يقع عليها .

وكان الاستيلاء على فلسطين يعني إقامة قواعد برية جديدة تستند إلى الأسطول البريطاني في البحر المتوسط وتواصل سيرها شرقا مع نظام من المخالقات صوب الخليج العربي ؛ أي أنها كانت رأس الطريق البري الموصل إلى مياه الهند . ومع هذا الطريق يمكن للأمبراطورية البريطانية أن تعيش أياما جديدة في حالة توقف الملاحة في القناة لسبب أو لآخر .

وخشيت بريطانيا من أطماع زميلتها الإستعمارية فرنسا في الأقاليم السورية ، وخافت من إمتداد النفوذ الفرنسي جنوبا صوب قناة السويس ، التي لا يزال الفرنسيون يكون حتى اليوم أنهم عملوا على تنفيذها ، وجاءت بريطانيا لكي تحتلها . وكان الاستيلاء على الجزء الجنوبي من الشام ، أي فلسطين ، يعتبر تأمينا للمصالح الاستراتيجية الاستعمارية لبريطانيا ، أمام زميلتها وحليفها الأوربية .

ولكن امتداد الآراء التحررية العربية كان يهدد بانتقال زعامة وقيادة هذه الحركة من أيدي أنصار بريطانيا إلى أيدي قادة جد قد يظهرون في سوريا أو العراق أو وسط الجزيرة ، وقد ينجحون في تخليص بلادهم من المستعمر من الأجانب ، ومن أعوان الإستعمار . ولذلك فإن إنشاء وحدة إدارية خاصة في فلسطين كان يعني قطع طريق وصول العرب إلى سواحل البحر المتوسط ، خاصة إذا وضعت بريطانيا هذا الاقليم تحت

أدارتها المباشرة ، ونجحت في انشاء حكم محلي موال لها في الداخل ، في شرق الأردن ، وفي العراق . إن هذه الخطة تسمح بوقف السعوديين ومنعهم من الوصول إلى البحر المتوسط ، ومن الاتصال بمصر ، وتسمح لكل من السلطات العراقية في بغداد والأردنية في عمان ، والبريطانية في فلسطين ، بمراقبة الواحدة الأخرى . وتمكن بريطانيا بما لها من نفوذ في هذه الأقاليم من مكتب كل حركة تحررية تنشأ في أى منها ، مستندة في ذلك إلى قاعدتين فإذا قامت حركة وطنية عربية في فلسطين قامت قوات شرق الأردن بإعادة « النظام » إلى نصابه ، وإذا قامت حركة في الأردن تقوم القوات البريطانية في فلسطين والقوات الهاشمية في العراق بكبتها . وإذا قامت حركة في العراق قامت بريطانيا بكبتها من الأردن ، ومن الخليج العربى .

تلك هى المزايا الاستراتيجية التى يمكن لبريطانيا أن تحصل عليها من إستيلائها على فلسطين مهما كان اللون الذى حاولت بريطانيا أن تعطيه لهذا الإستيلاء ؛ وتلك هى الإمكانيات التى تسمح لبريطانيا بالسيطرة على الشرق الأدنى العربى ، مادامت أقدامها ثابتة فى فلسطين العربية . وساعدت هذه العوامل على انشاء فلسطين بالشكل المعروف على الخريطة بعد الحرب العالمية الأولى بحدودها المتاخمة لكل من لبنان وسوريا ، وبسواحلها المطلة على البحر المتوسط ، وبامتداد حدودها جنوبا مجاورة لشبه جزيرة سيناء لفصل مصر عن شرق الأردن وعن بقية البلاد العربية . أما فى الشرق فأن حدودها محمية تماما بشرق الأردن أمام رجال الصحراء العرب . ولم تكن هذه الحدود الشرقية تعوق بريطانيا فى شئ إذا أنها تفصل منطقة حكم بريطانى مباشرة : (فلسطين) ، عن منطقة حكم غير مباشر : (شرق الأردن) ، وتسمح لبريطانيا

الوصول الى مياه الخليج العربي ، ومياه الهند ، عن طريق أعوان لها في الداخل .

أما من الناحية الإقتصادية فان سواحل فلسطين تعتبر المخارج الطبيعية لمنتجات اقليم الهلال الخصيب ، الذي يشتمل على كل من سوريا والعراق . ولسنا نقصد هنا مجرد الموانع والقواكه ، وتمر العراق ، ولسكنا نقصد البترول الذي اكتشف في منطقة ما بين النهرين قبل الحرب العالمية الأولى ، والذي رسمت بريطانيا أمر الاستيلاء عليه وتسخر العرب في استخراجيه لخدمتها وخدمة صناعاتها . وقررت بريطانيا أمر وصول البترول العربي ، الى سواحل البحر المتوسط عند حيفا ميناء فلسطين العربي ، تمهيداً لشحنه ، على الناقلات الى أوروبا . وكان هذا المشروع الاستغلالى يتطلب الاحتفاظ بفلسطين تحت الحكم البريطانى . وعدم تسليمها الا لأعوان تثق بريطانيا فيهم مثل وثوقها فى نفسها .

٢ - مخالب القط

بدأ الاحتكاك الحضارى بين الشرق العربى والعالم العربى فى أثناء القرن التاسع عشر . ونتج عنه اعتزاز العرب بشخصيتهم ، ومعرفةهم سوء أحوالهم ، ومحاولتهم العمل على الإصلاح والانتاج .

نشأت حركة عامة لليقظة فى الشرق الأدنى ، ولكنها انقسمت الى اتجاهين نتيجة لتكوين القائمين عليها والموجهين لها .

الاتجاه الاول هو اتجاه القوميين العرب الذين استقوا العلم فى المعاهد الأجنبية أو فى البلاد الأوربية وشعروا بفضل وطأة الحكم العثماني عليهم وحاولوا الوصول الى التمتع بالحكم الذاتى ، والاعتراف بلغتهم العربية لغة رسمية ،

وقصر الخدمة العسكرية على أقاليهم والاشتراك في حكم الامبراطورية العثمانية : كانوا يدينون بمبدأ « الدين لله والوطن للجميع » ، ومبدأ المساواة بين الأجناس والديانات التي تسكن الامبراطورية على أساس مدنى لا دينى ، واحترام كل منطقة لأهالى ولقومية المناطق الأخرى . وكان نشوء هذه القومية في العصر الحديث أو عودة ظهورها مرة جديدة أمراً طبيعياً وخاصة في الوقت الذي بدأت فيه القوميات في الظهور متبلورة في وسط أوروبا ثم في منطقة البلقان . وساعدت الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإستراتيجية على ظهور هذه الحركة بشكل له قيمته ومقوماته في السنوات الأولى من القرن العشرين .

أما الإتجاه الثانى فهو إتجاه رجال الإصلاح من المسلمين الذين تمتعوا بثقافة شرقية متعددة النواحي وبدراسات إسلامية تعتمد على المنطق وترفض الخضوع للجمهور . رأى هؤلاء الزعماء من أتباع السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده أن الاسلام يصلح لكل زمان ومكان وأنه من المرونة والعدالة بحيث يتمشى مع كل مقتضيات الحياة وشعروا بتكالب الدول الاستعمارية على العالم وقاسوا من رؤية إقطاع أجزاء من جسد الأمة الإسلامية لكى ترسف في اغلال الاستعمار الغربى ، أخذت روسيا القيصرية تنفى التوسع في المناطق الإسلامية في وسط آسيا ، أما فرنسا فأنها قد احتلت الجزائر ثم أعلنت حمايتها على تونس ، وأخذت في الاستعداد للسيطرة على المغرب الأقصى ، وأما انجلترا فأنها قد خلقت الذرائع للتدخل في شئون مصر ثم احتلالها والتوسع منها صوب الجنوب للسيطرة على السودان وأعالى النيل ، وأما إيطاليا فأنها قد أرسلت قواتها سنة ١٩١١ واستولت على ولايتى برقة

وطرابلس . وكذلك فعلت اسبانيا في العام التالى لاحتلال المنطقة الشمالية من المغرب ، منطقة الريف .

كان من الطبيعى أن يسير ذوو الاتجاه العربى فى خط كفاح ضد الحكم العثمانى المباشر ، وكان من الطبيعى أيضا أن يحاول أنصار الاتجاه الثانى تكتيل العالم الاسلامى حول دار الخلافة العثمانية لوقف اعتداء الدول الاستعمارية ولتكوين كتلة قوية تدافع عن نفسها .

وظهرت طلائع الحرب العالمية الأولى والشرق الأدنى منقسم على نفسه إلى دائرتين : احدهما داخل الأخرى . كانت الدائرة الصغيرة تضم البلاد العربية التى تحاول الحصول على استقلالها أى أنها تسير فى حركة انفصالية عن جسد الدولة ، أما الدائرة الخارجية فكانت تضم البلاد الاسلامية وتحاول تجميعها حول الإمبراطورية العثمانية . حركة إنفصالية فى المركز تتجه صوب الخارج ، وحركة تكتلية حول المحيطات وتتجه صوب الداخل .

وجاءت الحرب وتحالفت فيها كل من إنجلترا وفرنسا والروسيا فى أحد المعسكرات ، وانضمت إليهم إيطاليا فيما بعد . فكان من الطبيعى أن تنضم الدولة العثمانية إلى المعسكر المضاد : معسكر دول الوسط .

وأدى إعلان الحرب إلى إجبار أبناء الشرق الأدنى على تقرير موقفهم فظهر الانقسام واضحا بين الدائرتين ، وأفادت منه الدول الاستعمارية الغربية بشكل عام وبريطانيا بشكل خاص .

وكان النفوذ الألمانى قد إزداد فى الشرق الأدنى فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، وفى أوائل القرن العشرين . وأصبح فى وسع

النفوذ الألماني أن يصل عن طريق سكة حديد بغداد عبر الأناضول والعراق إلى الخليج العربي ، أي أن يصل إلى مياه الهند ، وجاء مشروع سكة حديد الحجاز لكي يسهل وصول العثمانيين والألمان إلى جنوب الجزيرة العربية وعدن وزاد الموقف خطورة بعد وضع مشروع لربط هذه السكة الحديدية بالبحر المتوسط في شمال سوريا .

لقد أصبح من السهل على العثمانيين التقدم جنوباً حتى فلسطين ومهاجمة مصر منها . وأصبح من السهل عليهم كذلك الوصول عبر الحجاز إلى اليمن ومهاجمة عدن . وكانت حركة الجهاد الإسلامي التي قادها السيد « محمد بن عبد الله حسن » لا تزال مستعرة في الصومال ، وكان في استطاعتها التعاون مع العثمانيين في اليمن للقضاء على مراكز البريطانيين في عدن وفي بربرة ، وكان في مقدورها من ناحية أخرى أن تتعاون مع الألمان في تنجانيقا لكي تحصر البريطانيين في كينيا بين نارين . وزاد الأمر خطورة أن انضم السيد « أحمد الشريف السنوسي » في ليبيا إلى الدولة العثمانية وأصبح نائب الخليفة في كل شالي إفريقية كما انضم السلطان « علي دينار » ، سلطان دارفور إلى حركة الجهاد وهدد بالسير شرقاً لتحرير الخرطوم من البريطانيين أما الحبشة نفسها فقد استعد ملكها « لييج يسوع » للانضمام إلى معسكر دول الوسط ، بعد أن أعلن إسلامه واستعداده لمحاربة الحلفاء .

وجدت بريطانيا صعوبة في الاحتفاظ بمراكزها في الشرق الأدنى وخشيت على مراكزها الاستعمارية في مصر وفي السودان وفي عدن وفي الصومال وفي كينيا . وكانت السياسة العثمانية الإسلامية تهددها بخلق مشاكل عويصة في الهند . فدرست بريطانيا الموقف وقدرت ضرورة العمل

على قطع خطوط المواصلات الاستراتيجية للعثمانيين في الشرق الأدنى .

كانت المنطقة التي تهتم بريطانيا أكثر من غيرها هي تلك المنطقة التي سيهجم منها الأتراك على مراكز البريطانيين في مصر وعلى قواعدهم بجوار قناة السويس ، كانت هي فلسطين . فتلكن اذن ميدان المعركة ، ولتحتفظ بها بريطانيا لتأمين مراكزها وقواعدها الاستعمارية في مصر ، ولإنشاء رأس جسر لطريق بري يصلها بالهند عبر البلاد العربية .

وفضلت بريطانيا أن تكسب العرب إلى جانبها مادام هناك خلاف في الرأي بين أنصار العروبة وأنصار الإسلام في المنطقة ، وذلك لكي تضمن عدم اعتداء العرب على قواتها المحاربة في فلسطين ، أو تضمن على الأقل عدم مساعدتهم للأتراك . وكان على بريطانيا في نظير ذلك ألا توافق على المطالب والأمانى التي ينادى بها العرب .

وإذا ما توصلت بريطانيا إلى تحالف مع أحد رؤساء العرب ، فإن مركزها سيزداد قوة ، وقد يساعدها من الناحية العسكرية في العمليات الحربية في جنوب سوريا وبوفر عليها عدداً من القتلى والجرحى . وبحث بريطانيا في المنطقة فوجدت أن الشريف حسين بن علي هو أحسن من يقوم بهذه العملية خاصة وأنه من الأشراف وكان يحتل مكانة محترمة في البلاد العربية ، ويمكنها أن تساعد بالأموال والأسلحة من بور سودان عبر البحر الأحمر لإعداد قوات من المتطوعين يزحفون شمالاً ويشاركون في عمليات فلسطين . وكان في استطاعته أن يقضى على كل مشروع عثماني يهدف الوصول إلى اليمن وعدن . وكان إعلان الثورة من شريف ، وفي الحجاز ، ومن مكة المكرمة ، وعلى دولة الخلافة الإسلامية يمثل ضربة قوية للسياسة العثمانية القائمة على

تكتيل العالم الاسلامي للجهاد ضد الدول المستعمرة الغربية .

وقع إختيار البريطانيين إذن على الشريف حسين للقيام بدور مخلص القطر وكان في استطاعة البريطانيين أن يسيطروا على تحركاته ماداموا هم مزوديه بالأموال والأسلحة والذخائر والخبراء العسكريين . وأفادت بريطانيا من الانقسام الإقليمي في منطقة الشرق الأدنى ، بين أنصار العروبة وأنصار الاسلام لتأمين مراكزها الاستعمارية ، ولزيادة نفوذها في المنطقة ، ولاقطاع فلسطين العربية .

٣ - عهد الخلفاء :

كان الشريف حسين يمتاز بالطموح ، وظهرت أطماعه في الاستقلال بإدارة الحجاز وحكمه واضحة من قبل إعلان الحرب العالمية الأولى ، وكان أبنائه يمتازون بالطموح مثله .

ولقد تطوع الأمير عبد الله بن الحسين بزيارة كتشنر ، المندوب السامي البريطاني في مصر ، وذلك في شهر فبراير سنة ١٩١٤ في القاهرة وهو في طريقه إلى حضور مجلس « المبعوثان » في القسطنطينية . وفاتحه في ضرورة قيام العرب بثورة ضد الأتراك ، وحاول معرفة موقف إنجلترا تجاه مثل هذه الحركة . ثم تبسط أكثر من ذلك مع أحد أعوان كتشنر في دار القنصلية البريطانية العامة ، وفاتحه في ضرورة تزويد بريطانيا لهم بالأسلحة وبخاصة المدافع الرشاشة . وكان هذا أكبر مشجع لبريطانيا على تنفيذ مشروعاتها مادامت قد وجدت في المنطقة من يحمل السلاح بدلا عنها ، ويقا تل بدلا عن جنودها ، ويفتح الطريق أمام قواتها المتقدمة دون صعوبة .

لم تعط بريطانيا أى رد إيجابى على مفاتحات عبد الله ، ولكنها وثقت من إمكانية محاربة العرب للأتراك ، ومن إمكانية ضرب القوى الإقليمية الواحدة بالأخرى . ومن إمكانية الافادة من هذا الموقف . وأيد كتشنر فكرة التحالف مع العرب أو استغلالهم فى محاربة الأتراك . وحينما شغل كتشنر منصب وزير الحرية البريطانية اتصل بالشريف حسين وعمل على إغرائه للبدء فى حركته . فعمل حسين على كسب الوقت حتى يتصل برؤساء الحركة العربية فى شبه الجزيرة وفى سوريا وفى العراق . وذكر أنه سيقوم بالثورة فى حالة تشبث الأتراك ضده ، وعلى شرط أن تعده بريطانيا بمساعدة فعالة . فوعد كتشنر الحسين فى آخر أكتوبر سنة ١٩١٤ بأن بريطانيا تضمن بقاءه فى منصب شريف مكة ، وتضمن له كل حقوقه وامتيازاته ، وتتعهد بالدفاع عنه ضد كل إعتداء فى حالة دخوله الحرب إلى جانب إنجلترا . وضد تركيا . كما أنه وعد بتأييد العرب فى محاولتهم الحصول على حريتهم ، ولكن بشرط اعلانهم تحالفهم مع بريطانيا . وأكد للشريف إمكانية اعتراف بريطانيا به اذا ما أعلن نفسه خليفة للمسلمين

فتحت بريطانيا اذن المجال أمام الشريف حسين للتفكير فى بقية العالم العربى . وفى إمكانية وصوله لعرش الخلافة الإسلامية . وكانت تفكر فى مصالحها . وفى إمكانية استغلاله واستغلال رجاله فى الوصول إلى أهدافها . فوافق حسين على فكرة التحالف وأخذ فى تنظيم رجاله واعداد الخطة .

وأعلنت الدولة العثمانية الجهاد ، وحثت المسلمين على الالتفاف حول الخلافة والدفاع عن البلاد الإسلامية والعمل على تطهيرها من المستعمرين الدخلاء . ونشط الرجال لتكثيل الشعور الإسلامى والعمل على فضح نيات

الأجانب والأعداء . وأرسلت الحكومة العثمانية تطلب من حسين إعلان الجهاد . ولكنه عمل على كسب الوقت مدعياً بأن الأساطيل البريطانية قد تقوم بمهاجمة موانئ الحجاز . واتصل في نفس الوقت سرّاً بونجت ، السردار البريطاني للجيش المصري ، والحاكم العام للسودان ، وعرف أن بريطانيا ستؤيده بالأموال والأسلحة ثم اتصل بزعماء الحركة العربية في سوريا والعراق لمعرفة امكانية قيامهم بثورة ضد الدولة العثمانية أو عقد تحالف مع الدول العربية . فاشتروا ضرورة اعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية في كل من الشام والعراق حتى الخليج العربي والمحيط الهندي ثم البحر الأحمر ، وحتى سواحل البحر المتوسط من جديد ، كما اشتروا إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية ، ووافقوا على عقد تحالف دفاعي مع بريطانيا في حالة إعرافها بهذه الدولة العربية المستقلة ، كما أعربوا عن موافقتهم على تفضيل بريطانيا على غيرها في مشروعات الاستغلال الاقتصادي . وفرضوا الى حسين أمر النظام مع بريطانيا على هذه الأسس .

كان معنى تفضيل بريطانيا في مشروعات الاستغلال الاقتصادي فتح الباب أمامها لاستغلال البترول العربي . أي أن قيادة الحركة العربية قرروا الحصول على حربية بلادهم السياسية من الدولة العثمانية وقبلوا ترك الموارد الاقتصادية في أيدي مستغلين أجانب . كان البترول العربي يتطلب الحصول على مخرج له على البحر المتوسط وقد تدفق بأن الشبان الوطنيين العرب لم يفكروا في ذلك الوقت في أن بريطانيا ستعمل على وضع « مخرج » أنابيب البترول والمنطقة التي تصل إليها تحت سيطرتها المباشرة ، ولكن هذا الدفع يعني تبريراً لأخطاء ارتكبت ، أو تستر على جهل ، وكان على قادة الحركة

العربية أن يحسبوا للعوامل الاقتصادية والاستراتيجية كل حساب، خاصة وأن تعجلهم في إختيار الشريف حسين كممثل لهم ومتحدث باسمهم - رغم أن ظروف تكوينه ومصالحه قد اختلفت عن ظروف تكوينهم ومصالحهم - كان يدل من ناحية أخرى على قصور في عمق التفكير السياسي ، ويدل على سيرهم وراء العواطف أكثر من تقديرهم لعناصر الموضوع بحكمة وروية .

ظهر الانقسام واضحا في الشرق الأدنى بين الدائرتين التي يتكون منهما الاقليم : الدائرة العربية والدائرة الاسلامية . ولقد مثلت مصر نفسها هذا الانقسام في أجلى معانيه في ذلك الوقت بين رجالها السياسيين ، بل وبين رجال قواتها المسلحة . ويظهر ذلك من انضمام بعض رجال خفر السواحل المصريين إلى قوات الجيش الرابع الزاحف بقيادة جمال باشا ، وانضمام غيرهم إلى قوات السنوسيين في هجومهم على القوات البريطانية من الغرب ، وذلك في الوقت الذي وضعت فيه حكومة القاهرة ، تحت نظام الحماية ، كل امكانيات مصر في خدمة السلطات العسكرية البريطانية . ويمكننا أن نضيف موقف حكومة القاهرة في ذلك الوقت إلى حركة الشريف حسين لكي نلمس بوضوح بعض العوامل الهامة التي سهلت على بريطانيا احتلال فلسطين .

وأخذ الشريف حسين في مراسلة السلطات البريطانية في مصر بشأن مطالب العرب وتحقيق أمنيتهم القومية ويعرف التاريخ المعاصر تلك الخطابات التي تبادلها مع السير هنري مكماهون ، والتي عرض فيها مطالب العرب في وقت تأزم فيه الموقف أمام البريطانيين في مصر وفي شرق إفريقيا بل وفي أوروبا نفسها . واعتقد البريطانيون أن حسيناً لا يتحدث باسم الحجاز ، وأنه

يواصل أطماعه وأمانيه للاستقلال بهذا الاقليم ، ولإعلان نفسه خليفة على المسلمين . ولكن حسيناً ثار لهذا الموقف وشرح أنه المتحدث الرسمي باسم الحركة العربية ، ونادى بضرورة إعتراف بريطانيا باستقلال الدولة العربية وبحدودها الطبيعية من البحر المتوسط إلى المحيط الهندي ، ومن حدود فارس إلى سواحل البحر الأحمر . وشعر البريطانيون أنه يستند إلى قادة الحركة العربية وإلى زعمائها ، ورد عليه السيد هنري مكماهون بخطاب هام في ٢٤ من أكتوبر سنة ١٩١٥ أبلغه فيه تعهد بريطانيا بالاعتراف باستقلال العرب ، وبأيديها لهذا الاستقلال داخل المنطقة التي حددها الشريف ، ولكن باستثناء بعض مناطق آسيا الصغرى وسوريا . وأظهرت بريطانيا تحفظها بشأن بعض الأجزاء التي ترتبط معها بمعاهدات سياسية . ويعتبر هذا الخطاب مذكرة رسمية لها صفة دولية ، وترتب على ذلك دخول العرب إلى جانب الحلفاء . وازدادت أهميته بعد نهاية الحرب وفي الوقت الذي حاول فيه الانجليز الرجوع فيما وعدوا به ، وحينما عمدوا إلى تفسيره بشكل يتفق ومصالحهم ، ويجعلهم يتحكمون في العرب وفي منطقة الشرق الأدنى بأكملها .

وإن ما يهمنا هنا هو أن البريطانيين قد رفضوا الإعتراف بادخال هذه الأجزاء الشامية الواقعة إلى الغرب من مناطق دمشق وحمص وحماة وحلب داخل حدود الدولة العربية . ولكن الشريف حسيناً رفض هذا الموقف ونادى في مذكرته التالية في ٥ من نوفمبر بضرورة الإعتراف بها كأجزاء من هذه الدولة المقبلة . فأصر الانجليز على موقفهم ، وذكروا أن هذه المنطقة لهم المصالح الفرنسية . ومع هذا الاصرار من جانب البريطانيين نجد أن الشريف حسيناً يعرض تأجيل هذه المسألة إلى ما بعد الحرب ، بدعوى خوفه

من أن تفلت من يده فرصة إحتياج البريطانيين لمعاونته لهم في الحرب حقيقة أن هذه المنطقة كانت تخص سوريا ولبنان ، ولا تتعلق بفلسطين ، ولكن تركها بشكل معلق وعدم تقريرها بشكل واضح قد أعطى لبريطانيا فرصا لخلق تعقيدات ولتبرير موقفها ولخدمة أطماعها . وفي فلسطين .

ولقد استمر النقاش حول موضوع حدود هذه الدولة ، وخاصة بالنسبة لفلسطين ، لمدة سنوات طويلة بعد وقوع المأساة ، وأكد العرب أن بريطانيا قد اعترفت بدخول ذلك الاقليم داخل حدود الدولة العربية ، بينما تنصل الانجليز بأنهم لم يعترفوا بذلك .

والحقيقة هي أن مكماهون قد قبل حدود الدولة العربية في مجموعها كما عرضها الشريف حسين ، ثم أظهر تحفظه تجاه بعض أجزاء ومناطق منها . وهذا يدعو الى تأييد وجهة النظر العربية ، وهو الاعتراف الرسمي بعروبة هذا الاقليم ودخوله في نطاق الدولة العربية التي تعهدت بريطانيا بالاعتراف بها وبتأييدها لاستقلالها . مادامت مراسلات مكماهون لم تنص عليه أو حتى ألمح اليه في تحفظاتها الخاصة . ذلك أن هذه المراسلات لم تشمل على كلمة فلسطين أو حتى سنجق بيت المقدس حسب التسمية الادارية العثمانية في ذلك الوقت ، رغم أن تحديد مناطق أخرى معينة حاولت إخضاعها لشروط ولتحفظات . وإن صمدت مكماهون عن الإشارة لهذا الاقليم لدليل على إعتراف بريطانيا به داخلا في نطاق الدولة العربية التي تعهدت بضمان استقلالها .

ولقد ظهرت هذه الحجج فيما بعد ، وعند مناقشة الوعود البريطانية ، وعند مطالبة العرب لبريطانيا تنفيذها . ولم نذكرها هنا إلا لأنها ثغرات عمد المستعمر « الحليف » الى أن ينفذ منها الى قلب البلاد العربية ، ويستغل

عن طريقها مجهودات العرب .

وعلى أي حال كان الشريف حسينا قد هيا نفسه للقيام بدور خطير في منطقة الشرق الأدنى : دور الثورة والثقة العمياء بالمستعمرين الغربيين ، والبريطانيين منهم بنوع خاص ، وكان من قصر النظر الى درجة عجزه عن رؤية معنى قيامه بهذا الدور ، دور محلب القط في أيدي المستعمرين ، والمحركة تتركز في فلسطين . أما قيمة العهد فكانت تتوقف على شرف من يقطعه على نفسه . وكانت بريطانيا قد تعودت قطع العهود دون أن تفكر في تنفيذها .

الفصل العاشر

بريطانيا والانتداب

عرفت بريطانيا كيف تستغل القوي الموجودة في العالم العربي وفي فترة الحرب العالمية الأولى أحسن استغلال . وأفادت من الفرقة الموجودة في الإقليم لكي تعمل على ضرب كل وحدة بالوحدة الأخرى ، وتسخيرها لخدمة مصالحها الامبراطورية . وتعاونت بريطانيا مع القيادة العربية في الحجاز ، وتمكنت عن طريقها من تغيير التوازن في البلاد العربية . ولكن بريطانيا أخفت عن أعوانها اتفاقاتها مع الدول الأوربية الأخرى ، ووعودها لليهود، وكان هذا تقاعلا لم يظهر إلا فيما بعد الحرب وفي وقت فرض نظام الانتداب على فلسطين :

(١) التعاون :-

لقد واصل الشريف حسين سياسة كسب الوقت لكي يتم استعداده للحرب ولكنه استند إلى تدمير السوريين من الحكم التركي لكي يعلن الثورة . وبعد استيلاء قواته على الحجاز ، سارت شمالا بقيادة ابنه فيصل ضوب فلسطين . وكانت ثقة الشريف حسين في حلفائه ثقة عمياء ، رغم أنهم كانوا قد ردوا على اعلانه نفسه ملكا على البلاد العربية ، بالاعتراف به ملكا على الحجاز فقط . وكان من واجبه أن يفتح أعينه للمناطق الجديدة التي سينتقل إليها ميدان العمليات ، خاصة وأن حلفاءه لا يعترفون بدخولها في نطاق دولته .

ويعتبر استيلاء قوات الشريف حسين على العقبة بداية دخولهم الحرب ،

وتعاونهم مع الحلفاء . واعتمد العرب في هجومهم على هذه المدينة على المفاجئة، ورغم نقص تموينهم وانها كهم الجسدي فقد تمكنوا من الانتصار على الكتية التركية العسكرية هناك والتي أصبحت قوتها موزعة بين القتلى والجرحى والأسرى . وانتقل مسرح الحوادث إذا من الحجاز الى الشام، وأصبح جيش فيصل يكون ميمنة القوات البريطانية التي تقدمت من مصر لاحتلال فلسطين ثم كان عليه أن يشغل القوات العثمانية في الشمال حتى يسهل تقدم قوات اللورد اللنبى من الجنوب . وكان على فيصل أن يعمل بطبيعة الحال في توافق مع خطط هذا الجنرال البريطانى .

و كانت القوات البريطانية في مصر قد قابلت صعوبات كبيرة في العام السابق حينما حاول السير « أرشيبالد موري » التقدم وراء الأتراك في سينا ثم تمكنت في أوائل سنة ١٩١٧ من الوصول إلى حدود فلسطين ولكنها فشلت في الهجوم الذى شنته في شهرى مارس وأبريل على غزة . فسحبت بريطانيا هذا القائد وعينت « اللنبى » مكانه . ووصل هذا القائد الجديد إلى القاهرة في أواخر شهر يونيو وما أن استلم قيادته حتى بلغته أنباء استيلاء العرب على العقبة . فاستغل « اللنبى » هذا الانتصار العربى لتأمين ميمنته . وتحولت العقبة إلى قاعدة للحلفاء ، وخاصة بعد أن أنشأ البريطانيون المطارات إلى جوارها ، ونصبوا فيها أجهزة اللاسلكى ، وأقاموا على الساحل مقالات لتفريغ المهات والتموين من السفن . وأصبحت القوات العربية في العقبة هي تلك القوات التى أتم الخبراء الأجانب تدريبها في منطقة « الوجه » ، وأضاف البريطانيون إليها بعض قوات من البدو كانوا قد جندوها من سيناء وجنوبى فلسطين لكى تصبح نواة الفيلق العربى فيما بعد . ولم يتباطئوا فى ارسال الضباط والخبراء لقيادة تشكيلات المصفحات والطيران ووحدات المهجانة

التي كانت قد أثبتت جدارتها في السودان وعلى الحدود المصرية .

وأصبحت المسافة بين فيصل وخطوط البريطانيين في فلسطين لا تزيد على مائة وخمسين ميلا ، واتصلت قيادته بقيادتهم بالطيران واللاسلكي . وكان عليه أن يشغل القوة العثمانية الموجودة أمامه في معان حتى يوفر على البريطانيين عناء نزالها أو حتى تعب لقاءها . وظهرت قواته وكأنها احتياطي للقوات البريطانية التي تهدف فلسطين .

وقامت السلطات البريطانية في مصر بحملة دعائية قوية ، واتصلت بشيوخ العرب ورؤساء العشائر في جنوب فلسطين ، ودعتهن إلى عدم التعاون مع الأتراك وانتظار مجيء الحلفاء ، وأخذت الطائرات البريطانية فيلقاء المنشورات على معسكرات العثمانيين داعية الجنود والضباط العرب فيها إلى الهرب والانضمام إلى قوات الشريف . وواصل فيصل هذه السياسة ودعا رؤساء العشائر في سوريا إلى عدم التعاون مع العثمانيين . وقد أعطت هذه السياسة نتائجها . فنجد أن فرسان العرب الذين يحاربون مع الأتراك في «يرسبع» يتعدون عن أرض المعركة ثم يعودون إلى الظهور في ميمنة القوات البريطانية أمام غزة مما اضطر الأتراك إلى الانسحاب في أكثر من موقعة . وواصل الجنود العرب فرارهم طوال فترة تقدم النبي صوب القدس ، وانضم بعضهم إلى البريطانيين وانضم الآخرون إلى معسكرات فيصل في العقبة . فأصبح العثمانيون وكأنهم يحاربون في أرض غريبة معادية في أثناء محاولتهم صد التقدم البريطاني في فلسطين . أما البريطانيون فقد اعترفوا بأن حملتهم كانت تسير بين شعوب موالية .

وتمكنك قوات النبي من الاستيلاء على غزة والخليل ويافا وبيت لحم في

يوم ٩ من ديسمبر سنة ١٩١٧ ، وعند نهاية هذا العام كانت كل فلسطين قد خضعت للاحتلال البريطاني .

و كانت بريطانيا قد اعتمدت على موارد مصر البشرية والاقتصادية في مواصلة عملياتها في فلسطين ، وجندت لذلك فيلق العمال واستولت على الأغذية بمحطاتها من الأسواق ومن الملاك . وكان انشاء خط السكة الحديدية أكبر مساعد لها على القيام بعملياتها وهي مستندة إلى قواعدها العسكرية الاستعمارية في مصر .

و كان ترجيب الأهالي بمجيء الإنجليز إلى فلسطين عاملاً آخر يساعدهم على التوغل . ولقد تطوع بعض الأعراب بتزويد البريطانيين بالمعلومات عن أماكن القوات العثمانية وقوتها وتحركاتها . وأنشأت القيادة البريطانية إدارة للتطوع في قوات الأمير فيصل العربية من بين أهالي فلسطين ، ولعب الحاج أمين الحسيني دوراً كبيراً في تجميع هذه القوة العربية الجديدة وتنظيمها .

وواصلت قوات فيصل محاصرتها لمعان ، وأحكمت حصارها خوفاً من وصول امدادات جديدة لها . كما قامت قوات أخيه بإحكام الحصار حول المدينة التي كانت الحامية العثمانية لا تزال تدافع عنها . ولقد فشلت الحاميات العثمانية في كل من هاتين المدينتين في الخروج منها ومجابهة البريطانيين .

وعمد فيصل إلى مهاجمة خط السكة الحديدية بين عمان ومعار ، وإلى الجنوب من معان كما عمد إلى تحطيم الاستحكامات المنشأة حول هذه المدينة . وبهذا تكون القوات العربية قد شغلت نصف القوات العثمانية الموجودة في الأقاليم العربية ، وحثت ميمنة البريطانيين من أي هجوم عليها ، وسدت الطريق أمام القوات العثمانية ومنعتها من القيام بأي حركة التفاف أو هجوم على

البريطانيين من الخلف ، وقطع خطوط رجعتهم إلى مصر . وأما الأتراك فقد رأوا قواتهم منقسمة واضطروا إلى بذل نصف مجهودهم في الحرب ضد العرب بدلا من الاحتفاظ بكل قوتهم لمواجهة البريطانيين .

وانتظر النبي مجيء إمدادات من الهند ومن جنوب العراق، وأخذ يستعد للهجوم . وبلغت قواته ضعف القوات العثمانية أمامه ، واستند إلى القوات العربية للقيام بعمليات مشتركة . فعمل على قطع مواصلة سكة حديد الحجاز الداهية لحيفا ، وعلى إجبار القيادة العثمانية على إرسال قوات لإصلاحها بشكل يفسح الطريق أمام قواته نحو الشمال . وكان على العرب أن يتموا عملية قطع هذه المواصلة والوقوف أمام أى هجوم يقوم به العثمانيون في هذه النقطة . ونفذ فيصل الجزء الذى عهد البريطانيون اليه تنفيذه من الخطة . وجاءت قوات عثمانية كبيرة لإصلاح مواصلة السكة الحديدية ، وأصبح المجال خاليا أمام البريطانيين في هجومهم صوب الشمال . ثم استخدم النبي الخديعة فأوهم الأتراك بأنه سيهجم في وسط الجبهة ولكنه ركز هجومه على السهل الساحلى ، وتمكن من التغلب على مقاومة الأتراك في هذا القطاع . واستمر في تقدمه شمالا في الوقت الذي عجز فيه الأتراك عن التحرك نتيجة لوجود القوات العربية في جناحهم المضاد . وأخيرا فان عرب فلسطين قد أعلنوا الثورة ضد العثمانيين .

اضطر الأتراك إلى سحب قواتهم من عمان ومن معان . ودخلت قوات فيصل معان في ٢٣ من سبتمبر سنة ١٩١٨ ، كما دخلت القوات البريطانية عمان في يوم ٢٥ منة ، وانسحبت القوات العثمانية متقهقرة سيرا على الأقدام بعد نسف السكة الحديدية . وحاولوا الاحتفاظ بسوريا ولكنهم اضطروا

الى تركها كذلك وقبلوا الهدنة فى نهاية أكتوبر من العام نفسه .

فرح العرب لخروج العثمانيين من الشام ، وأمنوا للانجليز وتعاونوا معهم ولكنهم لم يعرفوا معنى وجود القوات البريطانية معهم وخاصة فى فلسطين وستظهر الأيام خبث نية من أعطوا أنفسهم اسم الحلفاء ، وهم الأعداء .
(٢) النفاق : -

ظهر نفاق حلفاء العرب بشكل عام ، ونفاق بريطانيا من بينهم بشكل خاص فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، وفى الوقت الذى أخلص فيه العرب لتعهداتهم وواصلوا مجهوداتهم لتحرير بلادهم من حكم الأتراك . ووضح هذا النفاق من تضارب العهود التى قطعتها بريطانيا على نفسها تجاه العرب من ناحية أخرى . ثم تجاه حلفائها الغربيين من ناحية أخرى . وتحدد هذا النفاق فى الاتفاقية المعروفة باسم « سايكس - بيكو » ثم فى تصريح بلفور .

أما اتفاقه « سايكس - بيكو » فقد عقدها الحلفاء فيما بينهم فى أوائل عام ١٩١٦ ، وبعد اتمام محادثاتهم مع الشريف حسين . وجاءت هذه الاتفاقية نتيجة لمصالح الدول الأوربية الاستعمارية فى الشرق الأدنى واتفاقهم فيما بينهم على تقسيمه الى مناطق تفوذ تابعة لكل منهم ، ووضعوا بذلك نهاية واضحة لسياستهم السابقة القائمة على مبدأ سلامة أراضي الدولة العثمانية . وكانت روسيا ترغب فى الحصول على المضائق ، وفى التوسع فى منطقة ، القوقاز وأما فرنسا فكانت تسعى الى الاستيلاء على سوريا بأكملها ، وأما انجلترا فأنها كانت ترغب فى الاستيلاء على منطقة العراق والبادية مع الاحتفاظ بمخارجها على البحر المتوسط عند حيفا وعكا . وأما إيطاليا فأنها كانت تمنى نفسها بالحصول على أية منطقة من تركيا حتى ولو كانت فى الأناضول نفسها

... فبدأت المفاوضات والمحادثات بين هذه الدول وانتهت بسلسلة من الاتفاقات التي تضاربت مع تعهدات بريطانيا للعرب بشأن كل من الوحدة العربية وبشأن فلسطين .

ويهمنا هنا أن نذكر أن هذه الدول الاستعمارية قد وافقت على أن يبقى الجزء الجنوبي من الشام ، وهو فلسطين ، في منطقة النفوذ البريطاني التي تمتد من سواحل البحر المتوسط حتى العراق والخليج العربي ، كما أنها اتفقت على الاحتفاظ بالقدس كمنطقة دولية ، نظراً لوجود الأماكن المقدسة فيها... ومنعاً لقيام تنافس فرنسي - روسي على حمايتها ، أو بمعنى أدق اتفقت على استغلالها كمرکز رعاية دينية في الشرق العربي للحصول على امتيازات سياسية وإقتصادية .

وكانت فرنسا قد أصرت على فرض نفوذها على الشام كلها بما فيها القدس ، فعارضت بريطانيا هذا المشروع ، إذ أنها كانت تسعى إلى الاحتفاظ بحيفا وعكا كمخرج لمنطقتها على البحر المتوسط ، وكانت تخشى من اقتراب النفوذ الفرنسي كثيراً من قناة السويس ، كما كانت تشعر بضرورة السيطرة على طريق بري للشرق الأقصى في نفس الوقت الذي تسيطر فيه على قناة السويس . واهتمت إنجلترا بمشروع نقل المهمات من حيفا إلى خليج العقبة في حالة تعطيل الملاحة في القناة ، وبمشروع آخر للنقل البري من البحر المتوسط إلى الخليج العربي في حالة تهديد الملاحة في البحر الأحمر . ولذلك فإن بريطانيا قد أصرت على إنشاء وضع خاص لفلسطين . فوافقت فرنسا على إنشاء هذا الوضع الخاص في مناطق القدس ونابلس والخليج وطالبت

بضم بقية فلسطين الى منطقة نفوذها ، وبقيت المسألة معلقة إلى أن انضمت
الروسيا إلى المحادثات وطالبت بفرض حمايتها على الأماكن المقدسة. فاضطرت
فرنسا إلى قبول الفكرة البريطانية الخاصة بإنشاء إدارة دولية في فلسطين .
وزاد من تفاق الحلفاء أنهم لم يبلغوا نص هذه الاتفاقية للحسين أو لرجال
العرب . وظل محتفظا بثقة عمياء فيهم ، حتى بعد أن فاتهم في مايو سنة ١٩١٧
في شأن إقامة إدارة فرنسية في الجزء الغربي والشمالي من الشام .

ويذكر التاريخ أن الأتراك قد أبلغوا الحسين في ديسمبر سنة ١٩١٧
أمر هذه الاتفاقية التي تهدف الى تقسيم البلاد العربية ، وعرضوا عليه الصلح
والحصول على الاستقلال تحت سيادة السلطان ، وأرسلوا اليه نص هذه
الوثائق بعد أن قامت الثورة الشيوعية بنشرها . ولكن حسينا رفض تعديل
موقفه وسحب ثقته من حلفائه المنافقين المغرضين رغم أن هؤلاء الحلفاء لم
يؤيدوا ولم ينفوا قيامهم بعقد هذه الاتفاقيات . وكانت الفرصة سانحة ،
واحتاج الحلفاء الى مجهودات العرب لاجراء الأتراك من الشام . ولكن
الحكمة السياسية أعوزت القائمين على رأس الحركة ، وأفلتت الفرصة وتمكنت
الدول الاستعمارية من المنطقة .

وأما النقطة الثانية التي تثبت تفاق البريطانيين تجاه العرب فهو تصريح
بلفور الذي عملوا به على شراء اليهود تمهيدا لاستخدامهم في ضرب العرب .
وكان الثمن هو فلسطين .

وكانت الحركة الصهيونية التي قامت منذ أواخر القرن التاسع عشر
تعمل على اغراء تركيا منذ بضع سنوات قبل الحرب العالمية الأولى على السماح

يهجرة اليهود الى فلسطين ، ولكن السلطان عبد الحميد عارض هذه السياسة . فلما تولت جمعية الاتحاد والترقي الحكم وضح فيها النفوذ اليهودي ، ولكنها اضطرت الى الاحتراس بعد أن أقدم النواب العرب على فضح نوايا الصهيونيين للاستيلاء على أراضى العرب وتشريد أبناء فلسطين . فلما نشبت الحرب انتقل مركز نشاط الصهيونية الى برلين ، ولكنهم حاولوا خطب ود دول الوفاق في نفس الوقت حتى يضمنوا أى كفة تكسب الحرب .

ولقد لقي الصهيونيون الانجليز صعوبات أمامهم في انجلترا نفسها ، خاصة وأن عدداً كبيراً من اليهود الانجليز لم يكن واثقاً من امكانية تحقيق هذه الفكرة الصهيونية . ولكنهم توصلوا الى تأييد بعض رجال الصحافة ، ثم بعض رجال السياسة نتيجة لنشاط حاييم وايزمان ، وهربرت صامويل . وبدأت المفاوضات الرسمية بين الحكومة البريطانية واليهود بعد تأليف وزارة لويد جورج التي تولى بلفور فيها منصب وزير الخارجية .

ولم يكن من حق انجلترا تقرير مصير فلسطين ، خاصة وأنها كانت قد تعهدت بالاعتراف باستقلال الدولة العربية التي تدخل فلسطين في نطاقها منذ سنة ١٩١٥ وبتأييد هذا الاستقلال ، كما أن اتفاقية سايكس - بيكو كانت قد رسمت أمر انشاء ادارة دولية في فلسطين من ناحية أخرى ، وكان من حق هذه الدول التي وقعت على اتفاقية سايكس - بيكو ، مثلها في ذلك مثل الملك حسين - أن يناقشوا هذا الأمر قبل ابرامه . وأخيراً فقد كان للعرب في هذا الاقليم أن يقولوا كلمتهم مادام العالم قد اعترف بحق الشعوب في تقرير مصيرها .

ولقد عهد لويد جورج الى سايكس بمهمة مفاوضة الصهيونيين . وربما

كان ذلك لاغراء الصهيونيين على الضغط على أمريكا وادخالها الحرب إلى جانب دول الوفاق ، أو لاغرائهم على تمويل ديون الحرب البريطانية ، أو لمكافحة الدكتور وايزمان على اختراع نوع جديد من المفرقات . ولقد شعرت بريطانيا بنشاط الصهيونيين في ألمانيا والنمسا وخشيت من نجاحهم في الوصول إلى وعد من تركيا بارضاء بعض رغباتهم في فلسطين ، وأرادت في نفس الوقت أن تكسب ود يهود روسيا وكانوا قد قاموا بدور معروف في الثورة الشيوعية ، فأرادت اغراءهم على مواصلة الحرب إلى جانبها . أما من الناحية الاستراتيجية فإن فلسطين كانت ضرورية للدفاع عن مراكز القوات البريطانية في مصر ، وعن الطريق البري الموصل إلى الشرق . وكانت هذه الأسباب الاقتصادية والاستراتيجية والسياسية التي ارتكز إليها تصريح بور رنم كل الألوان الدينية والانسانية الدليلة التي حاولوا طلاء بها : ذلك أهمية فلسطين بالنسبة للامبراطورية البريطانية قد زادت في فترة الحرب وظهرت بشكل واضح . لم يكن هناك فاصل بين فلسطين ومصر سوى صحراء سيناء ، ولقد أثبتت التجربة أن الصحراوات قد فقدت قيمتها كحدود عازلة وخاصة بعد أن حاول الأتراك غزو مصر وبعد أن عبر الانجليز صحراء سينا وتقدموا شمالا في فلسطين . أصبحت قناة السويس إذن أقل أمنا في ذلك الوقت عما كانت عليه في الماضي ، ولما كانت الأطماع الفرنسية واضحة في الشام ، بما في ذلك فلسطين ، فقد كان من الطبيعي أن تعتمد إنجلترا إلى فصل المنطقة الفرنسية عن قناة السويس بإنشاء وحدة سياسية أشد قوة من المنطقة الدولية التي أشارت إليها اتفاقية سايبكس - بيكو . لم يكن هذه الوحدة تحت النفوذ البريطاني . ولم يكن وعد بلفور إلا تمهيدا لوضع فلسطين تحت إدارتها حتى تعمل على تنفيذ هذا الوعد .

عملت بريطانيا إذن على الحصول على تأييد الصهيونيين لوضع فلسطين تحت إدارتها واستثناء فرنسا من هذه الإدارة . فوافق الصهيونيون على هذه البداية وأعلنوا معارضتهم لتدويل فلسطين أو لوضعها تحت إدارة « إنجليزية - فرنسية » مشتركة ، وذلك في اجتماعهم في شهر فبراير سنة ١٩١٧ . ثم أعلنوا أنهم سيعلمون على وضع فلسطين تحت الحماية البريطانية ما دامت هذه الدولة تؤيدهم في إرضاء « أمانهم القومية » . وكان هذا هو الأساس الأول الذي قام عليه ونتج عنه تصريح بلفور بعد عدة شهور ، وفي وسط حالة من الإدعاءات الكاذبة التي تشدقت باسم الإنسانية وتحدثت عن اليهود المشردين .

ولقد وافقت الحكومة الفرنسية على فكرة إصدار هذا التصريح بعد تردد أما أمريكا فأنها خضعت لنفوذ اليهود فيها ، ولم تحاول أن تجادل في الأمر ما دامت لا تدفع أي ثمن . ولقد حاول اليهود أن يحصلوا على وعد من إنجلترا يحدد أن فلسطين هي وطنهم ، فعارضت حكومة لندن في هذه الصيغة القاطعة ولكنها صرحت بأنها ترحب بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . وقبل اليهود هذا النص بعد أن تأكدوا من أنه أقصى ما يمكن الحصول عليه في هذه المرحلة .

صدر تصريح بلفور في يوم ٢ من نوفمبر سنة ١٩١٧ ، أي بعد عامين من الوعد الذي قطعت بريطانيا على نفسها للعرب ، وكانت الثورة العربية قد بذلت كل جهدها في سبيل هزيمة الدولة العثمانية ونصرة الحلفاء البريطانيين . وجاء هذا التصريح جديدا على تقاق الأنجليز وعلى قيمة الوعود التي يعطونها والأمانة التي يطبقونها بها .

وعلى أي حال فإن وصول أخبار هذا التصريح أهاجت الرأي العام العربي ، فأسرعت بريطانيا بارسال المستشرق هوجارت لكى يؤكد لحسين شفهاً أن حكومة لندن لن تسمح بإقامة اليهود فى فلسطين إلا فى الحدود التى لا تتعارض مع الحرية السياسية والاقتصادية لغير اليهود . وكانت بريطانيا تحاول فى ذلك الوقت استغلال العرب فى تحرير الشام حتى تضعهم أمام الأمر الواقع . ولقد اكتفى الحسين بهذه التصريحات ما دامت تهدف الحصول على ملجأ لليهود المشردين ، وقبل انشاء نظام خاص للأماكن المقدسة ولكنه أصر على موقفه فى مسألة السيادة العربية وكل مظاهرها .

وحدث الملك حسين زعماء العرب على مواصلة الحرب إلى جانب بريطانيا ، مؤكداً أن تصريح بلفور لن يمس الحقوق السياسية والاقتصادية للعرب . وذكر لعرب فلسطين أن كتبهم المقدسة تفرض عليهم الكرم والتسامح ، وحثهم على الترحيب باليهود والتعاون معهم فى الوصول إلى الخير العام .

وكان هذا هو موقف قيادة العرب من أعوان بريطانيا . وظهر هذا واضحاً فى النشاط الذى قام به فارس نمر ، أحد أصحاب جريدة المقطم فى ذلك الوقت ، من الترحيب بالبعثة الصهيونية التى زارت مصر فى شهر مارس سنة ١٩١٨ قبل ذهابها إلى فلسطين .

ولكن هذا الموقف من جانب بعض الشخصيات العربية لا يعنى بريطانيا من مسؤولياتها الكاملة فى المسألة ، خاصة وأنها أعلنت فى تصريحها الرسمى فى ١٦ من يونيو سنة ١٩١٨ بأن سياستها تجاه الأقاليم العربية التى عملت قوات الاحتلال على تحريرها من تركيا - وهى التى تشمل على العراق من الخليج العربى حتى الشمال من بغداد ، وفلسطين من الحدود المصرية إلى الشمال من

القدس ويافا ستكون « اقامة حكومات يرضى عنها هؤلاء الأهلالي » ، رغم أنها أكدت أن هذه السياسة يجب أن تكون سياسة الحكومة البريطانية . كما أكد البلاغ الانجليزي - الفرنسي المشترك الصادر في ٧ من نوفمبر من السنة نفسها أن سياسة هاتين الدولتين وأهدافها في الحرب في الشرق الأدنى هي التحرير الكامل للشعوب التي ترسخ تحت الظلم التركي ، « ومساعدة الأهلالي على اقامة حكومات وطنيه تعبر عن رغباتهم » ، ووعده بمساعدتها والاعتراف بها بمجرد تكوينها .

(٣) الانتداب . -

إنتهت الحرب وانتقل مسرح الحوادث من الشرق الأدنى إلى أوروبا ، إذ أصبح لمؤتمرات الصلح أن تقرر المسائل بعد أن كانت من إختصاص العسكريين ونلاحظ في هذه الفترة تجمع قيادة الحركة العربية وزعامتها في كل من دمشق وبغداد بشكل خاص . وأدى تطور الحوادث إلى ظهور انفصال وإنشقاق بين قيادة الأشراف الهاشميين ، وبين القاعدة الشعبية التي قادوها حتى تلك المرحلة - وكان ذلك نتيجة لاختلاف المصالح بين القيادة وبين الثورة نفسها .

وضع العرب سلاحهم جانبا بعد أن طردوا الأتراك وأخذوا في مفاوضة « الحلفاء » الذين ساعدوهم في معركتهم دون أن تكون نيتهم خالصة أو مخلصه ترك فيصل سيفه جانبا وسافر لحضور مؤتمر الصلح في باريس ، ونادي بمبادئ الوحدة والاستقلال العربي ، وكان عليه أن يواصل المعركة لبناء هذه المبادئ بالحديد والنار . ووجد صعوبات من جانب الحكومة الفرنسية التي وضحت أطماعها في سوريا . فزاد ميله إلى جانب بريطانيا . وكان

هذا خطأ واضحاً ، لا يختلف عن الاختيار بين لص وآخر . وشعرت فرنسا بأن بريطانيا لا ترغب في تطبيق اتفاقية « سايكس - بيكو » فوافق كليمنصو في ١٥ فبراير سنة ١٩١٩ على ترك كل العراق بما فيه الموصل لبريطانيا - وكذلك فلسطين ، نظير ترك سوريا للتوسع الفرنسي .

واستغلت بريطانيا ميل فيصل لها فضغطت عليه من طريق لورنس لكي يوافق على الترتيبات الخاصة بفلسطين وإدخال اليهود فيها ، رغم موقف العرب الصريح في مسألتى الوحدة والاستقلال . وأراد أن يظهر ولاءه لبريطانيا معتقداً بضرورة صداقتها ولزومها له أمام الاطماع الفرنسية ، فاستمع إلى تكيدات حاييم وايزمان بأن الصهيونية لا تسعى إلى إقامة حكومة في فلسطين ، وأنها لا تسعى إلا للعمل على تنمية الموارد الاقتصادية للأقليم دون أن يؤثر ذلك على مصالح العرب المشروعة . ووقع فيصل على الاتفاقية مع وايزمان رغم أنه شرطها بضرورة تنفيذ بريطانيا لتعهداتها باستقلال العرب . وكان هذا تعريظاً منه في حق العرب وتصرفاً منه في ما لا يملك . واستند الصهيونيون إلى هذه الاتفاقية فيما بعد لكي يذكروا أن فيصل قد وافق على هجرتهم إلى أرض الميعاد . واحتج فيصل بأنه قد جعلها مشروطة بتنفيذ الأمانى القومية للعرب . ولكن الشرط كان على انجلترا تنفيذه ، وأصبح على العرب قبول اليهود المشردين :

والملاحظ هنا أن فيصل قد مثل العرب في مؤتمر فرساي وتحدث باسمهم ونري أن هذا المجاهد العربي قد حاول لعب دور الدبلوماسي وذكر أن العرب مطالبون في تحقيقها . لقد اعتقد فيصل في هذه المرحلة في مبادئ الحرية وتقرير المصير واعتقد أن العرب سيطبقها على البلاد العربية .

واستند فيصل إلى مبادئ الرئيس ويلسون ، وطلب التحقق من رغبات العرب ولكن كلا من فرنسا والصهيونيين قد عارض مشروع ارسال لجنة للتحقيق ولم تؤد مجهودات فيصل إلى نتيجة ايجابية سوى ابتعاده عن الوسائل العسكرية والثورية التي سار عليها حتى الآن من ناحية ، وزيادة تقربه من بريطانيا من ناحية أخرى .

واجتمع رجال العرب في دمشق وقرروا مواصلة الكفاح من أجل استقلالهم ووحدتهم . وعملوا على الاحتفاظ بفيصل ، ولكن على أساس أن يكون ملكا دستوريا وعلى كل سوريا بما فيها لبنان وفلسطين . وكان هذا يعني أن شخصية القيادة الثورية الشعبية قد بدأت في النمو وفي حالة تحديد سلطات فيصل ، وسلطاتها . كما كان يعني أنهم صمموا على الاحتفاظ بفلسطين جزءا لا يتجزأ من سوريا . ورفضوا ادخال اليهود المشردين فيها والاعتراف بأي قيمة لتصريح بلفور .

ولكن مؤتمر الصلح المنعقد في فرساي تعامى عن مطالب العرب الشرعية، وأخذ يستعد لتقسيم الأسلاب على الدول الاستعمارية وعلى أعوان الاستعمار . فعمدت بريطانيا إلى سحب قواتها من منطقة لبنان وطلبت من فرنسا احتلال هذا الاقليم ذا كرة لها أن بقية سوريا ستظل في أيدي القوات العربية، وأن فلسطين ستبقى خاضعة للاحتلال البريطاني طبقا لاتفاقية سايكس - بيكو . واحتفظت بريطانيا لنفسها بحق انشاء خط للسكة الحديدية وخط آخر لأنابيب البترول من العراق حتى حيفا . ثم استدعت فيصل إلى أوروبا للتفاهم معه في الأمر . ولم تجد احتجاجات فيصل شيئا ، ولم يكن من السهل عليه فهم السياسة البريطانية وهو لا يجيد اللغة الانجليزية ويصعب عليه المناقشة

والتفاهم بها . وكان من الأجدى له أن يواصل بقاءه في الميدان العسكرى مادام لا يجيد السياسة ، ولكنه سافر إلى باريس وعقد اتفاقية جديدة مع كليمنصو اعترف فيها بحق فرنسا في احتلال الساحل السوري حتى الاسكندرونة شمالا ، وتعهد بأن يطلب العرب من فرنسا تقديم المعونات الفنية والمادية اللازمة لهم . ولا جدال في الأمر أن فيصل قد قبل - وأن ضمنا ومؤقتا - قيام منطقة نفوذ فرنسي ومنطقة تحت الاحتلال البريطانى (فلسطين) في الوقت الذي احتفظ لنفسه ببقية سوريا . وكان هذا الأمر يتعارض تمام المعارضة مع مبادئ الثورة العربية التي نادى عاليا بالوحدة والاستقلال .

ولكن الحوادث عملت على القاء قوي الشعب العربى في الميدان لمحاولة الاحتفاظ بحقوقه المشروعة . فرفضوا المساومة والمفاوضة واجتمع المؤتمر الوطنى وأعلن استقلال سوريا بما فيها لبنان وفلسطين ، وعينوا فيصلا ملكا دستوريا عليها . واجتمع رجال العراق في مؤتمر مشابه ، وقرروا نفس القرار بالنسبة لبلادهم على أن يتولى الأمير عبد الله الملكية الدستورية في بغداد .

ورتب الاستعماريون صفوفهم وجمعوا مؤتمرا في سان ريمو ، واتخذ قراراته في ٢٥ من أبريل سنة ١٩٢٠ ، وقسم بها البلاد العربية بين فرنسا وبريطانيا . فأخذت الأولى سوريا ولبنان تحت انتدابها ، بينما حصلت الثانية على انتداب على العراق وانتداب آخر على فلسطين . وأضافوا اليه حاشية تذكر أن الانتداب البريطانى على فلسطين سينفذ مع تطبيق تصريح بلفور ، وتناسوا أن هذه القرارات تتعارض مع مصالح الشعب العربى وحقه في تقرير المصير .

وثارت نفوس العرب وساء لهم شعور باحتقار الغرب الاستعماري ، وخاصة بعد أن قررت فرنسا احتلال سوريا . فأخذ الشعب في تنظيم صفوفه ، وقرر الدفاع عن حريته واستقلاله . وكانت موقعة ميسلون ، وكانت ثورة العراق .

وكانت الخسائر التي تكبدتها بريطانيا في العراق تدفعها إلى وضع أسس جديدة لاستعمارها في البلاد العربية . فصمم ونستون تشرشل على عقد مؤتمر في القاهرة ، واتصل البريطانيون بفصيل للحصول على موافقته على اعتلاء عرش العراق على أن يعقد معاهدة تحالف مع بريطانيا . ووافق فيصل على هذه الخطة ، ورأت الأيام التالية قيام حكومة عربية في بغداد تخدم بريطانيا وتقلل عليها نفقات الاحتلال ، وتعمل على تهدئة العرب بدلا من تركهم يتصادمون مع قوات الاستعمار . وإني هذه الحكومة هي التي ستضع بريطانيا في عهدها أمر استغلال بترول العراق وإرساله في خط الأنابيب إلى حيفا ، في فلسطين .

وبعد اجتماع كل من المندوب السامي البريطاني في العراق وزميله في فلسطين بنستون تشرشل في القاهرة في ١٢ من مارس سنة ١٩٢١ ، ذهب هذا الأخير إلى القدس في يوم ٢٤ مارس وكان عليه أن يجدحلا سياسيا لكل من فلسطين والمنطقة الصحراوية التي تفصلها عن العراق .

كان في استطاعة بريطانيا أن تحتفظ بفلسطين ما دامت الهجرة اليهودية مستمرة إليها ، ولكن تشرشل خشى من الموقف في شرق الأردن ، خاصة وأن عبد الله كان قد جمع قوة في معان منذ شهر نوفمبر سنة ١٩٢٠ وأعلن عزمه على غزو سوريا والانتقام لطرده أخيه من دمشق . فخشى البريطانيون من

هذه القوة على مراكزهم في فلسطين . فدعا تشرشل عبد الله إلى التباحث معه في الأمر في القدس ، وشارك لورنس في هذه المفاوضات . ولكنه رفض مشروع عبد الله باقامة حكومة عربية واحدة في كل من فلسطين وشرق الأردن ، بدعوى أنها تتعارض مع وعد بريطانيا لليهود . وقبل عبد الله هذا المنطق وحصل من إنجلترا على تصريح بتجنيد قوة من العرب والدفاع عن شرق الأردن وفلسطين ضد أى هجمات قد تأتى من الصحراء ، وعلى وعد باعطائه مساعدة مالية للقيام بهذا العمل . أى أن بريطانيا قد اشترته للدفاع عن الحدود ، بدلا من تركه خطراً يهدد بقاءها في فلسطين . وانضمت شرق الأردن الى منطقة الانتداب البريطانى وأما فلسطين فان بريطانيا قد احتفظت بها تحت نظام الإدارة المباشرة ، تمهيداً لتثبيت أقدام الصهيونيين فيها .

وأخذت بريطانيا في ضرب كل من أعوانها بالآخر حتى يستقيم لها الأمر وتعهدت الصهيونية في فلسطين حتى تخلق قوة جديدة تعمل على المحافظة على التوازن مع العرب لصالح الأجنى ، وتقسم بين البلاد العربية وتزيد النفوذ البريطانى في المنطقة التى تمر منها قناة السويس ويعمل اليها البترول .

الفصل الحادى عشر

العرب والوطن القومى لليهود

ظهر واضحا منذ أوائل دخول البريطانيين فى فلسطين أنهم قد عقدوا العزم على انشاء وطن قومى يهودى فى فلسطين . وهى السياسة التى سماها العرب بسياسة « التهويد » .

وظهر ذلك واضحا قبل صدور وثيقة الانتداب ومنذ الوقت الذى حضرت فيه اللجنة اليهودية الدولية لزيارة فلسطين . فتركها البريطانيون تتجول بكل حرية ، بل عملوا على اشراكها فى الحكم وإدارة البلاد ، رغم أن نسبة اليهود فى سكان فلسطين لم تبلغ إلا ٦ ٪ فى ذلك الوقت . وسمحوا لها فوق ذلك بتكوين قوة شبه عسكرية وتدريبها . كما تركوها تقيم نظاماً قضائياً مستقلاً لليهود . ووضح أمام الجميع أن البريطانيين قد صمموا على انشاء وحدة قومية جديدة لها ساطات دولة داخل الدولة فى ذلك الجزء من العالم العربى .

(١) سياسة التهويد :

لقد واصلت بريطانيا سياستها لانشاء الوطن القومى لليهود فى فلسطين عن طريق تعيين حكام من أنصار اليهود ، وعن طريق منح التسهيلات الاقتصادية لليهود ، وتيسير أمر هجرة الصهيونيين وإقامتهم . وتذرعت بريطانيا فى ذلك بأنها تنفذ وعدها لليهود ، ذلك الوعد الذى تقوه به بلفور

وأنها تطبق نص وثيقة الانتداب التي كلفت بريطانيا بالعمل على انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . وادعت بريطانيا أن تطبيق هذه السياسة لا يضر بالمصالح المدنية والاقتصادية لغير العرب .

يمكننا أن نقول اذن أن بريطانيا قد رسمت وتفذت سياستها التي قامت على التعاون التام مع الصهيونية ، وأنها راعت وعملت على محاباة اليهود ، ولكنها اتخذت موقفا صارما محددآ تجاه العرب ، ولم تتنازل عن أى قرار اتخذته في صالح اليهود أو ضد مصلحة العرب أى أن كلا من البريطانيين واليهود كونوا جبهة واحدة متحدة قوية وجابهوا بها سكان فلسطين .

أما عن العرب فإن موقفهم قد سهل على المستعمرين وأذئابهم تثبيت أقدامهم في هذا الإقليم الشقيق ، ولو بطريق غير مباشر .

حقيقة أن قيادة الحركة العربية عامة كانت تتركز في ذلك الوقت في دمشق والقاهرة وبغداد ، وأن فلسطين بقيت إلى درجة كبيرة دون قيادة ثورية . كما أن وجود قوات احتلال بأسلحتها وعتادها لم يكن مما يسهل على العرب منازلته في معركة منظمة أو حتى في حرب عصابات في ذلك الوقت . ولكننا لا نقدر على تجاهل الاتجاهات السياسية التي اتخذها الفلسطينيون في تلك المرحلة ، والتي دلت على سوء تقديرهم للموقف وعدم فهمهم لطبيعة الأعداء والأشياء .

ففي الوقت الذي يكون فيه الاستعمار وأذنا به اللقطاء جبهة واحدة مترابطة ضد العرب وحقوقهم المشروعة ، نجد أن العرب يعلنون عداؤهم لليهود فقط ، ويحاولون اتخاذ سياسة معتدلة قائمة على المفاوضات مع البريطانيين .

وفي الوقت الذي استخدم فيه كل من البريطانيين والصهيونيين قوة الاحتلال العسكري لاقتزاع فلسطين من أهلها الشرعيين ، نجد أن قادة الحركات الوطنية العرب يتخذون موقف الكفاح السلبي من ناحية ، أو الكفاح « المشروع » من ناحية أخرى . أي أنهم لا يتعاونون مع البريطانيين في تنفيذ سياستهم الاستعمارية . أو يقومون بدور المحامي الذي يفند أقوال الخصم بطريقة منطقية ، رغم أن الوضع لم يكن يحتاج إلى هذا الشرح المنطقي بل مجلبة القوى الاستعمارية بقوى ثورية ، ومواجهة الاستغلال والسيطرة الاقتصادية على أسس اقتصادية .

ولا يمكننا أن ندعى بأن الحركة العربية لم تكن قد بلغت في ذلك الوقت مرحلة النضوج السياسي الذي يسمح لها بالثورة ضد المحتل المستغل الأجنبي ذلك أن العرب كانوا قد أتموا ثورتهم ضد الأتراك للحصول على استقلالهم السياسي ، وبجد السيف . فما الذي منعهم الآن من مواصلة الكفاح الثوري وقد أصبح كل من كياناتهم السياسية وكياناتهم الاقتصادية بل والبشرى مهددا بالزوال ؟

إن السبب هو ضعف القيادة العربية من ناحية ، وميلها إلى الثقة في « الصداقة » و « العدالة » البريطانية من ناحية أخرى . وكانت هذه هي مخلفات الحركة العربية الموالية لبريطانيا في أثناء الحرب العالمية الأولى . ولم تصل القضية الفلسطينية إلى عمل إيجابي له قيمته إلا بعد اشتراك الطبقة الوسطى في القيادات الشعبية في الثلاثينات ، وازدادت القضية الفلسطينية قوة بعد استنادها إلى قواعد شعبية في الأربعينات .

ولقد اعترى العرب منذ أول الاحتلال البريطاني بقوميتهم العربية لا فرق

فى ذلك بين مسلم ومسيحى ، وقامت « الجمعيات الإسلامية المسيحية » تكافح من أجل عروبة فلسطين . رافضة التصريح بإنشاء الوطن القومى لليهود . فوقعت الحوادث فى شهر أبريل سنة ١٩٢٠ وراح ضحيتها عدد كبير من العرب ومن اليهود . وتدخلت القوات البريطانية بكل عنف . وظهر من التحقيق أن العرب يخشون ازدياد النفوذ الصهيونى ، واتساع سلطات اليهود ، ومحاربة البريطانيين لمن يدعون التشرّد . ولكن بريطانيا رأت أن العرب يصطدمون مع اليهود لا مع قواتها هى فازدادت قسوة فى معاملتها للعرب ، وزادت من حمايتها لليهود . وجاء تعيين السير هربرت صمويل ، مندوبا ساميا يؤكد أنه لا يهتم إلا بوضع فلسطين فى حالة سياسية واقتصادية وإدارية تسهل أمر إنشاء الوطن القومى لليهود . فاستخدم أعوانه من غلاة الصهيونية وأعطى امتياز توليد الكهرباء من الأردن لدوتنبرج لمدة سبعين سنة .

وقامت اضطرابات جديدة فى يافا بين العرب واليهود ، فوقف البريطانيون مرة أخرى إلى جانب اليهود . ولكى تتنصل بريطانيا من مسؤوليتها أمام الرأى العام الدولى والانسانى ، ولكى تكسب الوقت اللازم لتنفيذ سياستها وتظهر بمظهر المحايد ، أرسلت لجنة برئاسة السير توماس هايكرافت للتحقيق . ولقد اعترف تقرير هذه اللجنة بأن أسباب الاضطرابات هى شعور القلق والتذمر والكره لليهود ، والاستياء من محاربة الحكومة لهم ، وخوف العرب على مصيرهم ، وسخطهم من حرمانهم استقلالهم . كما أن حكومة فلسطين قد مكنت الجمعية الصهيونية من أن تكون حكومة داخل حكومة . ولكن بطبيعة الحال لم يؤد هذا التقرير إلى أى تغيير فى سياسة الحكومة البريطانية التى عملت على إهدار حقوق العرب فى صالح الصهيونيين .

كانت بريطانيا في تلك المرحلة هي الدولة المستعمرة وكان الصهيونيون أذنانها . ولكن العرب لم يهاجموا الرأس ، بل هاجموا الذنب ، رغم ضرورة قطع الرأس لإبطال كل قيمة للذنب .

وكان العرب في خلال العصور ، ومن يومهم ، من أكثر شعوب العالم تسامحا بل وحماية لليهود . ولكن بريطانيا نجحت في شغلهم بهذا الذنب ، بدلا من تركهم يهاجمونها ، في صراحة وقوة . وظهر وكأن العرب من أنصار « اللاسامية » وهم ساميون .

وشكل العرب وفدا فلسطينيا لشرح القضية في لندن والمطالبة بالحقوق العربية المشروعة ، وعرض عليها وزير المستعمرات البريطانية مشروعا أعده للدستور ، فطالبت بضرورة النص فيه على حقوق الشعب المدنية والسياسية والاقتصادية . ورأت بريطانيا أن العرب لا يزالون يرغبون في ترك الباب مفتوحا معها فاستغل ونستون تشرشل هذه الفرصة لكي يدعم بناء الوطن القومي اليهودي على حساب العرب ونشر كتابه الأبيض في أول يوليو سنة ١٩٢٢ بصر فيه على الزام بريطانيا بتحقيق الوعد الذي أعطاه بلفور وتنفيذ وثيقة الانتداب التي كلفت حكومة لندن بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين .

وأصدرت الحكومة البريطانية دستورا لفلسطين في ١٠ من أغسطس من نفس السنة ، شرحت فيه أمر قيام مجلس تشريعي يرأسه المندوب السامي ، وتكون أغليته لليهود والبريطانيين ، ونصت على أنه لا يجوز لهذا المجلس أن يناقش أي مسألة تتعلق بسياسة الحكومة الأساسية وبخاصة فيما يتعلق بتسهيل إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين .

فقرر العرب مقاطعة الانتخابات للمجلس التشريعي ، كما قرروا مواصلة

«المساعي المشروعة» لتحقيق الاستقلال والاتحاد العربي ، ورفضوا سياسة الوطن اليهودي والهجرة الصهيونية .

حقيقة أن العرب قد ساروا في سياسة الكفاح السلمي ، ورفضوا التعاون مع السلطات البريطانية في كل ما يتعلق بالانتداب أو التهويد . كما أن مندوبي العرب قد استقالوا من المجلس الاستشاري الذي عينهم البريطانيون فيه ، ورفضوا العرض البريطاني في أكتوبر سنة ١٩٢٣ بالسماح لهم بإنشاء وكالة عربية يكون لها فيما يختص بالشعب العربي نفس السطات الممنوحة للوكالة اليهودية ، بموجب وثيقة الانتداب ، فيما يخص اليهود . ولكن هذه «المساعي المشروعة» لم تكن كافية في ذلك الوقت للدفاع عن الحقوق الشرعية لأبناء فلسطين ، وفي وقت انتهكت فيه أرزاقه وأصبحت حياته مهددة .

لقد أضربت فلسطين كلها يوم جاء بلفور لإفتتاح الجامعة العربية التي أنشئت على أرض عربية في جبل الزيتون . واضطر بلفور إلى مغادرة البلاد بسرعة . ولكن العرب لم ينشئوا جامعة أخرى عربية ، في المسجد الأقصى مثلا ودلت هذه السلبية على تفاوت في النمو أو في القوة والوسائل ، بين القوي الموجودة في هذه المنطقة الحساسة من العالم . لقد تسارع رؤساء العرب في هذه الفترة إلى إرسال أبنائهم إلى الكليات الأجنبية ، أمريكية أو جزويتية ، وتباهى عدد منهم بإتقان الإنجليزية والفرنسية في الوقت الذي قام فيه اليهود البريطانيون والفرنسيون والألمان الروس والأمريكيون بدراسة اللغة العربية والعمل على خطوط ثابتة لتحقيق خطط موضوعة ومبروسة .

وتمازت بريطانيا في سياسة تهويد فلسطين ، فسهلت لليهود شراء أراضي العرب ، وزادت من سوء الحالة الاقتصادية التي يعانيها الأهالي . كما أنها

فتحت أبواب الهجرة وتعامت عن الهجرة غير المشروعة . ونشطت الحركة الصهيونية في انشاء المعسكرات اللازمة لإعداد الشبان اليهود قبل ارسالهم إلى فلسطين . وقامت حكومة الانتداب بحماية الوضع الاقتصادي لليهود بسن اللوائح والنظم التي تساعد على ازدهار تجارتهم وصناعاتهم .

ومنحت اليهود امتياز استخراج البوتاس من البحر الميت ، فأصبح لليهود في فلسطين احتكار القوة الكهربائية والصناعات الكيماوية في نفس الوقت .

وشعر العرب بخطورة الحالة وقاموا مرة جديدة للكفاح . ولكن خطوط كفاحهم كانت لا تنقضي أيضا هذه المرة بمستلزمات الحالة ، ولا تتفق مع طبيعة المعركة . ذلك أن كفاحهم أخذ شكلا دينيا اسلاميا ، وامتنع عن الصدام مع بريطانيا

ولا يمكننا أن نأخذ على الزعامة الدينية الإسلامية نزولها إلى المعركة ، ولكننا نأخذ على الحركة الوطنية ، في فلسطين إستارها وراء الدين حتى لا تصطدم بريطانيا .

قتل اليهود في عام ١٩٢٨ في الاحتفاظ بما رسموا أمر الاستيلاء عليه من حائط المبكى ، وهو الذي يحد الحرم الشريف من الغرب ، والذي يدعون أنه من بقايا هيكل سليمان . ذلك أن المسلمين كونوا جمعية حراسة المسجد الأقصى واستندوا إلى المادة الثالثة عشرة من وثيقة الإنتداب على فلسطين التي نصت على الاحتفاظ بالوضع الراهن في الأماكن المقدسة . ولكن اليهود عادوا إلى التحرش بالمسلمين في أغسطس من العام التالي حيث رفعوا علمهم الصهيوني على الحائط ، وأخذوا في إنشاء الأناشيد الدينية . وكان هذا هو عيد المولد النبوي عند المسلمين . فوقع صدام بين الطرفين امتد من القدس إلى الخليل ثم

إلى ييسان وحيفا ويافا ، وراح ضحيته عدد من القتلى من الطرفين وشكّث معظم اصابات العرب بأيدي القوات العسكرية والبوليس . وقرر العرب مقاطعة اليهود ، ولكن السلطات الاستعمارية نكلت بكل من حرص على المقاطعة أو أشرف على تنفيذها .

وأرسلت بريطانيا لجنة جديدة للتحقيق في الأمر ولدراسة الحالة وإعطاء التوضيات . وإختارت القاضي « شو » رئيسا لها . وردت اللجنة هذه الحوادث الى قلة قوات الأمن والنظام من ناحية ، وإلى شعور العرب بغموض السياسة البريطانية واعتقادهم بمحاباتها لليهود . فأوصت بضرورة عمل تصريح جديد يحدد اختصاصات الوكالة اليهودية ، ويؤكد للعرب أنها لا تشترك في حكم البلاد . كما أوصت بتنظيم الهجرة على أساس القدرة الاقتصادية لفلسطين على استيعابهم . وبالعمل على منع الهجرة غير المشروعة . وشرحت اللجنة سوء حالة العرب الاقتصادية ، وزيادة سكان الريف ، وعدم وجود أراضٍ للمهاجرين اليهود إلا باحلالهم محل العرب ، وما يترتب على ذلك من أخطار فنادت بضرورة وضع تقنين لحماية المزارعين العرب كوضع قيود على انتقال الأراضى الى اليهود . أما من الناحية السياسية فإنها قد أشارت الى أن درجة النضج السياسى متوفرة لدى العرب ، وأنهم قد شاركوا قبيل الحرب العالمية الأولى في مجلس المبعوثان التركى ، وأنهم مستاءون لحرمانهم من الحكم الذاتى .

واعتقد العرب فى ذلك الوقت أن الجو يسمح بالمفاوضات مع بريطانيا . فسافر وفد فلسطينى الى لندن لمقابلة المسؤولين فى شهر مارس سنة ١٩٣٠ وطالب بوقف الهجرة ، ومنع انتقال أراضى العرب إلى اليهود ، وتأليف

حكومة وطنية مسئولة أمام مجلس نيابي يشترك فيه الأهالي بنسبتهم العددية .
ولكن الحكومة البريطانية رفضت طلباتهم استناداً إلى أنها تسعى إلى أحداث
تغييرات دستورية تتعارض مع ما التزمت به في وثيقة الانتداب . فوضح أمام
العرب أن بريطانيا قد صممت على اهدار حقوقهم ، وأنها لا تسعى إلا إلى
كسب الوقت لتثبيت أركان الوطن القومي اليهودي في فلسطين .

ولكن بريطانيا خشيت من تأييد العالم العربي والاسلامي لعرب فلسطين
فأرسلت بلجنة جديدة برئاسة السير جون سمبسون ، جيد الشؤون العمرانية ،
لبحث مسألة الهجرة والأراضي في فلسطين . فظهر أن الأراضي الزراعية في
أيدى العرب أصبحت لا تكفي لضمان معيشة السكان ، وأن سياسة الحكومة
قد اضطرت عدداً كبيراً من الفلاحين إلى فقد عملهم ، وأرغمتهم على ترك
أراضيهم ، كما أن شروط الامتياز التي أعطتها بريطانيا لشركات الأراضي
الصهيونية سمحت لهذه المنظمات بالاحتفاظ بالأراضي التي يحصلون عليها
بشكل دائم ، وألا يستخدموا فيها سوى اليهود . وكان المزارع العربي محروماً
من المعونات والسلف التي يتمتع بها اليهودي ، وزاد عدده في الوقت الذي
تناقصت فيه مساحة الأرض التي يعيش عليها . ذكر تقرير سمبسون أن
البلاد لا تتسع لإنسان جديد ، ومالم يغير العرب وسائل وأساليب زراعتهم
فانه يعارض السماح في استمرار الهجرة اليهودية . وأوصى الحكومة ألا
تأذن بدخول عمال جدد في الوقت الذي يتعطل فيه العمال العرب . كما أوصى
بضرورة تشديد المراقبة على الحدود لمنع الهجرة غير المشروعة .

ولقد أثر هذا التقرير على الحكومة البريطانية ودفعها إلى نشر كتاب
أيض في عام ١٩٣٠ اعترفت فيه بمشكلة البطالة وخطرها ، وتعدت فيه

بالنظر بعين الاعتبار إلى قدرة فلسطين الاقتصادية وقدرتها على استيعاب مهاجرين جدد . فإذا كانت هجرة اليهود تسبب حرمان العرب من أعمالهم الضرورية ، أو كانت البطالة بين اليهود المهاجرين تؤثر على حالة العمل ، وجب على الحكومة أن تخفض عدد المهاجرين أو تمنع الهجرة حتى يتسنى للعاطلين الحصول على عمل . ووافق الكتاب الأبيض على ضرورة مراقبة الهجرة ومنع التهريب اليهودي . وصرح بأن الحكومة قد عقدت النية على تأليف مجلس تشريعي وفقا لمشروع تشرشر في عام ١٩٢٢ .

فرأى العرب ، رغم عدم حصولهم على جديد في الميدان الدستوري ، أنهم قد نجحوا في الحصول على ما يعرقل نمو الوطن القومي لليهود . ولكن إغتياب العرب كان قصير المدى . ذلك أن الصهيونية العالمية قد جمعت قواها . وهاجمت الكتاب الأبيض وسخرت في ذلك كل الصحافة الدولية . واستقال وايزمان من رئاسة الوكالة اليهودية ، فاضطرت الحكومة البريطانية إلى التراجع ودرست الموقف من جديد مع مندوبي الصهيونية ، وتلت ذلك بكتاب أسود وجهه ماكدونالد إلى وايزمان في فبراير سنة ١٩٣١ أكد فيه أن حكومته لا تفكر في وقف الهجرة الصهيونية إلى فلسطين أو حتى في خفض عددها ، وأنها لا تنوي منع اليهود من امتلاك أراض جديدة في فلسطين ، وتعترف بحق الشركات اليهودية في ألا تستخدم سوى العمال اليهود .

وكان هذا تراجعاً على طول الخط .

ثبت للعرب أن بريطانيا ترعى ذلك اللقيط الصهيوني ، وأنها يتكوتان جبهة واحدة .

ووضح أمام العرب أن الموقف يستلزم منهم عملاً إيجابياً يوجهونه ضد القوى الاستعمارية ، وضد أعوان الاستعمار في نفس الوقت .

(٢) الثورة : -

إزداد عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين من ٩٥٠٠ في عام ١٩٣٢ إلى ٣٣٠٠٠ في عام ١٩٣٣ و ٤٣٠٠٠ في عام ١٩٣٤ ثم إلى ٦٢٠٠٠ في عام ١٩٣٥ - هذا عدا الآلاف التي دخلت إلى فلسطين مهربة دون جواز سفر .

وساعد وجود واكهوب ، المندوب السامي البريطاني ، على رأس الإدارة الاستعمارية في فلسطين ، على التماهي في سياسة التهويد فانتقل مشروع تجفيف أراضي « الحولة » من أيدي العرب (غير الفلسطينيين) إلى أيدي اليهود ، وكذلك انتقل مشروع « ودي الحوادث » بعد أن طرد منه للعرب . وأغمضت السلطات الاستعمارية أعينها عن تسليح اليهود ، وأخذت شحنات الأسلحة تصل إليهم مع البضائع الأوربية ، وقامت القوات البريطانية بإعادة بعض الضباط وضباط الصف لتدريب اليهود على استخدامها .

وكانت هجرة اليهود فيما مضى شبه مقصورة على بلاد أوروبا الشرقية . ولكن وصول النازيين للحكم في ألمانيا ساعد اليهود على الاندفاع بأنهم مضطهدون واستندوا إلى ذلك لزيادة نسبة هجرتهم إلى الشرق العربي .

وتأكد العرب أن بريطانيا قد آستهانت بحقوقهم المشروعة ، وأنخذ الوزراء فيها يتبجحون بإظهار التفاؤل بنجاح الصهيونيين . وجاءت مسألة تسليح اليهود بقرار العرب ضرورة توجيه الحركة الوطنية ضد بريطانيا بصفقتها المسؤولة الأساسية عن كارثة البلاد ، كما قرروا كذلك ضرورة التسليح للدفاع عن النفس ضد أطماع الصهيونيين .

وكانت اللجنة التنفيذية العربية قد بدأت النضال السياسي منذ شهر أغسطس سنة ١٩٣١ ، وذلك بتنظيم المظاهرات الوطنية رغم تهديد قوات الاستعمار لها وتحرشه واشتباكه معها . ثم استغل الوطنيون المناسبات الوطنية ، كذكرى حطين ، واحتلال القدس وذكري الشهداء ووعد بلفور ، لتنظيم المظاهرات في المدن . واتخذت اللجنة التنفيذية العربية قرارا بالقيام بمظاهرة في القدس في يوم الجمعة ١٣ من أكتوبر سنة ١٩٣٢ . ورغم محاولة السلطات منع التجمع إلا أن المظاهرة خرجت من الحرم واشترك فيهما النساء والرجال ومرت بكينيسة القيامة ، وصرخت عاليا بالحرية والعروبة في وجه الاستعمار . لقد سقط بعض أبطال العروبة شهداء وجرحى في هذه المظاهرات ، ولكنها واصلت تنظيمها وسيرها وهتافاتها وازداد كل يوم قوة إيمانها بقضيتها وبضرورة الكفاح والتضحية من أجلها .

وعلى أن نذكر في هذه الفترة قيام المظاهرات السياسية المماثلة في كل من مصر وسوريا ، تلك المظاهرات التي أجبرت كلا من بريطانيا وفرنسا على عقد معاهدات ١٩٣٦ مع حكومتى القاهرة ودمشق . ولكن سلطات الاستعمار في فلسطين كانت عازمة على عدم التنازل عن تصليبها وانتهاكها للحقوق . فظهرت المنظمات السرية التي تجاهد بقوة السلاح لانتزاع الحق الوطني من غاصبية . وقامت منظمة الشيخ عز الدين القسام بالهجوم على مراكز القوات البريطانية في حيفا . وجاهدت منظمات أخرى بين نابلس وطولكرم .

وأخذت اللجان القومية تدعو العرب إلى الإضراب العام ، وانتشرت هذه اللجان القومية في طول البلاد وعرضها ، ونجح هذا الإضراب نجاحا كبيرا وتآلفت اللجنة العربية العليا للإشراف على الحركة وقيادتها (في ٢٥

من أبريل سنة ١٩٣٦) واجتمعت فيها كلمة كل الأحزاب واللجان القومية برئاسة السيد محمد أمين الحسيني ، رئيس المجلس الاسلامي الاعلى ، وعضوية ممثلى الأحزاب . وقررت استمرار الإضراب حتى تجاب مطالبها التى تشمل على منع الهجرة اليهودية منعاً تاماً ، ومنع انتقال الأراضى العربية إلى اليهود ، وإنشاء حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابى .

امتلات الشوارع بالمظاهرات ، وهاجمت المنظمات العربية مخافر قوات الاستعمار والمنشآت الصهيونية ، وواصلت عمليات تدمير السكك الحديدية ونسف الجسور وتخريب الطرقات . ولم يأبه العرب ، بلجان التحقيق البريطانية التى أرسلت اليهم ورفضوا الاتصال بها . ولم يشغلهم عن عزمهم سياسة البريطانيين الاستعمارية للتكميل بأحرار العرب وأبطالهم ، بل كانت الثورة فى أجلى معانيها ، رغم قوانين الطوارئ ، ومواجهتهم بالمدافع الرشاشة والمصفحات .

اشتملت هذه الثورة على جميع طبقات الأمة ، وكانت عنيفة ، وقررت الاستمرار والاستبسال . وأخذ المتطوعون يصلون إلى فلسطين من سوريا وشرق الأردن والعراق . وجاء القائد فوزى القاوقجى على رأس المتطوعين المجاهدين ، وانضم اليه رجال العرب ، وخاضوا المعارك المنظمة ضد قوات الاستعمار ، وأعوان الاستعمار . وأصبح مركز كل من البريطانيين واليهود مهدداً فى فلسطين ، كما خشيت بريطانيا على بترونها حين بدأ المجاهدون العرب فى تدمير خط الأنابيب الآتى من العراق عبر شرق الأردن إلى فلسطين فأسرت بريطانيا إلى ارسال الامدادات من منطقة القناة إلى فلسطين ، وجاءت بأمدادات أخرى من الهند . ولكنها تأكدت من عجزها عن اخضاع ثورة الأحرار . لقد اختار العرب الموت فى سبيل الحرية على العيش فى ظل

السعودية ، وتعاون العرب جميعا في الحركة التي بدت وكأنها معركة القومية العربية ، وعجزت بريطانيا عن النفاذ مع هؤلاء الشوار إلا عن طريق رؤساء العرب ، وكان البعض من بينهم يمتاز بتحاونه الصريح مع حكومة لندن ، ويخشى على ملكه أو أمارته من كل حركة ثورية شعبية ، وبخاصة إذا كان ملكه قائما على أساس قبلي أو اقطاعي . ونجحت بريطانيا في اقناع ملوك العرب وأمراءهم بأن استمرار هذه الثورة يضر بمصالح العرب وأن من الإنسانية التدخل لحقن الدماء فأرسل كل من الملك عبد العزيز آل سعود ، من المملكة العربية السعودية ، وغازي من بغداد ، والامام يحيى من تعز ، والأمير عبد الله من عمان ، بطلبات متطابقة يطهرون فيها تألمهم من الحالة السائدة في فلسطين ، ويدعون العرب فيها إلى الاخلاء إلى السكينة حثا للدماء . وأعلنوا فيها تقمهم بحسن نيات صديقتهم الحكومة البريطانية ، وبرغبتها المعلنة لتحقيق العدل ، وأكدوا لعرب فلسطين أنهم سيواصلون « المساعي » في سبيل مساعدتهم .

والمساعي من جديد ... ومن الملوك هذه المرة .

وعلى أي حال فلقد ثبت أن قضية فلسطين قد أصبحت قضية العرب كلها ، لا فرق فيها بين يمني وعراقي ومغربي . ووافقت اللجنة العربية على وساطة الملوك والأمراء ، وقررت انتهاء الاضراب في يوم ١٢ من أكتوبر بعد أن استمر ستة أشهر . وعاد كل إلى عمله في تضامن ظهرت فيه وحدة الصف العربي .

ولكن بريطانيا قررت أنه لا يوجد ما يعطلهم وقفت المبعوثون أنباء

تجنيق اللجنة الملكية المرسلة إلى فلسطين ، فقروا العرب مقنعة هذه اللجنة

واستعدوا لمواصلة الكفاح ، بعد أن بلغ عدد شهدائهم ما يزيد على الألف ، وزجت السلطات الاستعمارية بما يزيد على ثلاثة آلاف وطني عربي في السجون والمعتقلات . ولكن الملوك والأمراء تدخلوا مرة جديدة وطلبوا من العرب الانهال باللجنة وشرح قضيتهم أمامها . واستعطي هذه اللجنة مشروعا استعماريا جديدا يساعد على انشاء الوطن القومي لليهود ، وعلى حساب العرب .

(٣) مشروع التقسيم :

استمعت اللجنة الملكية إلى وجهات نظر رجال الإدارة الاستعمارية ثم إلى وجهات نظر الصيونييين الذين طالبوا بشرق الأردن عبلاوة على مطالبتهم بفلسطين . أما اللجنة العربية فأنها قدمت مذكرة بوجهات نظرها طالبت فيها بضرورة وقف الهجرة ومنع انتقال الأراضي العربية إلى اليهود ، كما نادت بانهاء الانتداب ، وعرضت أمر عقد معاهدة مع بريطانيا تقوم بعدها حكومة دستورية في الاقليم . ورأت اللجنة الملكية بوضوح محاباة الإدارة الاستعمارية البريطانية لليهود على حساب العرب وانخفاض نسبة السكان العرب في فلسطين نتيجة لهذه المحاباة من ٩٣ ٪ إلى ٧ ٪ فقط . وثبت لديها أن العرب يعارضون في انشاء الوطن القومي لليهود في فلسطين ، وأن انتشار الروح الوطنية في الوطن العربي بأكمله قد أثر تأثيرا كبيرا على هذه المنطقة ، كما أن ازدياد اليهودية باطواد وسيطرة اليهود على الرأي العام البريطاني والأوروبي وعجز بريطانيا عن الوقوف في وجه أطماع العرب دفع بأهالي فلسطين إلى عدم الثقة في تصرفات هذه الدولة وسياساتها .

فأوصت اللجنة بضرورة وضع حد للهجرة اليهودية لا يزيد على اثني عشر ألف مهاجر في السنوات الخمس التالية . وعلى أن يخضع ذلك لمقدرة البلاد

الاقتصادية على استيعابهم .

ورأت اللجنة أن عرب فلسطين قد اتحدوا مسلمين ومسيحيين معاً وأنهم يصلحون لتولى أمورهم وحكم أنفسهم بأنفسهم ، مثل عرب العراق ، وعرب سوريا . وأن اليهود كذلك يصلحون لإدارة شؤونهم . ولكن منح الحكم الذاتي لكتيها أمر غير عملي .

ولذلك فإنها وجدت أن الأمل الوحيد للخروج من المأزق لا يأتي إلا عن طريق إجراء عملية جراحية وهي التقسيم ، ما دامت بريطانيا لا تستطيع البقاء إلا إذا عملت على قمع الوطنيات الناشئة مع ما يهدد ذلك من إنتشار للكراهية وتفاقم للأحوال . فأوصت بضرورة إنهاء الانتداب وتقسيم فلسطين إلى دولتين : أحدهما عربية تضم إلى شرق الأردن ، وثانيها يهودية ، وإنشاء نظام معاهدات معها مشابهة للمعاهدات المفعودة مع العراق ومع سوريا وأن يلحق بهذه المعاهدات اتفاقيات عسكرية تخص إقامة القوات البرية والبحرية والجوية ، وتتعلق بالطرق والسكك الحديدية والموانئ وأتابيب البترول . كما اقترحت إنشاء منطقة ثالثة تشتمل على القدس وبيت لحم وتتصل بالبحر عن طريق ممر يصلها بيافا ماراً بمدينتي اللد والرملة ، وأوصت بأن تظل هذه المنطقة الثالثة تحت الانتداب على ألا يطبق فيها وعد بلفور ، وأن تظل الانجليزية هي لغتها الرسمية ، ولقد تركت اللجنة لليهود كل المنطقة الشمالية مع المنطقة الساحلية ، وتركت للعرب المنطقة الداخلية . ولكنها أوصت بأن تقوم الدولة اليهودية بدفع اعانة مالية للدولة العربية بعد إقامتها ، وأن تدفع الحكومة البريطانية مبلغ مليوني جنيه سنوياً اعانة للحكومة الأردنية . وقررت ضرورة تبادل السكان بين كل من المنطقتين العربية واليهودية . وأخيراً فإن

تطبيق هذا المشروع كان يتطلب فترة انتقالية قدرتها اللجنة بعشر سنوات لتصفية المسائل بين الدولتين الجديدتين .

ووافقت الحكومة البريطانية على هذا التغيير الأساسى الذى يتعارض ، بتقسيمه للأقليم ، مع نص وثيقة الانتداب وروحها ، بعد أن كانت قد رفضت اجراء أى تعديل على سياستها فى فلسطين . واستندت بريطانيا الى أن تجارب سبعة عشر عاما من حكم فلسطين قد دفعت بها الى الاعتقاد باستحالة التوفيق بين أمانى كل من العرب واليهود . ولكن الحكومة البريطانية تنامت أن العرب لا يقبلون قيام دولة يهودية فى أرضهم . وأنهم سيقاومون هذا المشروع بكل قوة ولم يكن تقرير الملكية وبيان حكومة لندن الا تحويل الوطن القومى لليهود الى دولة يهودية . بأكل معانيها ، ارضاء لأطماع اليهود ، وحفظا للمصالح الاستعمارية البريطانية واهداراً لحقوق العرب .

ومن العجيب أن الاقليم الذى حددته اللجنة للدولة اليهودية كان يشتمل فى ذلك الوقت على ٢٢٥ ألفا من السكان العرب ، و ٣٠٠ ألف من اليهود ، أى أن أغلبية السكان فيه كانت ، حتى ذلك الوقت ، ورغم الهجرة ، عربية . وأدخل هذا التقرير مناطق عكا وحيفا وطبرية وصفد فى الدولة اليهودية ، رغم أن سكانها يبالغون ثلاثة أضعاف السكان اليهود ، ويملكون من الارض الزراعية أضعاف ما يملكه اليهود . أما عن تبادل السكان فكان يعنى مبادلة ٣٢٥ ألف عربى من المنطقة الشمالية الغربية مع ١٠٥٠ يهودى فى المناطق الداخلية . وأخيراً وليس آخراً منطقة الانتداب الدائم كانت تشتمل على مطار اللد والرملة والمحطة الرئيسية للسكك الحديدية ، وعلى المواصلات التى تلتقى فيها خطوط مصر وحيفا والقدس ويافا ، ولقد أضاف التقرير منطقة العقبة الى نصيب الحكومة البريطانية فوضح أن بريطانيا تسعى

للاحتفاظ بهذه المراكز الاستراتيجية الهامة، رغم ادعائها ضرورة إلغاء انتدابها بدعوى حماية الأماكن المقدسة .

وما أن نشرت بريطانيا هذا المشروع حتى قابلته العرب بالرفض والاحتجاج وأيدت بقية الدول العربية أبناء فلسطين في سخطهم واحتجاجهم ورفضهم لهذا المشروع الجائر ، وظهر تصميم العرب على مواصلة الكفاح إلى أن تجاب مطالبهم ، وأما اليهود فأنهم رفضوا نصيبهم في التقسيم ، ولكنهم قبلوا فكرة إنشاء دولة يهودية صهيونية .

واجتمع مؤتمر عربي عام في بلودان بعد أن دعت إليه لجنة الدفاع عن فلسطين في أوائل سبتمبر سنة ١٩٢٧ ، وقرر هذا المؤتمر أن فلسطين جزء لا ينفصل عن الوطن العربي ، وأعلن رفضه ومقاومته لمشروع التقسيم وإنشاء دولة يهودية ، وطالب بانتهاء الانتداب ووقف الهجرة وإعلان استقلال فلسطين فحاولت الحكومة البريطانية كسب بعض الحكومات العربية إلى جانبها في اجتماع عصبة الأمم ، ولكنها فشلت في ذلك كل الفشل ، إذ أنها لم تجد حتى بين أشد أصدقائها إخلاصاً من يقبل مثل هذه السياسة أو يجرؤ على ربط اسمها بها .

ووقعت بعض حوادث الاغتيال في فلسطين ، فأخذت السلطات الاستعمارية في تطبيق سياسة البطش والتنكيل بالوطنيين العرب ، فاعتقلت زعماء الحركة الوطنية ، وحلت اللجنة العربية العليا ، وعزلت رئيس المجلس الإسلامي الأعلى من منصبه ، وأخذت في نفي الأحرار . فثارت فلسطين وثار معها العرب في حركة عارمة بدأت بالأضراب ، ثم أخذت شكل تدمير ونسف المواقع البريطانية وخطوط المواصلات وأنابيب البترول . وازداد تنكيل السلطات

الإستعمارية للعرب وتفننها في تعذيبهم بوسائلها البوليسية ، فلم يزد العرب على
أصرارهم إلا اصرارا وإيمانا واقداما على البذل والتضحية . وظهر أمام
الإستعماريين أن الثوار العرب يعتمدون على اخوانهم الأحرار في سوريا وفي
شرق الأردن والعراق ، فحاولت اقفال الحدود الشمالية مع سوريا ولبنان
بالأسلاك الشائكة ، وكذلك أجزاء من الحدود الشرقية ، وعززت هذه
الأسلاك بحقول الألغام . ولكن رجال الثورة هاجموا هذه الخطوط واخترقوها
واصلوا عملياتهم بكل شجاعة . وسيطرت الثورة على البلاد ، وزود الثوار
أنفسهم بالأسلحة التي انزعوها من مراكز البريطانيين ومواقعهم ، واحتل
رجال الثورة مدينة القدس القديمة ، واضطروا الحكومة الإستعمارية إلى
اقفال مكاتب البريد والمحاكم ونقط الشرطة في كثير من النواحي ، لعجز
قواتهم المسلحة عن حمايتها .

وأيدت البلاد العربية وحكوماتها عرب فلسطين في معركتهم الثورية
التحررية ، وجاء هذا التأييد صارخا من القاهرة ، ودمشق وعمان ، والرياض
ومن اليمن ، والسودان ، والمغرب ، وقامت المظاهرات في الهند لتأييد عرب
فلسطين .

ولقد شعرت بريطانيا بحرج مراكزها وخطورة موقف الصهيونيين ،
فعملت على امدادهم بكميات كبيرة من الأسلحة والذخائر ، وأرسلت لجنة فنية
لدراسة مسألة التقسيم من النواحي الإقتصادية والعسكرية والإنسانية .
وجاءت هذه اللجنة مهزلة جديدة لكسب الوقت فقاطعها العرب . وتقدمت
اللجنة الفنية بمشروع يقضى بتقسيم فلسطين إلى ثلاثة أجزاء : شمالية ووسطى
وجنوبية ، وأوصت ببقاء الانتداب على كل من الإقليمين الشمالي والجنوبي ،

وبتقسيم المنطقة الوسطى إلى ثلاث مناطق يهودية وعربية وبريطانية . وحاولت في هذه التوصيات المحافظة على مصالح وأطماع بريطانيا الاقتصادية والاستراتيجية في المنطقة من ناحية ، وارضاء الأطماع الصهيونية بإنشاء دولة لمشردتهم من ناحية أخرى - وعلى حساب العرب . ولكنها اعترفت بأن تنفيذ هذه الخطة يتطلب استخدام القوة ، واعترفت بأن المناطق العربية ستكون من الفقر بدرجة لا تسمح لها بموازنة إيراداتها ومصروفاتها .

فتأكدت بريطانيا أن الثورة العربية قد نجحت ، وأن مشروع التقسيم قد فشل نهائيا . كما تأكدت من عجزها من السيطرة على الموقف في فلسطين دون تدخل من بقية الدول العربية ، وبحث المسألة على المستوى العربي ، فعمدت الى عقد مؤتمر لندن للوصول الى تفاهم مع العرب ومع اليهود حول السياسة المقبلة في فلسطين . وكان فشل مشروع التقسيم من ناحية ، وبحث المسألة الفلسطينية على أساس عربي من ناحية أخرى أكبر دليل على نجاح الثورة الفلسطينية ووعى الأمة العربية . ووضح أن بريطانيا قد شعرت بأهمية العرب وخطورة الدور الذي قد يقومون به في حرب عالمية ثانية ، خاصة وأن الجو قد بدأ في التلبد بالغيوم ، وقامت ألمانيا بتهديد الامبراطورية البريطانية ومحاولة تغيير الوضع الدولي في أكثر من مكان . فحاولت بريطانيا أن تكسب كلام العرب واليهود واتخذت لنفسها منذ هذا اليوم مظهر الوصى الذي لا يسعى إلا لخير من أقام نفسه وصيا عليه .

ودعيت كل من حكومات بغداد والقاهرة وتغر وعمان للاشتراك في

هذا المؤتمر ، وعمدت بريطانيا إلى استشارة فرنسا بصفتها ممثلة لكل من سوريا ولبنان ، وإلى الاتصال بحكومة واشنطن . وأصر العرب على ضرورة تمثيل اللجنة العربية العليا لفلسطين ، فوافقت بريطانيا على ذلك بعد أن كانت قد حلت هذه اللجنة ونفت زعماءها من البلاد . واجتمع الانجليز بالعرب في الصباح ، وباليهود بعد الظهر ، خاصة وأن العرب قد رفضوا الجلوس على مائدة واحدة مع أذئاب الاستعمار الصهيونيين .

وعرضت بريطانيا في هذا المؤتمر تسوية تنص على قيام حكومة فلسطينية لا عربية ولا يهودية ، تعلن استقلالها وترتبط معها بمعاهدة تضمن للإمبراطورية الاحتفاظ بمصالحها الإقتصادية والاستراتيجية . ولكنها عرضت فترة انتقالية لمدة عشر سنوات لإجراء تطورات دستورية عن طريق اشراك الفلسطينيين في المجلس الاستشاري والتنفيذي ، ثم لتحويل هذا المجلس الأخير إلى مجلس ائتماني ، وكذلك للوصول إلى تعاون بين العرب واليهود في فلسطين . ولكن كان من حق العرب أن يتساءلوا عما يحدث لو لم يصل سكان فلسطين إلى مرحلة التعاون . فأجابت بريطانيا بأنها ستعاود حينئذ استشارة العرب واليهود والبلاد العربية وعصبة الأمم حتى تؤجل انشاء الدولة الفلسطينية فطالب مندوبوا الدول العربية بجعل هذا التأجيل مشروطا بموافقة الدول العربية عليه ، خاصة وأن نية بريطانيا كانت واضحة في أنها تطلب الوصول إلى تعاون وترفض قطع وعد صريح على نفسها بتسليم فلسطين لأهلها بعد فترة معينة .

ونشرت الحكومة البريطانية كتاباً أبيض في نفس السنة شرحت فيه مراحل الحكم الذاتي وعالجت فيه مسائل الهجرة ومسألة الأراضي ، فقررت أن تحدد الهجرة في الخمس سنوات التالية بعدد يرفع تعداد اليهود إلى ما يقرب من ثلث سكان فلسطين - أي أن تدخل ٧٥ ألف مهاجر يهودي ، وتقل بعد ذلك أبواب الهجرة نهائياً ما لم يسمح عرب فلسطين بمجيء مهاجرين آخرين ولكنها تركت للمندوب السامي سلطات واسعة لمنع وتنظيم انتقال الأراضي من أيدي العرب إلى أيدي اليهود .

وكان هذا الكتاب الأبيض نصراً مؤقتاً لبعض مطالب العرب إذ أن بريطانيا اعترفت فيه بحق فلسطين في الاستقلال ، وتركت جانباً مشروع التقسيم ، وحددت الهجرة بشكل قاطع . ولكنها اشترطت قيام تعاون بين العرب واليهود للوصول إلى الاستقلال ، وجعلت هذا الاستقلال مبهماً بعد مضي فترة العشر سنوات ، وواصلت بذلك إعطاء تصريحات مبهمة لخدمة أغراض وأطماع جديدة ، كما أنها احتفظت بحكومة الانتداب دون عمل على إقامة حكومة وطنية نياية ، أو إعطاء وعد بمنح دستور . وأخيراً فإنها تركت مسألة الأراضي تحت رحمة المندوب السامي . ولذلك فإن العرب قد رفضوا هذا الكتاب ولولا ظروف الحرب العالمية الثانية لواصلوا الكفاح .

ونجد أن اليهود قد رفضوا المشروع كذلك ونادوا بضرورة إنشاء دولة يهودية وبدءوا في الاعتداء على البريطانيين وإطلاق عصباتهم المسلحة ضد رجال الإدارة .

وأما الحكومة البريطانية فأنها قد أعلنت أنها ستنفذ نصوص
هذا الكتاب .

ولكن ظروف الحرب العالمية الثانية ستغير من القوى الموجودة في الميدان
ومن علاقة هذه القوى الواحدة بالأخرى ، خاصة وأن الولايات المتحدة
الأمريكية قد بدأت في القيام بدور هام فيها .

خاتمة الباب

نرى مما سبق أن الأطماع الإستعمارية البريطانية قد تركزت على فلسطين أكثر من تركها على أى إقليم عربى آخر ، وكان موقع فلسطين الاستراتيجى ، ومجاورتها لمصر ، وإمكانية وصلها بالعراق عن طريق إمارة شرق الأردن ، أسباباً تزيد من الأطماع البريطانية فى المنطقة . وكانت بريطانيا تحتاج إليها كـمخرج لخـط أنابيب البترول العراقى . وإذا كانت بريطانيا قد أفادت من الثورة العربية فى مدحكمها الى فلسطين ، إلا أنها قد قطعت وعوداً لفرنسا ولليهود تتعارض مع وعودها للعرب . وكانت بريطانيا قد ربطت نفسها ومصالحها باليهود المسيطرين على الاقتصاد العالمى . وعمدت بريطانيا الى ارضاء اليهود فى فلسطين حتى توازن بينهم وبين العرب . ولكنها كرسـت نفسها فى خدمة الصهيونيين وساعدت بذلك على تبلور الرأى العام الفلسطينى ضد وجودها فى الإقليم .

ورغم أن المعسكر العربى الفلسطينى كان يقاسى من ضعف قيادته وانقسام صفوفه وتعدد الاتجاهات فيه ، إلا أنه تمكن من أن يجمع قواته وينزل بها الى معارك متتالية ، بدأت ضد اليهود ، ثم استمرت ضد اليهود البريطانيين معاً .

وإذا كانت بريطانيا قد تأكدت فى الثلاثينات من عدم امكان التوفيق بين أطماع اليهود المتزايدة ومصالح العرب المشروعة ، فان عملها على تقسيم فلسطين بين المعسكرين ، وفى الوقت الذى تحتفظ فيه بامتيازاتها لاقتصادية

والاستراتيجية ، كان يعنى خروج الموقف من بين يديها وفقدانها سيطرتها عليه وإذا كانت بريطانيا قد أدخلت اليهود الى فلسطين إلا أنها ساعدت بنفس العملية ، وبطريق غير مباشر على إخراج نفسها من فلسطين ومن كل العالم العربى الذى أجبرته هذه السياسة الاستعمارية على الاستيقاظ من سباته الطويل وعلى مواجهة الحقيقة ، حتى وإن كانت مرة ، وبوسائل عملية .

خرائط الكتاب

صفحة

خريطة رقم (١)

العالم العربي في العصور الوسطى ١١٣

خريطة رقم (٢)

القسم الشرقي من العالم العربي والذي طالب بامتقلاله الشريف

حسين بن علي ١١٥

خريطة رقم (٣)

سوريا وتقسيماتها الإدارية تحت الادارة العثمانية ١١٧

خريطة رقم (٤)

تقسيم بلاد العراق والشام حسب اتفاقية سايكس بيكو

سنة ١٩١٦ ١١٩

خريطة رقم (٥) :

مناطق الانتداب البريطاني والفرنسي ١١١

خريطة رقم (٦)

العراق ١٢٣

خريطة رقم (٧)

مشروع تقسيم فلسطين ١٢٥

خريطة (رقم ٨)

خريطة فلسطين الآن ١٢٧

محتويات الكتاب

الباب الأول

شبه الجزيرة العربية

صفحة	
١	المقدمة
١٧	الفصل الأول - نجد :
١٧	١ - عبد العزيز آل سعود
٢٢	٢ - إنشاء الإخوان
٢٦	٣ - الحرب والحياد
٢٩	٤ - النزاع مع الحسين
٣٤	الفصل الثاني - الحجاز :
٣٤	١ - انزال الحسين بن علي
٢٩	٢ - التوازن بين القوى العربية
٤٢	٣ - هجوم الإخوان وتنازل الحسين
٤٧	٤ - وصول عبد العزيز آل سعود
٥١	٥ - نهاية حكم الهاشميين

صفحة

الفصل الثالث - المملكة العربية السعودية : ٥٧

١ - الخلافة والعالم الإسلامى ٥٧

٢ - العلاقات مع بريطانيا وحلفائها ٦٣

٣ - إعلان وحدة المملكة ٦٧

٤ - البترول وأمريكا ٧١

الفصل الرابع - اليمن : ٧٥

١ - الامام يحيى والزيدية ٧٥

٢ - اليمن في الحرب ٨٢

٣ - التنافس الانجليزى - الايطالى ٨٥

٤ - الغزو السعودى ٩٠

٥ - العزلة والاحتفاظ بالوضع القائم ٩٥

خاتمة الباب ٩٩

الباب الثانى

الهلل الحصب

الفصل الخامس - العراق : ١٠٣

١ - التطور والانقسام ١٠٣

٢ - المصالح والأطماع الاستعمارية ١١٠

٣ - الاحتلال البريطانى ١٣٦

٤ - الادارة المباشرة وعدم الرضاء ١٤٣

٥ - الثورة وتخيرها ١٥٢

صفحة

الفصل السادس - المملكة العراقية : ١٦٥

١ - المعاهدة مع بريطانيا ١٦٦

٢ - مشكله الموصل والبتروول ١٧٦

٣ - المفاوضات من جديد ١٨٧

٤ - الاستقلال ١٩٥

٥ - المملكة وجيرانها ٢٠١

الفصل السابع - سوريا والوحدة والاستقلال : ٢٠٧

١ - النمو الاقصادى والاجتماعى ٢٠٧

٢ - أطماع الاستعمار وغدره ٢١٣

٣ - الحرب والصليح ٢٢٢

٤ - المؤتمر السورى ٢٣١

٥ - الاحتلال ٢٣٨

الفصل الثامن - سوريا والانتداب الفرنسى : ٢٥٣

١ - الفرنسيون والسوريون ٢٥٤

٢ - التفرقة العنصرية ٢٥٩

٣ - الثورة ٢٦٧

٤ - المفاوضات ٢٧٢

خاتمة الباب ٢٧٩

الباب الثالث فلسطين

الفصل التاسع - الاطماع الاستعمارية في فلسطين :	٢٨٠
١ - أهمية فلسطين	٢٨٣
٢ - مخلب القط	٢٨٩
٣ - تعهد الحلفاء	٢٩٤
الفصل العاشر - بريطانيا والانتداب :	٣٠١
١ - التعاون	٣٠١
٢ - النفاق	٣٠٦
٣ - الانتداب	٣١٣
الفصل الحادى عشر - العرب والوطن القومى لليهود :	٣١٩
١ - سياسة التهويد	٣١٩
٢ - الثورة	٣٢٩
٣ - مشروع التقسيم	٣٢٣
خاتمة الباب	٣٤٣
فهرس الخرائط	٣٤٥
محتويات الكتاب	٣٤٧



ملتزم الطبع والنشر دار المعارف - ١١١٩ كور نيش النيل
فرع الاسكندرية ٤٢ شارع سعد زغلول - ٢ ميدان التحرير (المنشئة)